البدائع والطرائف

﴿ مقالات ومنظومات حديثة ﴾

ورسوم خيالية

لجبران خليل جبران

عني بنشرها

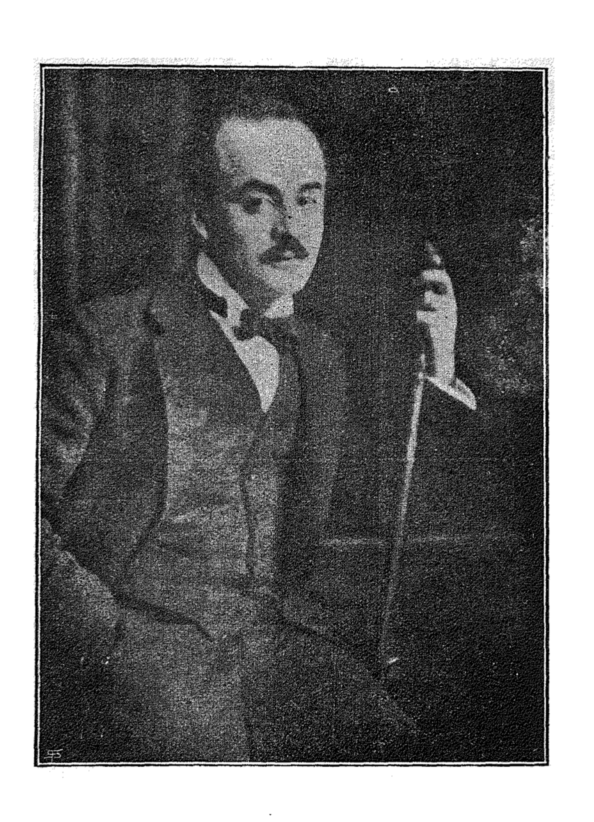
يوسف توما البستاني

صاحب مكتبة العرب بمصر



١٩٢٣

مطبعة يوسف كوي بمصر



جبران خليل جبران

البدائع والطرائف

﴿ مقالات ومنظومات حديثة ﴾

ورسوم خيالية .

لجبران خليل جبران

عني بنشرها

يوسف توما البستاني
صاحب مكتبة العرب

مطبعة يوسف كوى بمصر

كلمة للناشر

جبران خليل جبران الشاعر الناثر والراسم الشاعر وكفى .

رسومه الساكتة الناطقة بهجة الانظار

واقواله المنثورة سارت سير الامثال

واشعاره المنظومة ، وان قلت ، طرفٌ يتناشدها الادباء في الاسمار والاسحار

فيها الابر ، وفيها الحكم والعبر

لكنها ، مسطورةً في هذه المجلة او تلك الصحيفة درراً نثيرة وصوراً مبعثرة ، تكلف الغواص عليها وقتاً وعنتاً فرأينا ان نفر له الوقت يضيع سدى ونحتمل عنه العنت . فجمعنا ، بعد العناء ما تبدد من مقالاته المائعة ومنظوماته الرائعة ورسومه الوسيمة الفاتنة كلَّ جديد طارف ضمناه الى كتاب اسميناه « البدائع والطرائف » فاذا هو بعون الله ابدع مجموعة ظهرت له فيها كل حكمة ساطعة وكل قول جميل

لعلنا قمنا بواجب نحو هذه اللغة الشريفة وقرائها الكرام ؟

يوسف توما البستاني

صاحب مكتبة العرب بالفجالة بمصر

جبران خليل جبران

ابتدع جبران لنفسه طريقة في الكتابة اكتسب بها اعجاب الجمهور وامتلك قلوب القراء بمواضيعه الشائقة فتحداه في أسلوبه كثيرون من الكتاب المعاصرين ولكن شتان ما بين الثريا والثرى

وُلد جبران سنة ١٨٨٣ في بشري من أعمال لبنان (ويقال بل في بومباي الهند) وترعرع في شمالي لبنان تحت سمائه الخرة وفوق انقاض العصور السالفة . ثم تلمذ في مدرسة الحكمة في بيروت فتلقن فيها العربية . وهناك بدأ قلمه السيال باظهار ما تكنه نفسه الكبيرة من أسرار البلاغة والبيان . ولم يلبث بعد خروجه من المدرسة ان هاجر الى باريز فأقام فيها أشهراً . ثم جاء الولايات المتحدة فقطن بوسطن مدينة العلم زمناً اشتغل فيه بالكتابة والتصوير . ثم عاد الى باريس سنة ١٩٠٨ لينهي فيها دروسه الفنية فأقام فيها ثلاث سنوات حاز في آخرها شهادة الامتياز في كلية الفنون الافرنسية مبرزاً على اربعمئة من أرفاقه المصورين المختلفي الجنسية . وقبلت رسومه في المعرض الأممي السنوي . وسمي عضواً في جمعية الفنون الافرنسية . ونال عضوية الشرف في جمعية المصورين الانكليزية . ثم عاد الى الولايات المتحدة واتخذ نيو يورك مسكناً له . وهو الآن عضو في جمعيات فنية وشعرية عديدة .

جبران خليل جبران

ومعرضه التصويري (١)

اسم جبران خليل جبران في الآداب العربية يستنزل على قلب من يعرفه بهجة غيرة واعجاباً ويحرك في قارئه شواعر غزيرة صافية تتدفق من نفس وجدت في كتاباته راحتها ونورها وطريقها المؤدية الى قمم الحقيقة والفجر الروحي .

ولكن لجبران اسماً في غير الآداب ، ولحياته الروحية أثماراً غير الكتب والدواوين . أن له عدا ذلك اسماً عاطراً وصيتاً ذائعاً في فن التصوير . وله من الآثار في هذا الفن الشريف ما جعل له مكانة سامية في عالم الفن الاميركي (ومن لي بأن أقول السورى ؟) يعترف بها الناقدون الخبيرون

يقيم جبران كل سنة معرضاً يجلو به صوره الجديدة شأن كبار المصورين وقد أقام من عهد قريب معرضاً لصوره الصغيرة اتاح لنا الحظ ان نكون في جملة من استعرضوها في قاعات كنودلر الشهيرة في نيو يورك .

دخلنا الحجرة المخصصة لصور جبران خاشعين . وجلسنا نتأمل صوره الاربعين مستفسرين غوامضها مستجلين رموزها في سكينة لطيفة غامرة لم يعكرها وجود المتفرجين . فرأينا روح جبران الساميـة متجلية في رسومه كما كنا نراها في تضاعيف سطور مقالاته .

معرض جبران يهمنا نحن السوريين كثيراً لانه جل ما عندنا من الغنى الفني ان لم يكن كله . فليس من يمثلنا في هذا الفن الجليل الجميل سوى جبران — وقد يذكر غيرنا واحداً أو اثنين سواه من الذين لا يزالون مجهولين عندنا — فلذلك يستدعي هذا المعرض قول كلمة نقدٍ منا تفيه حقه من وجهتيه الفنية والوطنية المتعلقة بنا . ولكننا لا نرى من نفسنا أهلية واستحقاقاً لان ننخرط في عداد منتقدي التصوير . ولهذا نستعين على

---

(١) من مقالة لمجلة الفنون التي كانت تصدر بنيويرك

غرضنا بايراد بعض ما قالته الصحافة الاميركية في هذا المعرض — وقد قالت فيه كثيراً — وانما نقتضب مما وقع تحت أعيننا في الصحف التي اعتدنا مطالعتها .

قالت جريدة « نيويورك اميركان » تحت عنوان « رؤى مصور شاعر » — « رسوم جبران تُشغل احدى الغرف في معرض كنودلر وتلبس تلك الحجرة حلة غرابة تقصيها عما حولها من الاعتياديات . وذاك لان جبران شاعر مثلما هو مصور ، ولان سكون تلك الحجرة كان مكتظاً بمخلوقات مخيلته . وكأني بالمتأمل فيها يدخل الى حُجْرة النفس البشرية فيجدها مسكونة باشباح التذكارات والاحلام والشواعر

هناك رهط من القنطورس (١) يتلهون بالانسان كأنه لعبة وهناك بشر مستغرقون في وحدتهم . وآخرون اقل وحدة منهم يعانق بعضهم بعضاً . وهناك وجوه مستغرقة في هواجسها استغراقاً عميقاً حتى لتكاد تحسبها نائمة . وهناك هدوء تام حتى أنك لتحسب الهواء فارغاً تسكنه أرواح هي أشواق ونزعات صامتــة يتساءل عنها الفؤاد قائلاً : أهي يا ترى نتيجة شواعر لم تنطبق على الواقع أم هي خبرة لم تكن سوى اغترار ! وما أهيب هذا المكان وقد ابكمه الغموض ونابت فيه الشهوة عن الارادة ووضع القدر الاعمى الشهوة تحت أمره .

أجل ان القدر الاعمى ليرف فوق كل شيء هناك بطيئاً في عمله كأنه يتلمس طريقه واثقاً بقوته أكثر من وثوقه بقصده ، بينا الانسانية تخضع امامه ذليلة مترقبــة فجر الحرية ليحل قيودها ويطلق سراحها ويفتح عينيهــا للنور ويمنح روحها جناحاً ويسعفها لتغلب نفسها بنفسها فتسود على القدر الذي كان لها سيداً .

وكأني بالترقب المتوتر قد حصر النظر في وجه من الوجوه بين تلك الصور . وهو وجه امرأة دقيق الرسم لطيف الملامح قد علا فوق الارض والصخور حيث تولدت أشكال مبهمة غير كاملة ولم ينفصل عنهــا تماماً بل لا يزال مربوطاً بها صلات القرابة . ارتفعت الامرأة نحو الاعالي ووجها يتألق بنور ناعم لين كالقمر في ظلال الفجر وأجفانها قد أخذت

---

(١) القنطورس حيوان خرافي نصفه الاعلى انسان ونصفه الاسفل حصان

بالانفتاح لاقتبال نسمة الروح . وقد دعا المصور هذه الصورة الجميلة الموضحة مظهراً رائعاً غريباً من الاحتمال والشوق باسم « السكينة »

وفي المكان نفسه فوق بقية الرسوم صورة جسم طائر لا جناح له يعتمد في طيرانه على قوته الفريزية في العوم والحركة . وذلك الجسم قد انبسط عارياً انبساطاً حراً مطلقاً على بياض الورق . وبين هذا الجسم والخلاء من المناسبة في الدقة والنعومة ما ينتقل بمخيلة الناظر رغماً الى ما وراء حدود القرطاس . فيخيل له ان ذلك الجسم يتحرك باستقلال في عباب اللانهاية »

وقالت جريدة « كرسشن سايانس مونيتور » — « لم يبقَ من التأثيرات العديدة المختلطة التي علقت بذهننا اثناء زيارة سريعة للمعارض التصويرية ما هو أشد صراحة من التأثير الذي احدثته فينا رسوم جبران المعروضة في معرض كنودلر .

جبران سوري ولد في منحدرات لبنان الغناء العريقة في القدم . والظاهر ان التخيلات الشعرية الشرقيــة بغوامضها الباطنية ثبتت فيه رغم التغيرات الجوهرية التي انتقل اليها اثناء درسه الادب وتعاطيه التصوير سنين عديدة في باريس ونيويورك . . . . »

وقالت مجلة « اميركان آرت نيوز » — « تُعرض في معرض كنودلر رسوم لجبران خليل جبران ينتهي عرضها في العاشر من شباط . هذه الرسوم وان كانت تنم عن تأثير فن « رودان » في جبران ، فهي تبرهن على مقدرة الاخير وتفننه . . . وبعض هــذه الصور خيالية غريبة . وتستحق دون شك التفات القوم . »

وقالت جريدة « التايمس » في مجلتها الاحدية — « في معرض كنودلر رسوم لجبران تسبب لذة عظمى للجمهور الميال الى هذه الاساليب من الفن ، معلوم ان نية المصور تقاس باهمية رسومـه . فاذا تعمق حتى وصل الى جوهر موضوعه وعرض علينا مايراه مغتبطاً اغتباط من يكتشف شيئاً جديداً ، فهو المصور الحقيقي مهما عرض له اثناء ابحاثه العنيفة في عمله الدقيق ، ويلذ لنا ان نرى ان كثيرين من المصورين الذين يستميلهم التعمق في منهجهم يعدلون احياناً كثيرة الى البساطة ويجدون راحة في العود الى التصوير بالفحم أو بالقلم . »

وقالت جريدة « التربيون » النيويوركية — « رسوم جبران المعروضة في متحف كنودلر تبلغ الاربعين عداً . وهي حديثة الطرز بمعناها اكثر منها بمبناها . وتذكر باسلوب تصاوير رودان الشهير — على ان جبران يعتني في رسومه اكثر منه ويرسم الهيئات مستعملاً خطوطاً كثيرة حيث لا يستعمل رودان الا خطاً واحداً — وجبران خيالي ورمزي و « مفكر رزين » . . . . . »

ونشرت مجلة « الفنون السبعة » مقالة ضافية تحت عنوان « فن جبران خليل جبران » بقلم احدى شهيرات المنتقدات الاميركيات فاعطت وطنينا حقه من التقدير والمديح . ولقد كنا نود تعريبها بكاملها لنطلع قراءنا على ما لجبران من المكانة في عالمي الفن والادب الاميركيين لولا ضيق الفسحة فلذلك نكتفي بايراد بعض جمل منها —

« فن جبران رمزي سامي المغازي ، لان اصوله ليست في التصويرات بل في تلك الحقائق الجوهرية التي تظل ثابتة في كل العصور والتجاريب . . .

جبران يهتم في فنه ليس بتاريخ الانسان فقط بل بتاريخ الحياة أجمع . ويهمه منها ليس وصفها وتصويرها فقط بل فوق ذلك مقاسمتها عراكها الابدي .

ففنه عصري كروح عصرنا الحديث ، وقديم كالزمان . . . »

هذا هو جبران المتفنن كما يقدره الاجانب ومن الغبن والحيف المدهش ان نرى صحافتنا لم تكترث بمعرضه ولم تفِه حقه من النقد والذكر . فكأن الفن في عرفها لا يستحق تنويهاً بازاء مواضيعها الدنيوية ، ولذلك تركت للاميركيين حق الافتخار بعصور شرقي نحن احق باكرامه من الاجانب ولكن ربما صدق فينا القول المأثور « ليس لنبي كرامة في وطنه »

القشور واللباب

ما شربت كاساً علقمية الا كانت ثمالتها عسلا .

وما صعدت عقبة حرجة ألا بلغت سهلا اخضر .

وما اضعت صديقاً في ضباب السماء الا وجدته في جلاء الفجر .

وكم مرة سترت المي وحرقتي برداء التجلد متوهما ان في ذلك الاجر والصلاح ، ولكنني لما خلعت الرداء رأيت الالم قد تحول الى بهجة والحرقة قد انقلبت بردا وسلاما .

وكم سرت ورفيقي في عالم الظهور فقلت في نفسي ما احمقه وما ابلده ، غير انني لم ابلغ عالم السر حتى وجدتني الجائر الظالم والفيته الحكيم الظريف .

وكم سكرت بخمرة الذات فحسبتني وجليسي حملاً وذئبا ، حتى اذا ما صحوت من نشوتي رأيتني بشرا ورأيته بشرا .

انا وانتم ايها الناس ماخوذون بما بان من حالنا ، متعامون عما خفي من حقيقتنا ، فان عثر احدنا قلنا هو الساقط ، وان تماهل قلنا هو الخائر التلف ، وان تلعثم قلنا هو الاخرس ، وان تأوه قلنا تلك حشرجة النزع فهو مائت .

انا وانتم مشغوفون بقشور «انا» وسطحيات «انتم» لذلك لا نبصر ما اسره الروح الى «انا» وما أخفاهُ الروح في «انتم» .

وماذا عسى تفعل ونحن بما يساورنا من الغرور غافلون عما فينا من الحق ؟

اقول لكم ، وربما كان قولي قناعا يغشي وجه حقيقتي ، اقول لكم ولنفسي ان ما نراه باعيننا ليس باكثر من غمامة تحجب عنا ما يجب ان نشاهده ببصائرنا ، وما نسمعه باذاننا ليس الا طنطنة تشوش ما يجب ان نستوعبه بقلوبنا . فان رأينا شرطيا يقود رجلا الى السجن علينا الا نجزم في ايهما المجرم . وان رأينا رجلا مضرجا بدمه وآخر مخضوب اليدين فمن الحصافة ألا نحتم في ايهما القاتل وايهما القتيل . وان سمعنا رجلا ينشد وآخر يندب فلنصبر ريثما نتثبت ايهما الطروب .

لا يا اخي لا تستدل على حقيقة امرئٍ بما بان منه ، ولا تتخذ قول امرىء او عملا من اعماله عنوانا لطويته . فرب من تستجهله لثقل في لسانه وركاكة في لهجته كان وجدانه منهجا للفطن وقلبه مهبطا للوحي ورب من تحتقره لدمامة في وجهه وخساسة في عيشه كان في الارض هبة من هبات السماء وفي الناس نفحة من نفحات الله .

قد تزور قصرا وكوخا في يوم واحد فتخرج من الاول متهيبا ومن الثاني مشفقا ، ولكن لو استطعت تمزيق ما تحوكه حواسك من الظواهر لتقلص تهيبك وهبط الى مستوى الاسف ، وانبدلت شفقتك وتصاعدت الى مرتبة الاجلال .

وقد تلتقي بين صباحك ومسائك برجلين فيخاطبك الاول وفي صوته اهازيج العاصفة وفي حركاته هول الجيش اما الثاني فيحدثك متخوفا وجلا بصوت مرتعش وكلمات متقطعة ، فتعزو العزم والشجاعة الى الاول ، والوهن والجبن الى الثاني ، غير انك لو رأيتهما وقد دعتهما الايام الى لقاء المصاعب ، او الى الاستشهاد في سبيل مبدإٍ ، لعلمت ان الوقاحة المبهرجة ليست ببسالة والخجل الصامت ليس بجبانة .

وقد تنظر من نافذة منزلك فترى بين عابري الطريق راهبة تسير يمينا ومومسا تسير شمالا ، فتقول على الفور « ما انبل هذه وما اقبح تلك ! » ولكنك لو اغمضت عينيك واصغيت هنيهة لسمعت صوتا هامسا في الاثير قائلا « هذه تنشدني بالصلاة وتلك ترجوني بالالم وفي روح كل منهما مظلة لروحي »

وقد تطوف في الارض باحثا عما تدعوه حضارة وارتقاء ، فتدخل مدينة شاهقة القصور فخمة المعاهد رحبة الشوارع ، والقوم فيها يتسارعون الى هنا وهناك فذا يخترق الارض وذاك يحلق في الفضاء ، وذلك يمتشق البرق ، وغيره يستجوب الهواء ، وكلهم بملابس حسنة الهندام ، بديعة الطراز ، كأنهم في عيد او مهرجان .

و بعد ايام يبلغ بك المسير الى مدينة اخرى حقيرة المنازل ضيقة الازقة اذا امطرتها السماء تحولت الى جزر من المدر في بحر من الاوحال . وان شخصت بها الشمس انقلبت غيمة من الغبار . اما سكانها فما برحوا بين الفطرة والبساطة كوترٍ مسترخٍ بين طرفي القوس ، يسيرون متباطئين و يعملون متماهلين ، و ينظرون اليك كأن وراء عيونهم عيونا

تحدق بشيءٍ بعيد عنك ، فترحل عن بلدهم ماقتا مشمئزا قائلا في سرك « انما الفرق بين ما شهدته في تلك المدينة وما رأيته في هذه لهو كالفرق بين الحياة والاحتضار ، فهناك القوة بمدّها وهنا الضعف بجزره ، هناك الجد ربيع وصيف وهنا الخمول خريف وشتاء ، هناك اللجاجة شباب يرقص في بستان وهنا الوهن شيخوخة مستلقية على الرماد »

ولكن لو استطعت النظر بنور الله الى المدينتين لرأيتهما شجرتين متجانستين في حديقة واحدة . وقد يمتد بك التبصر في حقيقتها فترى ان ما توهمته رقيا في احداهما لم يكن سوى فقاقيع لساعة زائلة وما حسبته خمولا في الاخرى كان جوهرا خفيا ثابتا .

لا ليست الحياة بسطوحها بل بخفاياها ، ولا المرئيات بقشورها بل بلبابها ، ولا الناس بوجوههم بل بقلوبهم .

لا ولا الدين بما تظهره المعابد وتبينه الطقوس والتقاليد ، بل بما يختبىء في النفوس ويتجوهر بالنيات .

لا ولا الفن بما تسمعه باذنيك من نبرات وخفضات اغنية ، او من رنات اجراس الكلام في قصيدة ، او بما تبصره بعينيك من خطوط والوان صوره ، بل الفن بتلك المسافات الصامتة المرتعشة التي تجيء بين النبرات والخفضات في الاغنية ، وبما يتسرب اليك بواسطة القصيدة مما بقي ساكنا هادئا مستوحشا في روح الشاعر ، وبما توحيه اليك الصورة فترى وانت محدق بها ما هو ابعد واجمل منها

لا يا اخي ، ليست الايام والليالي بظواهرها ، وانا ، انا السائر في موكب الايام والليالي لست بهذا الكلام الذي اطرحه عليك الا بقدر ما يحمله اليك الكلام من طويتي الساكنة . اذن لاتحسبني جاهلا قبل ان تفحص ذاتي الخفية ، ولا تتوهمني عبقريا قبل ان تجردني من ذاتي المقتبسة . لا تقل هو بخيل قابض الكف قبل ان ترى قلبي ، او هو الكريم الجواد قبل ان تعرف الواعز الى كرمي وجودي . لا تدعُني محباً حتى يتجلى لك حبي بكل ما فيه من النور والنار ، ولا تعدني خليا حتى تلمس جراحي الدامية .

نفسي مثقلة بأثمارها

نفسي مثقلة بأثمارها فهل من جائع يجني و يأكل و يشبع ؟

أليس بين الناس من صائم رؤوف يفطر على نتاجي و يريحني من اعباء خصبي وغزارتي ؟

نفسي رازحة تحت عبء من التبن واللجين فهل بين الناس من يملأ جيوبه ويخفف عني حملي ؟

نفسي طافحة من خمرة الدهور فهل من ظامىء يسكب و يشرب و يرتوي ؟

هوذا رجل واقف على قارعة الطريق يبسط نحو العابرين يداً مفعمة بالجواهر ، و يناديهم قائلاً : « الا فارحموني وخذوا مني . اشفقوا علي وخذوا ما معي » اما الناس فيسيرون ولا يلتفتون

الا ليته كان شحاذاً متسولاً يمد يداً مرتعشة نحو العابرين و يرجعها فارغة مرتعشة ليته كان مقعداً اعمى يمر به الناس ولا يحفلون

هوذا مثر جواد نصب خيامه بين مجاهل البيداء وخف الجبل ، يوقد نار القرى كل ليلة و يبعث عبيده ليرصدوا السبل لعلهم يقودون اليه ضيفاً يقريه و يكرمه ، ولكن السبل بخيلة لا تجود على هباته بمرتزق ، ولا تبعث الى هباته بطالب

الا ليته كان صعلوكاً منبوذاً !

ليته كان عياراً متشرداً يطوف البلاد وفي يده عكاز وفي كوعه دلو ، فاذا ما جاء المساء جمعته ملتويات الازقة بزملائه العيارين المتشردين فيجلس بقربهم و يقاسمهم خبز الصدقة !

هوذا ابنة الملك الاكبر قد استيقظت من رقادها وهبت من مضجعها وقامت فتردت بارجوانها و برفيرها وتزينت بلؤلؤها و ياقوتها ونثرت المسك على شعرها وغمست في ذوب العنبر اصابعها ثم خرجت الى حديقتها ومشت وقطرات الندى تبلل اطراف ثوبها .

في سكون الليل سارت ابنة الملك الاكبر في جنتها تبحث عن حبيبها. ولكن لم يكن في مملكة ابيها من يحبها .

الا ليتها كانت ابنة زراع ترعى اغنام ابيها في الاودية وتعود مساء الى كوخ ابيها وعلى قدميها غبار المنعكفات و بين طيات ثوبها رائحة الكروم . حتى اذا ما جن الليل ونام سكان الحي اختلست خطواتها الى حيث يترقبها حبيبها

ليتها كانت راهبة في الدير تحرق قلبها بخوراً فينشر الهواء عطر قلبها . وتوقد روحها شمعاً فيحمل الاثير نور روحها . وتركع مصلية فتحمل اشباح الخفاء صلواتها الى خزائن الزمن حيث تصان صلوات المتعبدين بجانب حرقة المحبين وهواجس المستوحدين !

ليتها كانت عجوزاً مسنة تجلس مستدفئة في اشعة الشمس بمن تقاسموا صباها . فذاك خير من ان تكون ابنة الملك الاكبر وليس في مملكة ابيها من يأكل قلبها . و يشرب دمها خمراً !

* * *

نفسي مثقلة باثمارها

نفسي مثقلة باثمارها فهل في الارض جائع يجني و يأكل و يشبع ؟

نفسي طافحة بخمرها فهل من ظامىء يسكب و يشرب و يرتوي

الا ليتني كنت شجرة لاتزهر ، ولا تثمر ، فالم الخصب امرُّ من الم العقم ، واوجاع ميسور لا يؤخذ منه لاشد هولا من قنوط فقير لا يرزق

ليتني كنت بئراً جافة والناس ترمي بي الحجارة فذلك اهون من ان اكون ينبوع ماء حي والظامئون يجتازونني ولا يستقون

ليتني كنت قصبة مرضوضة تدوسها الاقدام فذاك خير من ان اكون قيثارة فضية الاوتار في منزل ربه مبتور الاصابع واهله طرشان !

حفنة من رمال الشاطئ

كآبة الحب تترنَّم . وكآبة المعرفة تتكلَّم . وكآبة الرغائب تهمس . وكآبة الفقر تندب . ولكن هناك كآبة اعمق من الحب وأنبل من المعرفة . وأقوى من الرغائب . وأمرّ من الفقر . غير انها خرساء لا صوت لها اما عيناها فشمشعتان كالنجوم

عندما تشكو مصاباً لجارك . تهبه جزءاً من قلبك فان كان كبير النفس شكرك . وان كان صغيرها احتقرك

ليس التقدم بتحسين ماكان بل بالسير نحو ماسيكون

المسكنة نقاب يخفي ملامح الكبرياء . والدعوى قناع يغشى وجه البلاء

عند مايجوع المتوحش يقطف ثمرة من شجرة ويأكلها وعندما يجوع المتمدن يشتري ثمرة ممن اشتراها ممن اشتراها ممن قطفها من الشجرة

الفن خطوة من المعروف الظاهر نحو المجهول الخفي

بعض الناس يستحثونني على الأمانة اليهم ليتمتعوا بلذة السماح عني

ما أدركت طوية امرىءٍ الا وحسبني مديوناً له

تتنفس الارض فنولد ثم تسترجع انفاسها فنموت

عين الانسان مجهر تبين له الدنيا اكبر مما هي حقيقةً

انا بريء من قوم يحسبون القحة شجاعة . واللين جبانة

وانا بريء ممن يتوهم الثرثرة معرفة والصمت جهالة والتصنع فناً

قد يكون في استصعابنا الأمر اسهل السبل اليه يقولون لي (اذا رأيت عبداً نائماً فلا تنبهه لعله يحلم بحريته) واقول لهم (اذا رأيت عبداً نائماً نبهته وحدثته عن الحرية)

المماكسة أدنى مراتب الذكاء

الجميل يأسرنا اما الأجمل فيعتقنا حتى ومن ذاته

الحماسة بركان لاتنبت على قمته اعشاب التردد . يظل النهر جاداً نحو البحر انكسر دولاب المطحنة أم لم ينكسر .

صنع الاديب من الفكر والعاطفة ثم وهب الكلام . أما الباحث فقد صنع من الكلام ثم أعطي قليلاً من الفكر والعاطفة

تأكل مسرعاً وتمشي متباطئاً فهلا أكلت برجلك ومشيت على كفيك

ما تعاظم فرحك أو حزنك الا وصغرت الدنيا في عينيك

ألم يستنبت بذورك ولا يلقى بك بذراً ما ابغضت الا وكان البغض سلاحاً أدافع به عن نفسي ولكن لو لم أكن ضعيفاً لما اتخذت هذا النوع من السلاح

لو علم جد جد يسوع ما كان مختبئاً في شخصه لوقف خاشعاً متهيبا امام نفسه

الحب سعادة ترتعش

يحسبونني حاد النظر ثاقبه لانني أراهم من خلال شبكة الغربال

لم أشعر بألم الوحشة حتى مدح الناس عيوبي الثرثارة وطعنوا في حسناتي الخرساء

بين الناس قتلة لم يسفكوا دما قط ولصوص لم يسرقوا شيئاً البتة وكذبة لم يقولوا الا الصحيح

الحقيقة التي تحتاج الى برهان هي نصف حقيقة الا فابعدوني عن الحكمة التي لا تبكي وعن الفلسفة التي لا تضحك وعن العظمة التي لا تحني رأسها امام الاطفال

ايها الكون العاقل . المحجوب بظواهر الكائنات الموجود بالكائنات وفي الكائنات وللكائنات انت تسمعني لانك حاضري ذاتي . وانك تراني لانك بصيرة كل شيء حي . الق في روحي بذرة من بذور حكمتك لتنبت نصبة في غابتك وتعطى ثمراً من أثمارك . آمين

———

سفينة في ضباب

هذا حديث رجل جمعنا في منزله المنفرد القائم على كتف وادي قاديشا في ليلة مغمورة بالثلوج مرتعشة بالاهواء

قال محدثنا وهو ينبش رماد الموقد بطرف قضيب كان بيده :

« تريدون ، يارفاقي ، ان اعلن لكم سر كآبتي .

تريدون ان احدثكم عن المأساة التي تعيد الذكرى تمثيلها في صدري كل يوم وكل ليلة .

لقد مللتم سكوتي وتكتمي . وضجرتم من تنهدي وتململي . وقال بعضكم لبعض اذا كان لا يدخلنا هذا الرجل الى هيكل اوجاعه فكيف نستطيع الدخول الى بيت مودته .

انتم مصيبون يارفاقي . فمن لا يساهمنا الالم لن يشركنا في شيء آخر .

فاسمعوا اذن حكايتي . اسمعوا ولا تكونوا مشفقين فالشفقة تجوز على الضعفاء وانا لم أزل قويا بكآبتي .

منذ فجر شبابي وانا أرى في احلام يقظتي واحلام نومي طيف امرأة غريبة الشكل والمزايا . كنت اراها في ليالي الوحدة واقفة قرب مضجعي . وكنت اسمع صوتها في السكينة . وكنت في بعض الاحيان اغمض عيني واشعر بملامس اصابعها على جبهتي فافتح عيني واهبُّ مذعورا مصغيا بكل ما بي من المسامع الى همس اللاشيء .

وكنت اقول لذاتي هل تطوح بي خيالي حتى ضعت في الضباب ؟ . هل صنعت من البخرة احلامي امرأة جميلة الوجه عذبة الصوت لينة الملامس لتأخذ مكان امرأة من الهيولى ؟ . هل خولط بعقلي فاتخذت من اظلال عقلي رفيقة احبها واستأنس بها واركن اليها وابتعد عن الناس لاقترب منها واغلق عيني ومسامعي عن كل ما في الحياة من الصور والاصوات لارى صورتها واسمع صوتها ؟ . امجنون انا ياترى ؟ امجنون لم يكتف بالانصراف الى العزلة بل ابتدع له من اشباح العزلة رفيقة وقرينة ؟

قلت «قرينة» وانتم تستغربون هذه اللفظة ولكن هناك بعض الاختبارات التي نستغربها بل وننكرها لانها تظهر لنا بمظاهر المستحيل ولكن استغرابنا ونكراننا لا يمحوان حقيقتها في نفوسنا . لقد كانت تلك المرأة الخيالية قرينة لي ، تساهمني وتبادلني كل ما في الحياة من الاميال والمنازع والافراح والرغائب فلم استيقظ صباحاً الا ورأيتها متكئة على مساند سريري وهي تنظر الي بعينين يملأهما طهر الطفولة وعطف الامومة . ولم احاول عملاً الا وساعدتني على تحقيقه . ولم اجلس الى مائدة الا وجلست قبالتي تحدثني وتبادلني الآراء والافكار . وما جاء مساء الا واقتربت مني قائلة « قم بنا نسر بين التلول والمنحدرات كفانا الاقامة في هذا المنزل » فاترك اذ ذاك عملي واسير قابضاً على اصابعها حتى اذا ما بلغنا البرية المتشحة بنقاب المساء المغمورة بسحر السكون نجلس جنباً الى جنب على صخرة عالية محدقين بالشفق البعيد . فكانت تارة تومىء الى الغيوم المذهبة باشعة الغروب وطوراً تسترعي سمعي الى تغريد الطائر يبعث صوته تسبيحة شكر وطمأنينة قُبيل ان يلتجىء الى الاغصان للمبيت .

وكم مرة دخلت عليَّ وانا اشتغل في غرفتي قلقاً مضطرباً فلا تلمحها عيني حتى يتحول قلقي الى الهدوء واضطرابي الى الائتلاف والاستئناس .

وكم لقيت الناس وفي روحي جيش يزحف متمرداً على ما اكرهه في نفوسهم ولكنني ما تبينت وجهها بين وجوههم الا وانقلبت الزوبعة في باطني الى انغام علوية .

وكم جلست منفرداً وفي قلبي سيف من ألم الحياة ومتاعبها وحول عنقي سلاسل من مشاكل الوجود ومعضلاته ثم التفت فاراها واقفة امامي محدقة بي بعينين تفيضان نوراً وبهاء فتنقشع غيومي ويتهلل قلبي وتبدو الحياة لبصيرتي جنة افراح ومسرات .

وانتم تسألون ، يا رفاقي ، ما اذا كنت مقتنعاً بهذه الحالة الشاذة الغريبة — تسألون ما اذا كان المرء وهو في عنفوان شبابه يستطيع الاكتفاء بما تدعونه وهماً وخيالاً وحلماً بل وعلة نفسية ؟

اقول لكم ان الاعوام التي صرفتها في تلك الحالة لهي زبدة ما عرفته في الحياة من الجمال والسعادة واللذة والطمأنينة . اقول لكم انني كنت ورفيقتي الاثيرية فكرة مطلقة

مجردة تطوف في نور الشمس وتطفو على وجه البحار وتسعى في الليالي المقمرة وتهلل باغان . ما سمعتها اذن وتقف امام مشاهد ما رأتها عين . ان الحياة ، كل الحياة هي في ما نختبره بارواحنا . والوجود ، كل الوجود ، هو في ما نعرفه ونتحققه فنبتهج به أو نتوجع لاجله . وانا قد اختبرت امراً بروحي ، اختبرته كل يوم وكل ليلة حتى بلغت الثلاثين من عمري .

ليتني لم ابلغ الثلاثين . ليتني مت الف مرة ومرة قبل ان ابلغ تلك السنة التي سلبتني لباب حياتي واستنزفت دماء قلبي واوقفتني امام الايام والليالي شجرة يابسة عارية مستوحدة فلا ترقص اغصانها لاغاني الهوا ولا تحوك الاطيار اعشاشها بين اوراقها وازهارها .

وسكت محدثنا دقيقة وقد الوى رأسه واغمض عينيه وارخى زنديه الى جانب مقعده فبان كأنه اليأس مجسماً . أما نحن فبقينا صامتين مترقبين استماع تتمة حديثه ثم فتح اجفانه و بصوت متقطع خارج من اعماق كيان مكلوم .

قال :

تذكرون ، يا رفاقي ، انه منذ عشرين سنة بعثني حاكم هذا الجبل بمهمة علمية الى مدينة البندقية واصحبني برسالة الى محافظ تلك المدينة الذي كان قد عرفه في القسطنطينية

تركت لبنان وابحرت على سفينة ايطالية وقد كان ذلك في شهر نيسان وروح الربيع ترتعش بين ثنايا الهواء وتنثني مع امواج البحر وتتمثل بصور جميلة متقلبة في الغيوم البيضاء المتلبدة فوق الافاق . كيف اصف لكم تلك الايام وتلك الليالي التي صرفتها على ظهر السفينة ؟ ان قوة الكلام المتعارف بين البشر لا تتجاوز ما تحويه مدارك البشر وما يشعرون به . وفي الروح ما هو ابعد من الادراك وادق من الشعور فكيف ارسمها لكم بالكلام ؟

لقد كانت تلك السنون التي صرفتها مع رفيقتي الاثيرية ممنطقة بالانس والالفة ، مغمورة بالسكينة والرضى فلم يدر في خلدي ان الألم رابض لي وراء حجب سعادتي وان المرارة ثمالة راكدة في اعماق كاسي . لا ، لم اخش قط ذبول زهرة نبتت فوق الغيوم واضمحلال انشودة ترنمت بها عرائس الفجر . ولما تركت هذه التلول والاودية كانت رفيقتي جالسة بقربي في المركبة التي حملتني الى الساحل . وفي الثلاثة الايام التي قضيتها في

بيروت قبيل سفري كانت قرينتي تذهب حيثما إذهب وتقف عند ما اقف فلم اجتمع بصديق الا ورأيتها تبتسم له ولم ازر معهدا الا وشعرت بيدها قابضة على يدي ولم اجلس مساء في شرفة المنزل مصغياً الى اصوات المدينة الا وشاركتني في التأمل وساهمتني الفكر . ولكن لما فصلني الزورق عن ميناء بيروت ، في الدقيقة التي وطئت فيها ظهر السفينة ، شعرت بتغير في فضاء روحي ، شعرت بيد خفية قوية تتمسك بساعدي وسمعت صوتاً عميقاً يهمس في اذني قائلاً « ارجع ، ارجع ، من حيث اتيت . انزل الى الزورق وعد الى شواطيء بلادك قبل ان تبحر السفينة . »

وابحرت السفينة وانا على ظهرها اشبه شيء بعصفور بين مخالب باشق يسبح محلقاً في الخلاء . ولما جاء المساء وقد احتجبت قمم لبنان وراء ضباب البحر رأيتني واقفا وحدي على مقدمة السفينة وفتاة احلامي الامرأة التي احبها قلبي ، الامرأة التي رافقت شبابي ، لم تكن معي . الصبية ، العذبة التي كنت ارى وجهها كلما حدقت بالفضاء واسمع صوتها كلما اصغيت الى السكينة والمس يدها كلما مددت يدي الى الامام ، لم تكن على ظهر تلك السفينة . ولاول مرة ، لاول مرة ، وجدتني واقفا وحدي امام الليل والبحر والفضاء .

و بقيت على هذه الحالة انتقل من مكان الى مكان مناديا رفيقتي في قلبي ناظراً الى الامواج المتقلبة لعلي ارى وجهها في بياض الزبد .

وعند ما انتصف الليل وقد التجأ ركاب السفينة الى مراقدهم و بقيت انا وحدي هائماً ضائعاً مضطرباً ، التفتُّ بغتة فرأيتها واقفة في الضباب على بعد بضع خطوات فانتفضت مرتعشاً ومددت يدي اليها هاتفا « لمَ تركتني ؟ . . . لمَ تركتني في وحدتي ؟ الى اين ذهبت ؟ اين كنتِ يا رفيقتي ؟ اقتربي ، اقتربي مني ولا تتركيني بعد الآن » .

فلم تدنُ مني . بل ظلت جامدة في مكانها ثم بدت على وجهها سيماء توجع ولهفة ما رأيت اهول منهما في حياتي . و بصوت خافت ضئيل قالت « جئت من اعماق اللجة لاراك لمحة ، لمحة واحدة . وها انا راجعة الى اعماق اللجة . ادخل مخدعك وارقد واحلم » .

قالت هذه الكلمات وامتزجت بالضباب واضمحلت . فطفقت اناديها بلجاجة الطفل الجائع وابسط ذراعي الى كل ناحية فلا اقبض الا على الهواء المثقل بندى الليل .

دخلت مخدعي وفي روحي عناصر تتقلب وتتصارع وتهبط وتتصاعد ، فكنت في جوف تلك السفينة سفينة اخرى في بحر من اليأس والالتباس . وللغرابة انني لم القِ رأسي على وسائد مضجعي حتى احسست بثقل اجفاني وبتحدر في جسدي فنمت نوما عميقا حتى الصباح . ولقد رأيت في نومي حلما . رأيت رفيقتي مصلوبة على شجرة تفاح مزهرة وقطرات الدماء تسيل من كفيها وقدميها على غصني الشجرة وعمدها ثم تنسكب على الاعشاب وتمتزج بازهار الشجرة المنثورة .

وظلت السفينة تسعى الايام والليالي بين اللجتين وانا على ظهرها لا ادري ما اذا كنت بشرا مسافرا الى بلد بعيد بمهمة بشرية ام شبحا تائها في فضاء خالٍ الا من الضباب فلم اشعر بقرب رفيقتي ولم المح وجهها في اليقظة او في المنام وباطلا كنت انادي مصلية مبتهلا للقوى الخفية لتسمعني مقطعا من مقاطع صوتها أو لتريني ظلا من اظلالها اولتجعلني اشعر بملامس اصابعها على جبهتي .

ومر اربعة عشر يوما وانا في هذه الحالة . وعند ظهيرة اليوم الخامس عشر ظهرت عن بعدٍ شواطىء ايطاليا وفي مساء ذلك النهار دخلت السفينة ميناء البندقية وجاء قوم بزوارق مطلاة بالوان ورسوم بهجة لينقلوا الركاب وامتعتهم الى المدينة .

انتم تعلمون ، يا رفاقي ، ان مدينة البندقية قائمة على عشرات من الجزر الصغيرة المتقاربة فشوارعها ترع ومنازلها وقصورها مبنية في الماء والزوارق هناك تقوم مقام المركبات .

فلما نزلت من السفينة الى الزورق سألني النوتي قائلاً :

« الى اين يريد سيدي ان يذهب ؟ »

فلما ذكرت اسم محافظ المدينة نظر اليَّ باهتمام واحترام واخذ يضرب الماء بمقذفه سار بي الزورق وكان قد جاء الليل والقى رداءه على المدينة فظهرت الانوار في نوافذ القصور والمعابد والمعاهد فانعكست اشعتها في الماء متلألئة مرتعشة فبانت البندقية كحلم شاعر يفتنه الغريب من المشاهد والوهمي من الاماكن . ولم يبلغ بي الزورق الى منعطف اول ترعة حتى سمعت رنين اجراس لا عداد لها تملأ الفضاء بانّاتٍ محزنة متقطعة هائلة

مخيفة . ومع انني كنت في غيبوبة نفسية تفصلني عن كل المظاهر الخارجية فقد كانت تلك الطنات النحاسية تخترق لوح صدري كالمسامير .

ووقف الزورق بجانب سلم حجري تتصاعد درجاته من الماء الى الرصيف فالتفت البحري اليّ واشار بيده نحو قصر قائم في وسط حديقة وقال « هذا هو المكان » فصعدت من الزورق وسرت مبطئا نحو المنزل والبحري يتبعني حاملاً حقيبتي على كتفه حتى اذا ما بلغت باب المنزل ناولته اجرته وصرفته ثم طرقت الباب ففتح لي واذا انا امام رهط من الخدم مطأطئي الرؤوس وهم يبكون وينوحون ويتأوهون باصوات منخفضة فاستغربت هذا المشهد واحترت بامري .

وبعد هنيهة تقدم مني خادم كهل ونظر اليّ من وراء اجفان مقروحة وسألني متنهداً : « ماذا يريد سيدي ؟ » فقلت اليس هذا منزل محافظ المدينة ؟

فحنى رأسه ايجاباً .

فاخرجت ، اذ ذاك ، الرسالة التي اصحبني بها حاكم لبنان وناولته اياها فنظر في عنوانها صامتا ثم راح متماهلا نحو باب في مؤخر ذلك الدهليز .

جرى كل ذلك وانا بدون فكر ولا ارادة . ثم دنوت من خادمة صبية وسألتها عن سبب حزنهم ونواحهم فاجابت متوجعة . « عجباً ألم تسمع ان ابنة المحافظ قد ماتت اليوم ؟ »

ولم تزد على هذه الكلمات بل غمرت وجهها بكفها واستسلمت الى البكاء .

تأملوا يارفاقي ، في حالة رجل قطع البحار وهو كفكرةٍ سديمية ملتبسة اضاعها جبار من جبابرة الفضاء بين الامواج المزبدة والضباب الرمادي . صوروا لنفوسكم حالة فتى سار اسبوعين بين عويل اليأس وصراخ اللجة ولما بلغ نهاية الطريق وجد نفسه واقفاً في باب منزل تتمشى في جنباته اشباح التفجع وتملأ قرانيه انات اللوعة . صوروا لنفوسكم ، يارفاقي ، رجلاً غريباً يطلب الضيافة في قصر تخيم عليه اجنحة الموت .

وعاد الخادم الذي حمل الرسالة الى سيده وانحنى قائلاً « تفضل يا سيدي فالمحافظ ينتظرك »

قال هذا ومشى امامي فاتبعته حتى اذا ما بلغنا باباً في نهاية المشى اومأ اليَّ أن ادخل فدخلت قاعة واسعة عالية السقف منارة بالشموع وقد جلس فيها بعض الوجهاء والكهان وكلهم في سكوت عميق . فلم اكد اخطو بضع خطوات الا وقام من صدر القاعة شيخ ذو لحية بيضاء وقد حنت ظهره الاشجان وثلمت وجهه الاوجاع وتقدم نحوي وأخذ بيدي قائلاً : « يعزُّ علي ان تأتي من بلاد بعيدة وتجدنا مصابين باحب مالدينا . ولكنني ارجو ان لا يكون مصابنا حائلاً دون اتمام الغرض الذي جئتنا من اجله فكن مطمئن البال يا ولدي » .

فشكرت له عطفه مظهراً اسفي لمصابه ببعض الالفاظ المشوشة .

وقادني الشيخ الى كرسي بجانب مقعده فجلست صامتاً مع الجلاس الصامتين انظر خلسة الى وجوههم الكئيبة واسمع تأوهم فتتولد في صدري كتلات من الضيم واللهفة . و بعد ساعة انصرف القوم الواحد تلو الآخر ولم يبق سوى مع الوالد الحزين في تلك القاعة الخرساء فوقفت اذ ذاك وتقدمت اليه قائلاً : « اسمح لي ياسيدي بالانصراف » فقال ممانعاً « لا ياصديقي . لاتذهب . كن ضيفنا إن كان بامكانك احتمال النظر الى كآبتنا واستماع انة لوعتنا » فاخجلني كلامه وحنيت رأسي امتثالاً . ثم عاد وقال : « انتم اللبنانيين ابرُّ الناس بالضيف فهلا بقيت عندنا لتريك ولو قليلاً مما يلقاه الغريب في بلادكم » .

و بعد هنيهة قرع الشيخ المنكوب جرساً فضياً فدخل علينا حاجب بملابس مزركشة مقصبة فقال له الشيخ مشيراً اليّ « سر بضيفنا الى الغرفة الشرقية وانظر بشأن مأكله ومشربه وتولَّ بنفسك شؤونه وكن ساهراً على راحته » .

فقادني الحاجب الى غرفة رحبة بديعة الهندسة فخمة الرياش تغشي جدرانها الرسوم والمنسوجات الحريرية في وسطها سرير نفيس مغطى باللحف والمساند المطرزة .

تركني الحاجب فارتميت على مقعد افكر بنفسي ومحيطي وبغربتي ووحدتي وما تي اول ساعة صرفتها في بلاد قصية عن بلادي .

وعاد الحاجب يحمل طبقا عليه الطعام والشراب و وضعه امامي فأكلت قليلا ولكن بدون رغبة ثم صرفت الحاجب .

ومرت ساعتان وانا امشي تارة في تلك الغرفة وطورا أقف في جوانب احدى نوافذها محدقا بالفضاء مصغيا الى اصوات البحارة وخفق مقاذيفهم في الماء حتى اذا ما أنهكني السهر وتضعضعت فكرتي بين مظاهر الحياة وخفاياها ارتميت على السرير مستسلماً الى غيبوبة تتآلف فيها سكرة الهجوع وصحو اليقظة ويتألب فيها التذكار والنسيان مثلما يتناوب الشواطىء مد البحر وجزره فكنت كساحة حرب صامتة تتناضل فيها فيالق صامتة و يجندل الموت فرسانها فيقضون صامتين .

لا ، لا ادري يارفاقي ، كم ساعة صرفتها وأنا في هذه الحالة . إن في الحياة فسحات تجتازها أرواحنا و لكننا لا نستطيع أن نقيسها بالمقاييس الزمنية التي ابتدعتها فكرة الانسان .

لا ، لا اعرف كم ساعة بقيت في هذه الحالة . كل ما عرفته اذ ذاك وكل ما أعرفه الان هو انني بينما كنت في تلك الحلة الملتبسة شعرت بكيان حي واقف بقرب سريري شعرت بقوة ترتعش في فضاء الغرفة . شعرت بذات اثيرية تناديني ولكن بدون صوت وتستفزني ولكن بدون أشارة فنهضت على قدميّ وخرجت من الغرفة الى الدهليز مدفوعا مأمورا مجذوبا بعامل قاهر ضابط كلي . سرت ولكن بغير ارادتي ، سرت كمن يسير وهو نائم ، سرت في عالم مجرد عما نحسبه زمنا ومسافة حتى اذا ما بلغت نهاية الدهليز دخلت قاعة كبرى في وسطها نعش تنيره كوكبتان من الشموع وتحيط به الازهار .
فتقدمت و ركعت بجانبه ونظرت ، نظرت فرأيت وجه رفيقتي . رأيت وجه رفيقة أحلامي وراء نقاب الموت . رأيت الامرأة التي أحببتها حبا فوق الحب . رأيتها جثة هامدة بيضاء بأثواب بيضاء بين أزهار بيضاء تخيم عليها سكينة الدهور ورهبة الازل

يا الهي . يا اله الحب والحياة والموت ، انت الذي كونت ارواحنا ثم سيرتها في هذه الانوار وهذه الظلمات . انت الذى فطرت قلوبنا ثم جعلتها تنبض بالامل والألم . انت ، انت الذي اريتني رفيقتي جسداً بارداً . انت الذي قدتني من ارض الى ارض

لتظهر لي مراد الموت بالحياة ومشيئة الوجع بالفرح . انت الذي انبتَّ في صحراء وحدتي وانفرادي زنبقة بيضاء ثم سيرتني الى واد بعيد لتبينها لي زنبقة ذابلة ذاوية فانية !

نعم ، يا رفاقي ، يا رفاق وحشتي واغترابي ، ان الله قد شاء فسقاني الكاس العلقمية لتكن مشيئة الله . نحن البشر ، نحن الذرات المرتعشة في خلاء لا حد له ولا مدى ، نحن لا نستطيع سوى الخضوع والامتثال . فان احببنا فحبنا ليس منا وليس لنا . وان سررنا فسرورنا ليس فينا بل في الحياة نفسها . وان تألمنا فالألم ليس بكلومنا بل باحشاء الطبيعة باسرها

لم اقصَّ عليكم حكايتي شاكياً . ان من يشكو يشكُّ في الحياة وانا من المؤمنين . اومن بصلاحية هذه المرارة التي تمازج كل رشفة أرتشفها من كؤوس الليالي . أومن بجمال هذه المسامير التي تخترق صدري . أومن برافة هذه الاصابع الحديدية التي تمزق غشاء قلبي .

هذه حكايتي فكيف اصل الى نهايتها وهي بدون نهاية . لقد بقيت راكعاً امام نعش الصبية التي احببتها في احلامي محدقاً بوجهها حتى وضع الفجر يده على بلور النوافذ. فقمت اذ ذاك وعدت الى غرفتي متوكئاً على اوجاع الانسانية منحنياً تحت اعباء الابدية.

وبعد ثلاثة اسابيع تركت البندقية ورجعت الى لبنان رجوع من صرف الف جيل في اعماق الدهر . رجعت رجوع كل لبناني من غربة الى غربة .

ساحموني ، يارفاقي ، فقد اطلت حديثي . ساحموني !



ابو الطيب المتنبي — لجبران خليل جبران

انا الذي نظر الاعمى الى ادبي   واسمعت كلماتي من به صممُ
الخيلُ والليـل والبيداء تعرفني   والسيف والرمح والقرطاس والقلمُ

يوم مولدي

كتبت في باريس في ٦ كانون الأول سنة ١٩٠٨

في مثل هذا اليوم ولدتني أمي

في مثل هذا اليوم ، منذ خمس وعشرين سنة ، وضعتني السكينة بين أيدي هذا الوجود المملوء بالصراخ والنزاع والعراك

ها قد صرت خمساً وعشرين مرة حول الشمس ، ولا أدري كم مرة سار القمر حولي ، لكنني لم أدرك بعد أسرار النور ، ولا عرفت خفايا الظلام

قد سرتُ خمساً وعشرين مرة مع الأرض والقمر والشمس والكواكب حول الناموس الكلي الأعلى ، ولكن هوذا نفسي تهمس الآن أسماء ذلك الناموس مثلما يُرجع الكهوف صدى أمواج البحر ، فهي كائنة بكيانه ، ولا تعلم ماهيته ، وتترنم بأغاني مده وجزره ولا تستطيع ادراكه

منذ خمس وعشرين سنة خطتني يد الزمان كلمة في كتاب هذا العالم الغريب الهائل ، وها أنذا كلمة مبهمة ، ملتبسة المعاني ، ترمز تارة الى لا شيء ، وطوراً الى أشياء كثيرة

إن التأملات والأفكار والتذكارات تتزاحم على نفسي في مثل هذا اليوم من كل سنة ، وتوقف أمامي مواكب الأيام الغابرة ، وتريني أشباح الليالي الماضية ، ثم تبددها كما تبدد الرياح بقايا الغيوم فوق خط الشفق ، فتضمحل في زوايا غرفتي اضمحلال أناشيد السواقي في الأودية البعيدة الخالية

في مثل هذا اليوم من كل سنة تجيء الأرواح التي رسمت روحي متراكضة تحوي من جميع أطراف العالم ، وتحيط بي مرتلة أغاني الذكرى المحزنة ، ثم تتراجع على مهل وتختفي وراء المرئيات ، كأنها أسراب من الطير هبطت على بيدر مهجور فلم تجد بذوراً تلتقطها ، فرفرفت هنيهة ثم طارت سابحة الى مكان آخر

في هذا اليوم تنتصب أمامي معاني حياتي الغابرة ، كأنها مرآة ضئيلة أنظر فيها

طويلاً فلا أرى سوى أوجه السنين الشاحبة كأوجه الاموات ، وملامح الآمال والاحلام والاماني المتجمدة كملامح الشيوخ ، ثم أغمض عيني وانظر ثانية في تلك المرآة ، فلا أرى غير وجهي ، ثم أحدق بوجهي فلا أرى فيه غير الكآبة ، ثم استنطق الكآبة فأجدها خرساء لاتتكلم ، ولو تكلمت الكآبة لكانت أكثر حلاوة من الغبطة

في الخمس والعشرين سنة الغابرة قد أحببت كثيراً . وكثيراً ما أحببت ما يكرهه الناس وكرهت ما يستحسنونه والذي أحببته عند ما كنت صبياً ما زلت احبه الآن . والذي أحبه الآن سأحبه الى نهاية الحياة ، فالمحبة هي كل ما أستطيع ان احصل عليه ، ولا يقدر أحد ان يفقدني إياه

قد أحببت الموت مرات عديدة ، فدعوته بأسماء عذبة وتشببت به سراً وعلناً ، ولئن لم أسلُ الموت ولا نقضت له عهداً ، فانني صرت أحب الحياة أيضاً . فالموت والحياة قد تساويا عندي بالجمال ، وتضارعا باللذة ، وتشاركا بانماء شوقي وحنيني ، وتساهما محبتي وانعطافي

وقد أحببت الحرية فكانت محبتي تنمو بنمو معرفتي عبودية الناس للجور والهوان ، وتتسع باتساع ادراكي خضوعهم للاصنام المخيفة التي نحتتها الاجيال المظلمة ، ونصبتها الجهالة المستمرة ، ونعّمت جوانبها ملامس شفاه العبيد ، لكنني كنت أحب هؤلاء العبيد بمحبة الحرية ، وأشفق عليهم ، لانهم عميان يقبّلون أحناك الضواري الدامية ولا يبصرون ، ويمتصون لهاث الافاعي الخبيثة ولا يشعرون ويحفرون قبورهم بأظافرهم ولا يعلمون . قد أحببت الحرية أكثر من كل شيء لانني وجدتها فتاة قد أضناها الانفراد ، وأنحلها الاعتزال ، حتى صارت خيالاً شفافاً يمر بين المنازل ، ويقف في منعطفات الشوارع ، وينادي عابري الطريق ، فلا يسمعون ولا يلتفتون

وفي الخمس والعشرين سنة قد أحببت السعادة مثل جميع البشر ، فكنت أستيقظ كل يوم وأطلبها كما يطلبونها لكنني لم أجدها قط في سبيلهم ، ولا رأيت أثر أقدامها على الرمال المحيطة بقصورهم ، ولا سمعت صدى صوتها خارجاً من نوافذ هياكلهم . ولما

انفردت بطلبها سمعت نفسي تهمس في اذنيَّ قائلة : « السعادة صبية تولد وتحيا في أعماق القلب ولن تجيء اليه من محيطه . » ولما فتحت قلبي لكي أرى السعادة وجدت هناك مرآتها وسريرها وملابسها . لكنني لم أجدها

وقد أحببت الناس — أحببتهم كثيراً — والناس في شرعي ثلاثة :

واحد يلعن الحياة ، وواحد يباركها ، وواحد يتأمل بها ، فقد أحببت الأول لتعاسته ، والثاني لسماحته ، والثالث لمداركه

هكذا انقضت الخمس وعشرون سنة . وهكذا ذهبت أيامي ولياليّ متسارعة ، متتابعة ، متساقطة من حياتي ، مثلما تتناثر أوراق الشجر أمام رياح الخريف

واليوم ، قد وقفت متذكراً ، وقوف سائر متعب بلغ منتصف العقبة ، انظر الى كل ناحية فلا أرى لماضي حياتي أثراً أستطيع أن اومئ اليه أمام وجه الشمس قائلاً : « هذا لي » ولا أجد لفصول أعوامي غلة سوى اوراق مخضبة بقطرات الحبر السوداء ورسوم غريبة مبعثرة مملوءة خطوطاً والواناً متباينة متناسقة . في هذه الاوراق المنثورة والرسوم المبعثرة ، قد كفنت ودفنت عواطفي وأفكاري وأحلامي ، مثلما يدفن الزارع البذور في بطن الارض ، ولكن الزارع الذي يخرج الى الحقل ويلقي البذور بين ثنايا التراب يعود الى بيته في المساء آملاً راجياً منتظراً أيام الحصاد والاستغلال

أما انا فقد طرحت حبات قلبي بلا أمل ، ولا رجاء ، ولا انتظار

والآن ، وقد بلغت هذه المرحلة من العمر ، فتراءى لي الماضي من وراء ضباب التنهد والاسى ، وبان لناظري المستقبل من وراء نقاب الماضي ، أقف وأنظر الى الوجود من خلال بلور نافذتي ، وارى وجوه الناس واسمع أصواتهم متصاعدة الى الفضاء ، وأعي وقع أقدامهم بين المنازل ، واشعر بملامس ارواحهم وتموجات أميالهم ونبضات قلوبهم . أنظر ، فأرى الاطفال يلعبون ويتراكضون ويذرون التراب بعضهم في وجوه بعض ضاحكين مقهقهين ، وأرى الفتيان يسيرون بعزم رافعين رؤوسهم كأنهم يقرأون قصيدة الشباب مكتوبة بين حواشي العيون المبطنة باشعة الشمس ، وأرى الصبايا

يخطرن وينثنين كالاغصان ويتبسمن كالازهار وينظرن الى الفتيان من وراء جفونه ترتعش بالميل والانعطاف ، وارى الشيوخ يمشون على مهل محدودبي الظهور ، متوكئين على العصيّ محدقين بالارض كأنهم يبحثون بين دقائق التراب عن جواهر أضاعوها .
أقف بجانب نافذتي وأنظر متأملاً بجميع هذه الصور والاشباح الساكنة بسيرها المتطايرة بديبها في شوارع المدينة وأزقتها ، ثم أنظر متأملاً بما وراء المدينة ، فأرى البرية بكل ما فيها من الجمال الرهيب ، والسكينة المتكلمة ، والتلول الباسقة ، والاودية المنخفضة ، والاشجار النامية ، والاعشاب المتمايلة ، والازهار المعطرة ، والانهار المترنمة ، والاطيار المغردة ، ثم أنظر الى ما وراء البرية ، فأرى البحر بكل ما في أعماقه من الغرائب والعجائب والمدافن والاسرار ، وما على سطحه من الامواج المزبدة ، الغضوبة ، المتسارعة ، المتهاونة ، والابخرة المتصاعدة ، المتبددة ، المتساقطة ، ثم أنظر متأملاً بما وراء البحر ، فأرى الفضاء غير المتناهي بكل ما فيه من العوالم السابحة ، والكواكب اللامعة ، والشموس ، والاقمار ، والسيارات والثوابت ، وما بينها من الدوافع والجواذب المتسالمة ، المتنازعة ، المتولدة ، المتحولة ، المتماسكة بناموس لا حدّ له ولا مدى ، الخاضعة لشرع كلي ليس لبدئه ابتداء ولا لنهايته نهاية . أنظر وأتأمل بجميع هذه الاشياء من خلال بلور نافذتي فأنسى الخمس والعشرين وما جاء قبلها من الاجيال وسياتي بعدها من قرون ، ويظهر لي كياني ومحيطي بكل ما أخفاه وأعلنه كذرة من تنهدة طفل ترتجف في خلاءٍ أزلي الاعماق ، سرمدي العلو ، أبديّ الحدود . لكني أشعر بكيان هذه الذرة ـ هذه النفس ـ هذه الذات التي أدعوها «أنا» . أشعر بحراكها وأسمع ضجيجها . فهي ترفع الآن أجنحتها نحو العلاء وتمد يديها الى كل ناحية . وتتمايل مرتعشة في مثل اليوم الذي أبانها للوجود ، وبصوتٍ متصاعد من قدس أقداسها ، تصرخ قائلة : « سلام أيتها الحياة سلام أيتها اليقظة ، سلام أيتها الرؤيا ، سلام أيها النهار الغامر بنورك ظلمة الارض ، وسلام أيها الليل المظهر بظلمتك أنوار السماء ؟ سلام أيتها الفصول ، سلام أيها الربيع المعيد شبيبة الارض ، سلام أيها الصيف المذيع مجد الشمس ، سلام أيها الخريف الواهب ثمار الاتعاب وغلة الاعمال ، سلام أيها الشتاء المرجع بثوراتك عزم الطبيعة .

سلام أيتها الاعوام الناشرة ما أخفته الاعوام ، سلام أيتها الاجيال المصلحة ما أفسدته الاجيال ، سلام أيها الزمن السائر بنا نحو الكمال ، سلام ايها الروح الضابط أعنة الحياة ، المحجوب عنا بنقاب الشمس ، وسلام لك أيها القلب ، لانك تستطيع أن تهذّ بالسلام وأنت مغمور بالدموع ، وسلام لك أيتها الشفاه ، لانك تتلفظين بالسلام وأنت تذوقين طعم المرارة »

المراحل السبع

شجيت نفسي سبع مرات . المرة الأولى لما حاولت الحصول على الرفعة عن طريق الضعة . والمرة الثانية لما عرجتْ امام المقعدين . والمرة الثالثة لما خيرت بين الصعب والهين فاختارت الهين . والمرة الرابعة لما أخطأت فتعزت بخطإ غيرها . والمرة الخامسة لما تجلدت عن ضعف وعزت جلدها الى القوة . والمرة السادسة لما لمت أذيالها عن أوحال الحياة . والمرة السابعة لما وقفت مرتلة امام الله وحسبت الترتيل فضيلة فيها





الخنساء — لجبران خليل جبران

يذكّرني طلوعُ الشمسِ صخراً   وأذكرُه لكل طلوعِ شمسِ
ولولا كثرة الباكين حولي   على إخوانهم لقتلتُ نفسي

جبران العاشق

بقلم جبرانية

أيغرك عنواني ؟
أو يجعل عينيك تبرقان ؟
او يوقظ فيك الميل الى القيل والقال ؟
انت تريد ان تعرف شيئاً عن جبران — جبران المتشرد ؟
وانت تريد ان تدخل الى قدس اقداسه دائماً لتكشف ينابيع كنوزه ؟
وانك لترغب في الوصول الى حريريته وألوانه
ولقد تحدثك النفس بأنك بعد هذا ستسمع شيئاً عن ولهان
انك لمصيب بذلك ؟

انه وَلهٌ — ولهٌ عميق ذو عاصفةهوجاء — ولهٌ يثير اعماقه و يأتي بافكاره اللؤلؤية والوانه النادرة واخيلته التي لامثيل لها وخطوطه التي لاتنسى

جبراننا — جبران ملحد . لايقنع بحب واحدة بل يحب كثيرات وهؤلاء في حريمه هنّ — اسميهن لك — خواطر ، تصورات ، الوان ، انوار ، قدود ، جمال
هؤلاء هن المحدثات الذهول الملهب ، والرشاقة الشعرية ، والتعبد في التعبير

اما الخواطر فسلطانته وهي ناضجة بنت الخبرة . فتانة ذات صوت ذهبي كاملة المندام . ترفل بالاطالس . وتسطع بالجواهر . معطرة بالشرق القديم والغرب الجديد

وأما التصورات فحبيبته وهي الالهة التي تشاطره الوحدة في انفراده وتدندن مهمهمة لشجونه وتداعب مؤاسية نجاحه وهي التي تجعله حالماً بحيانه وعائشاً لاحلامه وهي هي التي جعلت رؤياه حقيقة بينة ومنحته قوة صبره وثباته وجعلت السنين تمشي امام خيالاته

واما الالوان فساحرته وهي خمرة تذيب الجواهر التي قدمتها الاجيال الى الساحرة ثم وهبتها لجبران . وان الالوان التي تظهر باردة قاسية لغيره من الرسامين هي لينة وذائبة

عنده . فاخضرهُ من الزمرد وأزرقه من اللازورد وأحمره من الياقوت . وهذه الألوان التي تبدو على سطوح رسومه هي مما لا يستعار الا من لؤلؤة

وأما الانوار فرفيقته الانيسة تومئ اليه وتبهره وبواسطتها يقبض على كل أسرار الحياة الداخلية التي هي عنده أصل الجمال وروحه

وأما القدود فهي عروسه الفتاة التي عرّاها من كل التقاليد وأنشاها كما يريد ولهذا فهي لا تعرف مسرات الحياة خالية من الطياشة بعيدة عن الحيوانية وعن كل ما هو ليس معقولاً ولكنها محملة بالافكار مشبعة بالأحلام . وهي روحانية رؤوفة رغم انها مجردة . ومع ذلك فهي أبداً متجلببة بروح الله

وأما الجمال فالآهته ولأجلها قد شاد مذبحاً للايمان والوفاء والشرف والجلالة . وعليه احرق كما يحرق البخور مآتي أيامه ، احلام لياليه ، ماضيه وحاضره

يسود في حريمه هذا السلام والسعادة الكاملان لانه يؤكد خلال سحره وتعطشاته البليغة لكل حسب تحقيق امله الواجف بالهبات الناطق بانعام الله تعالى



العلامة ابن خلدون — لجبران خليل جبران

فيلسوف المؤرخين . ولد في تونس الغرب سنة ٧٣٢ هـ ١٣٣١ م

وتوفي في القاهرة سنة ٨٠٨ هـ

الشاعر

أنا غريب في هذا العالم

أنا غريب وفي الغربة وحدة قاسية ووحشة موجعة غير انها تجعلني أفكر أبداً بوطن سحري لا أعرفه وتملأ أحلامي بأشباح أرض قصية ما رأتها عيني

أنا غريب عن أهلي وخلاني . فاذا ما لقيت واحداً منهم أقول في ذاتي « من هذا وكيف عرفته وأي ناموس يجمعني به ولماذا أقترب منه وأجالسه

أنا غريب عن نفسي فاذا ما سمعت لساني متكلماً تستغرب اذني صوتي . وقد أرى ذاتي الخفية ضاحكة باكية . مستبسلة خائفة . فيعجب كياني بكياني وتستفسر روحي روحي . ولكنني أبقى مجهولاً . مستتراً مكتنفاً بالضباب محجوباً بالسكوت

أنا غريب عن جسدي ، وكلما وقفت أمام المرآة أرى في وجهي مالا تشعر به نفسي ، وأجد في عيني مالا تكنه أعماقي ، أسير في شوارع المدينة فيتبعني الفتيان صارخين « هوذا الأعمى فلنعطه عكازاً يتوكأ عليه » فأهرب منهم مسرعاً . ثم التقي بسرب من الصبايا فيتشبثن بأذيالي قائلات « هو أطرش كالصخر فلنملأ أذنيه بأنغام الغزل » فأتركهن راكضاً . ثم ألتقي بجماعة من الكهول فيقفون حولي قائلين « هو أخرس كالقبر فتعالوا نقوّم اعوجاج لسانه » فاغادرهم خائفاً . ثم التقي برهط من الشيوخ فيومئون نحوي بأصابع مرتعشة قائلين « هو مجنون أضاع صوابه في مسارح الجن والغيلان »

أنا غريب في هذا العالم

أنا غريب وقد جُبت مشارق الارض ومغاربها فلم أجد مسقط رأسي ولا لقيت من يعرفني ولا يسمع بي

استيقظ في الصباح فأجدني مسجوناً في كهف مظلم تتدلى الافاعي من سقفه وتدبُّ الحشرات في جنباته ثم أخرج الي النور فيتبعني خيال جسدي . أما خيالات نفسي فتسير أمامي الى حيث لا أدري باحثة عن أمور لا أفهمها قابضة على أشياء لا حاجة لي

بها وعندما يجيء المساء أعود وأضطجع على فراشي المصنوع من ريش النعام وشوك القتاد فتراودني أفكار غريبة وتتناولني أميال مزعجة مفرحة موجعة لذيذة وحين ينتصف الليل تدخل عليَّ من شقوق الكهف أشباح الأزمنة الغابرة وأرواح الامم المنسية فأحدق بها وتحدق بي وأخاطبها مستفهماً فتجيبني مبتسمة ثم أحاول القبض عليها فتتوارى مضمحلة كالدخان

أنا غريب في هذا العالم

أنا غريب وليس في الوجود من يعرف كلمة من لغة نفسي

أسير في البرية الخالية فأرى السواقي تتصاعد متراكمة من أعماق الوادي الى قمة الجبل وأرى الاشجار العارية تكتسي وتزهو وتثمر وتنثر في دقيقة واحدة ثم تهبط أغصانها الى الحضيض وتتحول الى حيات رقطاء مرتعشة وأرى الاطيار تنتقل متصاعدة هابطة مغردة مولولة . ثم تقف وتفتح أجنحتها وتنقلب نساء عاريات محلولات الشعور ممدودات الاعناق ينظرنَ اليَّ من وراء أجفان مكحولة بالعشق ويبتسمن لي بشفاه وردية مغموسة بالعسل . ويمددن نحوي أيادي بيضاء ناعمة معطرة بالمن واللبان . ثم ينتفضن ويختفين عن ناظري ويضمحللن كالضباب تاركات في الفضاء صدى ضحكهن مني واستهزائهن بي .

أنا غريب في هذا العالم

أنا شاعر أنظم ما تنثره الحياة وأنثر ما تنظمه . ولهذا أنا غريب وسابقى غريباً حتى تخطفني المنايا وتحملني الى وطني

عندما يذبل الشعور يصير فكراً

الشعراء اثنان ذكي ذو ذاتية مقتبسة . وملهمٌ كان ذاتاً قبل ان يصير بشراً . والفرق بين الذكاء والالهام في الشعر هو الفرق بين أظافر محددة تحكّ الجلود الجرباء وشفاه أثيرية تقبّل القروح فتشفيها .

جبران خليل جبران

نزيل نيويورك *

مقدمة مقالته

نيويورك في ٦ اكتوبر (تشرين اول) سنة ١٩١٢

عزيزي سركيس افندي

باعث اليك بحكاية اوحتها اليّ عرائس الجان لتكريم خليل افندي مطران وهي كما تراها قصيرة بجانب هيبة الامير العظيم والشاعر الكبير وطويلة بجانب مقتضبات الكتاب والشعراء الذين يميلون بالطبع الى ما قل ودل خصوصاً في الحفلات الاكرامية ولكن ماالعمل وعرائس الجان قد بعثن اليَّ بموضوع يستدعي قليلاً من الاسهاب ؟

تفضل بقبول شكري وامتناني لدعوتك اياي الى الاشتراك بتكريم شاعر كبير يسكب روحه خمراً في كؤوس النهضة العربية الحاضرة ويحرق قلبه بخوراً امام القطرين فيجعلهما أكثر تحبباً وأشد علاقة .

وتكرم بقبول تحيتي المشفوعة باحترامي واعجابي

الشاعر البعلبكي

« ١ »

في مدينة بعلبك سنة ١١٢ قبل الميلاد

جلس الامير على عرشه الذهبي ، المحاط بالمسارج المشتعلة ، والمباخر المتقدة ، فجلس القواد والكهان عن يمينه وشماله ، ووقف الجنود والعبيد امامه ، وقوف الانصاب امام وجه الشمس

* بعث بها الى مجلة سركيس بمناسبة الحفلة الاكرامية التي أقيمت لخليل بك مطران بالجامعة المصرية في ١٣ ابريل سنة ١٩١٣

بعد هنيهةٍ ، وقد انتهى المرتلون من انشادهم ، وتوارت انفاسهم بين طيات أثواب الليل ، وقف كبير الوزراء امام الامير ، وقال بصوت تهدّجهُ ضآلة الشيخوخة

« أيها الامير العظيم ، قد جاء المدينة بالامس حكيم من حكماء الهند ذو اطوار غريبةٍ ومذاهب جديدة لم نسمع قط بمثلها فهو يدعو الناس الى الاعتقاد بتقمص الارواح من جسد الى جسد ، وانتقال النفوس من جيل الى جيل حتى تبلغ الكمال ، وتصير الى مصفّ الآلهة . وقد جاء الليلة طالباً الدخول عليك ليبسط تعاليمه امامك »

فهزَّ الامير رأسه وقال مبتسماً :

« من بلاد الهند تأتي الغرائب والعجائب فادخلوه لنسمع حجته »

ولم تمر دقيقة حتى دخل القاعة كهل اسمر اللون ، مهيب المنظر ، ذو عينين كبيرتين ، وملامح منفرجة ، تتكلم بلا نطق عن اسرار عميقة ، واميال غريبة . و بعد ان انحنى مستأذناً ، رفع رأسه وتلمعت عيناه وطفق يتكلم عن بدئته ، مظهراً كيف تنتقل الارواح من هيكل الى هيكل ، مرتقية بعوامل الوسط الذي تختاره . متدرجة بتأثيرات الامور التي تختبرها ، متمايلة مع الامجاد التي ترفعها وتنويها ، نامية مع الحب الذي يـعدها و يشقيها . . . ثم تطرق الى كيفية انتقال النفوس من مكان الى مكان ، باحثـة عما تحتاج اليه من الكماليات ، مكفرة في حاضرها عن ذنوب اقترفتها في ماضيها ، مستغلة في بلد مازرعته في بلد آخر .

ولما طال الكلام ، وقد بدت على ملامح الامير سيما الملل والضجر ، اقترب كبير الوزراء من الحكيم وهمس في اذنه قائلاً « كفى الآن فدع البحث الى فرصة ثانية »

فتراجع الحكيم الى الوراء وجلس بين الكهان مطبقاً اجفانه كأن عينيه قد تعبتا من التحديق في خفايا الوجود واسراره

و بعد سكينة شبيهة بغيبوبة الانبياء ، تلفت الامير الى اليمين والى اليسار ثم سأل قائلاً « اين شاعرنا فقد مرّ زمن ولم نره . . ماذا حل به وقد كان يحضر مجلسنا كل ليلة ؟ ».

فقال احد الكهان « قد رأيته منذ اسبوع جالساً في رواق هيكل عشتروت وهو ينظر بعينين جامدتين كئيبتين نحو الشفق البعيد كأنه اضاع بين الغيوم قصيدة من قصائده »

وقال احد القواد « قد رأيته بالامس واقفاً بين اشجار السرو والصفصاف فحييته ولم يردَّ التحية بل ظل غارقاً في بحر افكارهِ واحلامه »

وقال رئيس الخصيان « قد رأيته اليوم في حديقة القصر فدنوت منه فوجدته اصفر اللون ، شاحب الوجه ، تراود الدموع اجفانه وتتلاعب الغصات بانفاسه »

فقال الامير بصوت تلاحقه اللهفة « اذهبوا وابحثوا عنه وعودوا به مسرعين فقد اشغل بالنا امرُه »

خرج العبيد والجنود يبحثون عن الشاعر وظل الامير واعوانه صامتين حائرين مترقبين كأن نفوسهم قد شعرت بوجود شبح غير منظور منتصب في وسط تلك القاعة .

و بعد هنيهة عاد رئيس الخصيان وارتمى على قدمي الامير كطائر رماه الصياد بسهم . فصرخ به الامير قائلاً « ما الخبر . . ماذا جرى ؟ »

فرفع الزنجيُّ رأسه وقال مرتعشاً « قد وجدنا الشاعر ميتاً في حديقة القصر » فانتصب الامير وقد علت سحنته سيما الحزن والكمد ، ثم خرج الى الحديقة يتقدمه حاملو المسارج و يتبعه القواد والكهان . ولما بلغوا اطراف الحديقة . حيث اشجار اللوز والرمان . جلت لهم اشعة السرج الصفراء جثةً هامدة مرتمية على الاعشاب كغصن ورد ذابل .

فقال احد الاعوان « انظروا كيف عانق قيثارته كأنها صبية حسناء أحبها وأحبته فتعاهدا على ان يموتا معاً »

وقال أحد القواد « لم يزل يحدق في اعماق الفضاء كعادته كأنه يرى بين الكواكب خيال الهٍ غير معروف »

وقال رئيس الكهان مخاطباً الامير « غداً نقبره في ظلال هيكل عشتروت المقدسة . فيسير سكان المدينة وراء نعشه ، و ينشد الفتيان قصائده ، وتنثر العذارى الازهار على ضريحه . لقد كان شاعراً عظيماً فليكن احتفالنا بدفنه عظيماً . »

فهز الامير رأسه دون ان يحول عينيه عن وجه الشاعر المتشح بنقاب الموت ، ثم قال ببطء « لا . لا . لقد اهملناه اذ كان حياً يملأ جوانب البلاد من اشباح نفسه ، و يعطر الفضاء بانفاسه ، فاذا ما اكرمناه ميتاً تسخر بنا الآلهة وتضحك منا عرائس المروج

والاودية . . ادفنوه ههنا حيث فاضت روحه . وابقوا قيثاوته بين ذراعيه . وان كان بينكم من يريد ان يكرمه فليذهب الى بيته و يخبر ابناءه بان الامير قد اهمل شاعره فمات كئيباً وحيداً منفرداً »

ثم التفت حوله وزاد قائلاً « أين الفيلسوف الهندي ؟ »

فتقدم الفيلسوف وقال « ها أنذا ايها الامير العظيم »

فقال الامير قل — قل ايها الحكيم — هل ترجعني الآلهة أميراً الى هذا العالم وتعيده شاعراً ؟ هل تلبس روحي جسد ابن مليك عظيم ؟ وتتجسم روحه في جسد شاعر كبير ؟ هل توقفه النواميس ثانية امام وجه الابدية لينظم الحياة شعراً ؟ وتعيدني لانعم عليه وأفرح قلبه بالمواهب والعطايا ؟ »

فأجاب الفيلسوف قائلاً « كل ما تشتاقه الارواح تبلغه الارواح ، فالناموس الذي يعيد بهجة الربيع بعد انقضاء الشتاء سيعيدك اميراً عظيماً ويعيده شاعراً كبيراً »

فانفرجت ملامح الامير وانتعشت نفسه ثم مشى نحو قصره مفكراً في اقوال الحكيم الهندي محدثاً ذاته بقوله « كل ما تشتاقه الارواح تبلغه الارواح »

« ٢ »

« في مصر القاهرة سنة ١٩١٢ للميلاد »

طلع القمر والقى وشاحه الفضي على المدينة ، وامير البلاد جالس في شرفة قصره ، ينظر الى الفضاء الصافي . مفكراً بما تي الاجيال التي مرت متتابعة على ضفاف النيل ، مستوضحاً اعمال الملوك والفاتحين الذين وقفوا امام هيبة ابي الهول ، مستعرضاً مواكب الشعوب والامم التي سيرّها الدهر من جوانب الاهرام الى قصر عابدين

ولما اتسعت دائرة افكاره . وانبسطت مسارح احلامه . التفت نحو نديمه الجالس بقربه وقال « في نفسنا الليلة ميل الى الشعر فانشدنا شيئاً منه »

فحنى النديم رأسه واخذ ينشد قصيدة لشاعر جاهلي .

فقاطعه الامير قائلاً « انشدنا شعراً احدث عهداً »

فانحنى النديم ثانية وابتدأ يردد ابياتاً لاحد الشعراء المخضرمين

فقاطعه الامير ايضاً وقال «احدث عهداً ، احدث عهداً »

فانحنى النديم للمرة الثالثة واخذ يترنم بمقاطيع موشح اندلسي

فقال الامير « انشدنا قصيدةً لشاعر معاصر »

فرفع النديم يده الى جبهته كأنه يريد ان يستحضر الى حافظته كل ما نظمه شعراء العصر ، ثم برقت عيناه ، وتهلل وجهه ، وطفق يرتل ابياتاً خيالية ذات رنة سحرية ، ومعانٍ رقيقة مبتكرة ، وكنايات لطيفة نادرة تجاور النفس فتملأها شعاعاً ، وتحيط بالقلب فتذيبه انعطافاً

فحدق الامير بنديمه وقد استهوته نغمة الابيات ومعانيها ، وشعر بوجود ايادٍ خفية تجتذبه من ذلك المكان الى مكان قصيّ . ثم سأل قائلا « لمن هذه الابيات ؟ »

فاجاب النديم « للشاعر البعلبكي »

الشاعر البعلبكي !

الشاعر البعلبكي . . كلمتان غريبتان تموجتا في مسامع الامير وولدتا في داخل روحه النبيلة اشباح اميال ملتبسة بوضوحها قوية بدقتها

الشاعر البعلبكي . . اسم قديم جـديد ، اعاد الى نفس الامير رسوم ايام منسيّة ، وايقظ في اعماق صدره خيالات تذكارات هاجعة ، ورسم امام عينيه بخطوط شبيهة بثنايا الضباب صورةَ فتى ميت يعانق قيثارة وقد وقف حوله القواد والـكهان والوزراء !

وامّحت هذه الرؤيا امام عيني الامير مثلما تتوارى الاحلام بمجيء الصباح ، فوقف ومشى جامعاً ذراعيه على صدره ، مردداً آية النبي العربي — « وكنتم امواتاً فاحيا كم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون »

ثم التفت نحو نديمـه قائلاً « يسرنا وجود الشاعر البعلبكي في بلادنا وسوف نقرّبهُ ونكرمه » وبعد دقيقة زاد بصوت منخفض « انما الشاعر طائر غريب المزايا يفلت من مسارحه العلوية ويجيء هذا العالم مغردا فان لم نكرمه يفتح جناحيه ويعود طائراً الى موطنه »

وانقضى الليل ، فخلع الفضاء اثوابه المرصعة بالنجوم ، ولبس قميصه المنسوج من اشعة الصباح ، ونفس امير البلاد تمايل بين عجائب الوجود وغرائبه ، وخفايا الحياة واسرارها

تذكارات محب (١)

كنت في الثامنة عشرة عند ما فتح الحبّ عيني بأشعته السحرية ، ولمس نفسي لأول مرة بأصابعه النارية ، وكانت سلمى كرامه المرأة الاولى التي أيقظت روحي بمحاسنها ، ومشت أمامي الى جنة العواطف العلوية حيث تمر الايام كالاحلام وتنقضي الليالي كالاعراس

سلمى كرامه هي التي علمتني عبادة الجمال بجمالها ، وأرتني خفايا الحب بانعطافها ، وهي التي أنشدت على مسمعي أول بيت من قصيدة الحياة المعنوية

أيّ فتى لا يذكر الصبية الأولى التي أبدلت غفلةَ شبيبته بيقظة هائلة بلطفها ، جارحة بعذوبتها ، فتاكة بحلاوتها ؟ من منا لا يذوب حنيناً الى تلك الساعة الغريبة التي اذا انتبه فيها فجأة رأى كليته قد انقلبت وتحولت ، وأعماقه قد اتسعت وانبسطت وتبطنت بانفعالات لذيذة بكل ما فيها من مرارة الكتمان ، مستحبة بكل ما يكتنفها من الدموع والشوق والسهاد . لكل فتى سلمى تظهر على حين غفلة في ربيع حياته وتجعل لانفراده معنى شعرياً وتبدل وحشة أيامه بالأنس ، وسكينة لياليه بالانغام

كنت حائراً بين تأثيرات الطبيعة وموحيات الكتب والاسفار عند ما سمعت الحب يهمس بشفتي سلمى في آذان نفسي ، وكانت حياتي خالية مقفرة باردة شبيهة بسُبات آدم في الفردوس عند ما رأيت سلمى منتصبة أمامي كعمود النور فسلمى كرامه هي حواء هذا القلب المملوء بالاسرار والعجائب وهي التي أفهمته كنه هذا الوجود وأوقفته كالمرآة امام هذه الاشباح . . . حواء الاولى أخرجت آدم من الفردوس بارادتها وانقياده أما سلمى كرامه فادخلتني الى جنة الحب والطهر بحلاوتها واستعدادي ، ولكن ما أصاب الانسان الاول قد أصابني ، والسيف الناري الذي طرده من الفردوس هو كالسيف الذي أخافني بلمعان حده وأبعدني كرهاً عن جنة المحبة قبل ان اخالف وصية وقبل أن أذوق طعم ثمار الخير والشر

(١) توطئة رواية « الاجنحة المتكسرة »

واليوم ، وقد مرت الاعوام المظلمة طامسة بأقدامها رسوم تلك الايام ، لم يبقَ لي من ذلك الحلم الجميل سوى تذ كارات موجعة ترفرف كالأجنحة غير المنظورة حول رأسي ، مثيرة تنهدات الاسى في أعماق صدري ، مستقطرة دموع اليأس والاسف من اجفاني ... وسلمى — سلمى الجميلة العذبة قد ذهبت ما وراء الشفق الازرق ولم يبقَ من آثارها في هذا العالم سوى غصات أليمة في قلبي وقبر رخامي منتصب في ظلال أشجار السرو . فذلك القبر وهذا القلب هما كل ما بقي ليحدث الوجود عن سلمى كرامه . غير ان السكينة التي تخفر القبور لا تفشي ذلك السر المصون الذي أخفته الآلهة في ظلمات التابوت ، والاغصان التي امتصت عناصر الجسد لا تبيح بحفيفها مكنونات الحفرة . أما غصات وأوجاع هذا القلب فهي التي تتكلم وهي التي تنسكب الآن مع قطرات الحبر السوداء معلنة للنور أشباح تلك المأساة التي مثلها الحب والجمال والموت

فيا أشباح شبيبتي المنتشرين في بيروت اذ مررتم بتلك المقبرة القريبة من غابة الصنوبر فادخلوها صامتين وسيروا ببطء كيلا تزعج أقدامكم رفات الراقدين تحت أطباق الثرى وقفوا متهيبين بجانب قبر سلمى وحيوا عني التراب الذي ضم جثمانها ثم اذكروني بتنهدة قائلين في نفوسكم ، هنا دفنت آمال ذلك الفتى الذي نفته صروف الدهر الى ما وراء البحار ، وهنا توارت أمانيه وانزوت أفراحه وغارت دموعه واضمحلت ابتسامته و بين هذه المدافن الخرساء تنمو كآبته مع أشجار السرو والصفصاف ، وفوق هذا القبر ترفرف روحه كل ليلة مستأنسة بالذكرى ، مرددة مع أشباح الوحشة ندبات الحزن والاسى ، نائحة مع الغصون على صبية كانت بالامس نغمة شجية بين شفتي الحياة فأصبحت اليوم سراً صامتاً في صدر الارض

استحلفكم يارفاق الصبا بالنساء اللواتي احببتهن قلوبكم أن تضعوا أكاليل الازهار على قبر المرأة التي أحبها قلبي — فرب زهرة تلقونها على ضريح منسيّ تكون كقطرة الندى التي تسكبها أجفان الصباح بين أوراق الوردة الذابلة

الله

في قديم الازمنة لما ارتعشت شفتاي بالنطق لأول مرة صعدت الى الجبل المقدس وناجيت الله قائلاً :

« انا عبدك يا ربي ، ومشيئتك الخفية صراطي . وسأبقى مطيعاً لك الى أبد الآبدين »

فلم يجبني الله بل مرَّ كعاصفة هوجاء واختفى عن ناظري .

و بعد الف سنة صعدت ثانية الى الجبل المقدس وكلمت الله قائلاً :

« انا صنع يديك ياخالقي · من تراب الارض جبلتني ، و بنسمة من روحك القدسية أحييتني فانا لك بكليتي »

فلم يجبني الله ، بل مرَّ مجتازاً كخفيف اجنحة كثيرة وتوارى عن الابصار .

و بعد الف سنة صعدت ثالثة الى الجبل المقدس وكلمت الله قائلاً :

« انا ابنك يا أبتِ بالحب والحنان ولدتني ، و بالحب والعبادة سأرث ملكوتك . »

فلم يجبني الله بل توارى كالضباب الذي يغشي التلال البعيدة .

و بعد الف سنة صعدتُ رابعة الى الجبل المقدس وكلمت الله قائلاً :

« الهي ، ومقصدي ، وكمالي — انا أمسك وانت غدي . انا عروق لك في التراب وانت ازاهر لي في السماء ونحن ننمو سوية امام وجه الشمس »

فعطف اذ ذاك الله نحوي وهمس في أذني كلمات عذبة علوية ، وكبحر يضم جدولاً جارياً اليه هكذا ضمني الله اليه .

ولما انحدرت الى الاودية والسهول وجدت الله هنالك ايضاً .



يا صاحبي

ياصاحبي — انا لست كما اظهر لديك، وما مظاهري سوى رداء دقيق الصنع محوك من خيوط التساهل والحسنى أتقنت به ليدرأ عني تطفلك ويحميك من إهمالي . اما الذات الخفيّة التي ادعوها « انا » فهي سر عميق غامض مستتر وراء جدران السكون وسيبقى غامضاً مستتراً معتصماً الى الابد

ياصاحبي — اودُّ ان لا تصدق ما اقول وان لا تثق بما افعل لان كلماتي ليست سوى صدى افكارك وما آتيّ ليست سوى رسوم آمالك

ياصاحبي — حين تقول لي « الريح تهب شرقاً » اجيبك بقولي «اي » فهي تهب شرقاً » لانني لا اريدك ان تعلم ان افكاري لا تسبح مع الريح بل تهبط وتتصاعد مع امواج البحر . وانت قاصر بطبيعة افكارك المستسلمة الى الارياح عن ادراك طبيعة افكاري المرفرفة فوق البحار ، وانا لا استطيع ان أبين لك كنه تلك الافكار ، ولو استطعت لما فعلت لانني أُوثر ان اسبح في البحر وحدي

ياصاحبي — حين تكون في ظهيرة نهارك اكون في منتصف ليلي ، ومع ذلك فانا احدثك من وراء حجاب الدجى عن الشمس في الطفل وعن اشعتها الذهبية الراقصة فوق قمم الجبال وعن الظل الطايل الذي يسترق خطواته في الاودية الخضراء . احدثك عن هذه الامور لانك لاتستطيع ان تسمع ألحان ظلمتي ولا تقدر ان ترى خفقان جناحي بين الكواكب . وانا لا اريدك ان تسمع او ان ترى لانني أُوثر ان ابقى مع الليل وحدي .

ياصاحبي — حين تصعد انت الى جنتك أنحدر انا الى جحيمي . وحتى في جحيمي اسمعك تناديني من وراء الهاوية الهائلة التي تفصلنا قائلاً « يا صاحبي — يا رفيقي » فاجيبك هاتفاً « يا رفيقي — يا صاحبي » لاني اضن بجحيمي من ان يقع عليه بصرك واخشى من لهيبه ان يلتهم النور في عينيك ومن دخانه ان يسد منخريك . اما انا فمولع بجحيمي وأُوثر ان تبقى بعيداً عنه لاني اريد ان اكون في الجحيم وحدي .

يا صاحبي — انت تعشق الحق والجمال والفضيلة . وانا لاجلك اقول انه يليق بالانسان ان يحب هذه الاشياء . ولكنني اضحك في قلبي من حبك — واستر عنك ضحكي لاني افضل ان اضحك وحدي

يا صاحبي — انت صديق وحكيم ومترو ، لا بل انت كامل ، وانا احاول ان اخاطبك بحكمة وترو . غير انني مجنون منجذب عن العالم الذي تقطنه انت الى عالم غريب بعيد . لكنني استر عنك جنوني لانني افضل ان اكون مجنوناً وحدي

يا صاحبي — انت لست صاحبي فكيف اجعلك تدرك ذلك ؟ طريقك ليست طريقي ولكننا نسير معاً يداً بيد .

الليل والمجنون

المجنون — « انا مثلك أيها الليل قاتم ، عارٍ سائرٌ على الطريق الملتهبة الممتدة فوق احلام نهاري ، وحيثما تمس رجليَّ الارض هناك تنبثق شجرة سنديان »

الليل — كلا ، لست مثلي ، أيها المجنون ، لانك لا تزال تلتفت الى الوراء لترى كبر آثار قدميك على الرمال »

المجنون — « انا مثلك أيها الليل صامت وعميق . وفي قلب وحدتي الاهة تتمخض بمولود علوي تأتلف بكيانه الجنة والجحيم

الليل — كلا . لست مثلي ، أيها المجنون ، لانك لاتزال ترتعش مرتاعاً امام الألم ويهولك سماع اناشيد الهاوية »

المجنون — « انا مثلك أيها الليل آبد ، هائل . وفي اذنيَّ يزدحم نحيب الشعوب المغلوبة وانات الممالك المنسية »

الليل — « كلا لست مثلي ، أيها المجنون ، لانك لاتزال وفياً لذاتك الصغرى ، معرضاً عن ذاتك الكبرى »

المجنون — « انا مثلك ، أيها الليل ، صارم وفظيع ، فلا ينير قلبي سوى لهيب المراكب المحترقة في البحار ولا يرطب شفتي غير دماء الابطال النازعين »

الليل — « كلا لست مثلي ، أيها المجنون ، لان شوقك الى روح مؤاخية لا يزال متسلطاً عليك وانت لم تصرْ حتى الآن شريعة لنفسك »

المجنون — « انا مثلك أيها الليل جذلان وطروب ، والذي يرتع في ظلالي قد سكر من الخمر البكر ، والتي تتبعني قد تمردت على الحياة وهي جذلى »

الليل — « كلا لست مثلي ، أيها المجنون ، لان روحك مغشاة بسبعة براقع ، وانت للآن لم تضع قلبك على كفك »

المجنون — « انا مثلك ، أيها الليل ، قلق وكئيب . فان في صدري الوفاً من المحبين المائتين الذين غسلوا بالدموع المحرقة وكفنوا بالقبل الذابلة »

الليل — « أأنت مثلي ، ايها المجنون ، أأنت مثلي ؟ وهل تمتطي العاصفة جواداً وتمتشق البرق سيفاً ؟ »

المجنون — « انا مثلك ، ايها الليل ! انا مثلك متسامٍ وقدير . وقد رفعت عرشي فوق ركام الالهة الساقطين وجعلت الايام تمر امامي مقبلة اطراف ثوبي دون ان تبصر وجهي »

الليل « أأنت مثلي ، يا ابن سواد قلبي . أأنت مثلي ؟ وهل تفتكر افكاري العاصية وتنطق بلغتي الهائلة ؟ »

المجنون — نحن توأمان ، ايها الليل ، فانت تبين أعماق اللانهاية وانا ابين اعماق نفسي



مات اهلى

مات اهلي وانا على قيد الحياة اندب اهلي في وحدتي وانفرادي

مات أحبائي وقد أصبحت حياتي بعدهم بعض مصابي بهم

مات أهلي وأحبائي وغمرت الدموع والدماء هضبات بلادي وانا ههنا اعيش مثلما كنت عائشاً عنـدما كان أهلي وأحبائي جالسين على منكبي الحياة وهضبات بلادي مغمورة بنور الشمس .

مات أهلي جائعين ، ومن لم يمت منهم جوعاً قضى بحد السيف ، وانا في هذه البلاد القصية أسير بين قوم فرحين مغبوطين يتناولون المآكل الشهية والمشارب الطيبة و ينامون على الاسرّة الناعمة و يضحكون للايام والايام تضحك لهم .

مات أهلي أذلّ ميتة ، وانا ههنا اعيش في رغد وسلام . وهذه هي المأساة المستتبة على مسرح نفسي .

لو كنت جائعاً بين أهلي الجائعـين ، مضطهداً بين قومي المضطهدين لكانت الايام أخفّ وطأة على صدري ، والليالي أقل سواداً امام عيني . لانّ من يشارك أهله بالاسى والشدة يشعـر بتلك التعزية العلوية التي يولدها الاستشهاد ، بل يفتخر بنفسه لانه يموت بريئاً من الابرياء

ولكني لست مع قومي الجائعين ، المضطهدين ، السـائرين في موكب الموت نحو مجد الاستشهاد ، بل أنا ههنا وراء البحار السبعة أعيش في ظل الطمأنينة وخمول السلامة . أنا ههنا بعيد عن النكبة والمنكو بين ولا أستطيع ان افتخر بشيء حتى ولا بدموعي

وماذا عسى يقدر المنفيّ البعيد ان يفعل لاهله الجائعين

ليت شعرى ، ماذا ينفع ندب الشاعر ونواحه !

لو كنت سنبلة من القمح نابتة في تربة بلادي لكان الطفل الجائع يلتقطني و يزيل بحباتي يد الموت عن نفسه

لو كنت ثمرة يانعة في بساتين بلادي لكانت المرأة الجائعة تتناولني وتقتضمني طعاماً
لو كنت طائراً في فضاء بلادي لكان الرجل الجائع يصطادني ويزيل بجسدي .
ظل القبر عن جسده

ولكن ، واحرَّ قلباه ، لست بسنبلة من القمح في سهول سوريا ، ولا بثمرة يانعة في اودية لبنان . وهذه هي نكبتي . هذه هي نكبتي الصامتة التي تجعلني حقيراً امام نفسي وامام اشباح الليل .

هذه هي المأساة الموجعة التي تعقد لساني وتكبل يدي ثم توقفني بلا عزم ، ولا ارادة ، ولا عمل ،

يقولون لي — مانكبة بلادك سوى جزء من نكبة العالم ، وما الدموع والدماء التي هرقت في بلادك سوى قطرات من نهر الدماء والدموع المتدفق ليلاً ونهاراً في اودية الارض وسهولها

نعم . ولكن نكبة بلادي نكبة خرساء — نكبة بلادي جريمة حبلت بها رؤوس الافاعي والثعابين — نكبة بلادي مأساة بغير اناشيد ولا مشاهد

لو ثار قومي على حكامهم الطغاة وماتوا جميعاً متمردين لقلت ان الموت في سبيل الحرية لاشرف من الحياة في ظلال الاستسلام . ومن يعتنق الابدية والسيف في يده كان خالداً بخلود الحق

لو اشتركت أمتي بحرب الامم وانقرضت على بكرة ابيها في ساحة القتال لقلت هي العاصفة الهوجاء تهصر بعزمها الاغصان الخضراء واليابسة معاً ، والموت تحت اقدام العواصف لَاشرفُ منه بين ذراعي الشيخوخة

ولو زلزلت الارض زلزالها وقلبت ظهر بلادي صدراً وغمر التراب اهلي واحبائي لقلت هي النواميس الخفية تتحرك بمشيئة قوة فوق قوى البشر فمن الجهالة ان نحاول ادراك اسرارها وخفاياها .

ولكن لم يمت اهلي متمردين ، ولا هلكوا محاربين ، ولا زعزع الزلزال بلادهم فانقرضوا مستسلمين .

مات اهلي على الصليب
ماتوا واكفهم ممدودة نحو الشرق والغرب وعيونهم محدقة بسواد الفضاء
ماتوا صامتين لان آذان البشرية قد أغلقت دون صراخهم
ماتوا لانهم لم يحبوا اعداءهم كالجبناء ، ولم يكرهوا محبيهم كالجاحدين
ماتوا لانهم لم يكونوا مجرمين
ماتوا لانهم لم يظلموا الظالمين
ماتوا لانهم كانوا مسالمين
ماتوا جوعاً في الارض التي تدرُّ لبناً وعسلاً

ماتوا لان الثعبان الجهنمي قد ألتهم كل ما في حقولهم من المواشي وما في اهرائهم من الاقوات .

ماتوا لان الافاعي ابناء الافاعي قد تنفسوا السموم في الفضاء الذي كانت تملوءه انفاس الارز وعطور الورود والياسمين

. . . .

مات اهلي واهلكم ، ايها السوريون ، فماذا نستطيع ان نفعل لمن لم يمت منهم ؟
ان نواحنا لا يسد رمقهم ، ودموعنا لا تروي غليلهم
اذن ماذا نفعل لننقذهم من الجوع والشدة ؟

هل نبقى مرتابين ، مترددين ، متكاسلين ، مشغولين عن المأساة العظمى بتوافه الحياة وصغائرها ؟

ان العاطفة التي تجعلك ، يا اخي السوري ، تعطي شيئا من حياتك لمن يكاد ان يفقد حياته هي هي الامر الوحيد الذي يجعلك حرياً بنور النهار وهدوء الليل

وان الدرهم الذي تضعه في اليد الفارغة الممدودة اليك هو هو الحلقة الذهبية التي تصل ما فيك من البشرية بما فوق البشرية



الجائعة المستعطية   لجبران خليل جبران

العبودية

انما الناس عبيد الحياة ، وهي العبودية التي تجعل ايامهم مكتنفة بالذل والهون ولياليهم مغمورة بالدماء والدموع .

ها قد مرت سبعة آلاف سنة على ولادتي الاولى وحتى الآن لم ارَ غير العبيد المستسلمين والسجناء المكبلين .

لقد جُبت مشارق الارض ومغاربها ، وطُفت في ظل الحياة ونورها ، وشاهدت مواكب الامم والشعوب سائرة من الكهوف الى الصروح ، ولكنني لم ارَ للآن غير رقاب منحنية تحت الاثقال ، وسواعد موثقة بالسلاسل ، وركب جاثية امام الاصنام .

قد اتبعت الانسان من بابل الى باريس ومن نينوى الى نيويورك ورأيت اثار قيوده مطبوعة على الرمال بجانب آثار اقدامه ، وسمعت الاودية والغابات تردد صدى نواح الاجيال والقرون .

دخلت القصور والمعاهد والهياكل ، ووقفت حذاء العروش والمذابح والمنابر ، فرأيت العامل عبداً للتاجر ، والتاجر عبداً للجندي ، والجندي عبداً للحاكم ، والحاكم عبداً للملك ، والملك عبداً للكاهن ، والكاهن عبداً للصنم ، والصنم تراب جبلته الشياطين ونصبته فوق رابية من جماجم الاموات .

دخلت منازل الاغنياء الاقوياء ، واكواخ الفقراء الضعفاء ، ووقفت في المخادع المغشاة بقطع العاج وصفائح الذهب ، وفي المآوي المفعمة باشباح اليأس وانفاس المنايا ، فرأيت الاطفال يرضعون العبودية مع اللبن ، والصبيان يتلقنون الخضوع مع حروف الهجاء . والصبايا يرتدين الملابس مبطنة بالانقياد والخنوع ، والنساء يهجعن على اسرة الطاعة والامتثال .

اتبعت الاجيال من ضفاف الكنج الى شاطىء الفرات الى مصبّ النيل الى جبل سينا الى ساحات اثينا الى كنائس رومية الى ازقة القسطنطينية الى بنايات لندن فرأيت

العبودية تسير بكل مكان في موكب العظمة والجلال والناس ينحرون الفتيان والعذارى على مذابحها و يدعونها الهاً ، ثم يسكبون الخمور والطيوب على قدميها و يدعونها ملكاً ، ثم يحرقون البخور امام تماثيلها و يدعونها نبياً ، ثم يخرون ساجدين لديها و يدعونها شريعة ، ثم يتحاربون و يتقاتلون من اجلها و يدعونها وطنية . ثم يستسلمون الى مشيئتها و يدعونها ظلّ الله على الارض ، ثم يحرقون منازلهم ويهدمون مبانيهم بارادتها و يدعونها اخاء ومساواة ، ثم يجدّون و يجاهدون في سبيلها و يدعونها مالا وتجارة . . . فهي ذات اسماء عديدة وحقيقة واحدة ومظاهر كثيرة لجوهر واحد . بل هي علة ازلية ابدية تجيء باعراض متباينة وقروح مختلفة يتوارثها الابناء عن الآباء مثلما يتوارثون نسمة الحياة وتلقي بذورها العصورُ في تربة العصور مثلما تستغلُّ الفصول ما تزرعه الفصول .

* * *

واغرب ما لقيت من انواع العبوديات واشكالها العبودية العمياء — وهي التي توثق حاضر الناس بماضي آبائهم وتنيخ نفوسهم امام تقاليد جدودهم وتجعلهم اجسادا جديدة لارواح عتيقة وقبورا مكلسة لعظام بالية .

والعبودية الخرساء — وهي التي تعلق ايام الرجل باذيال الزوجة التي يمقتها . وتلصق جسد المرأة بمضجع الزوج الذي تكرهه وتجعلها من الحياة بمنزلة النعل من القدم .

والعبودية الصماء — وهي التي تكره الافراد على اتباع مشارب محيطهم والتلون بالوانه والارتداء بازيائه فيصبحون من الاصوات كرجع الصدى ومن الاجسام كالخيالات .

والعبودية العرجاء — وهي التي تضع رقاب الاشداء تحت سيطرة المحتالين وتسلم عزم الاقوياء الى اهواء الطامعين بالمجد والاشتهار فيمسون مثل آلات تحركها الاصابع ثم توقفها ثم تكسرها .

والعبودية الشمطاء — وهي التي تهبط بارواح الاطفال من الفضاء المتسع الى منازل الشقاء حيث تقيم الحاجة بجانب الغباوة و يقطن الذل في جوار القنوط فيشبون تعساء و يعيشون مجرمين و يموتون مرذولين

والعبودية الرقطاء — وهي التي تبتاع الاشياء بغير اثمانها وتسمي الامور بغير اسمائها فتدعو الاحتيال ذكاء والثرثرة معرفة والضعف ليناً والجبانة اباء .

والعبودية العرجاء — وهي التي تحرك بالخوف ألسنة الضعفاء فيتكلمون بما لا يشعرون ويتظاهرون بما لا يضمرون ويصبحون بين ايدي المسكنة مثل ثوب تطويه وتنشره .

والعبوديه الحدباء — وهي التي تقود قوماً بشرائع قوم آخرين .

والعبودية الجرباء — وهي التي تتوّج ابناء الملوك ملوكا

والعبودية السوداء — وهي التي تسم بالعار ابناء المجرمين الابرياء .

والعبودية للعبودية نفسها وهي قوة الاستمرار .

* * *

ولما تعبت من ملاحقة الاجيال ، ومللت النظر الى مواكب الشعوب والامم ، جلست وحيداً في وادي الاشباح حيث تختبىء خيالات الازمنة الغابرة وتربض ارواح الازمنة الآتية : هناك رأيت شبحاً هزيلاً يسير منفرداً محدقاً بوجه الشمس فسألته « من انت وما اسمك »

قال « اسمي الحرية »

قلت « واين ابناؤك ؟ »

قال « واحد مات مصلوباً وواحد مات مجنوناً وواحد لم يولد بعدُ » ثم توارى عن عيني وراء الضباب .



ايها الليل

يا ليل العشاق والشعراء والمنشدين .

يا ليل الاشباح والارواح والاخيلة .

يا ليل الشوق والصبابة والتذكار .

أيها الجبار الواقف بين اقزام غيوم المغرب وعرائس الفجر ، المتقلد سيف الرهبة ، المتوَّج بالقمر ، المتشح بثوب السكوت ، الناظر بألف عين الى اعماق الحياة ، المصغي بألف اذن الى أنة الموت والعدم .

انت ظلامٌ يرينا انوار السماء ، والنهار نور يغمرنا بظلمة الارض .

انت أملٌ يفتح بصائرنا امام هيبة اللانهاية ، والنهار غرورٌ يوقفنا كالعميان في عالم المقاييس والكمية .

انت هدوءٌ يبيح بصمته خفايا الارواح المستيقظة الساهرة في الفضاء العلوي ، والنهار ضجيج يثير بعوامله نفوس المنطرحين بين سنابك المقاصد والرغائب .

انت عادل يجمع بين جنحي الكرى احلامَ الضعفاء باماني الاقوياء . وانت شفوق يغمض باصابعه الخفية اجفانَ التعساء ويحمل قلوبهم الى عالم اقلَّ قساوةً من هذا العالم .

بين طيات أثوابك الزرقاء يسكب المحبون انفاسهم ، وعلى قدميك المغلَّفتين بقطر الندى يهرق المستوحشون قطرات دموعهم ، وفي راحتيك المعطرتين بطيب الاودية يضع الغرباء تنهدات شوقهم وحنينهم ، فانت نديم المحبين وأنيس المستوحدين ورفيق الغرباء والمستوحشين .

في ظلالك تدبُّ عواطف الشعراء ، وعلى منكبيك تستفيق قلوب الانبياء ، و بين ثنايا ضفائرك ترتعش قرائح المفكرين ، فانت ملقن الشعراء والموحي الى الانبياء والموعز الى المفكرين والمتأملين :

***

عند ما ملَّت نفسي البشر وتعبت اجفاني من النظر الى وجه النهار سرت الى تلك الحقول البعيدة حيث تهجم اشباح الازمنة الغابرة .

هنالك وقفت امام كائن أقتم جامد مرتعش سائر بالف قدم فوق السهول والجبال والاودية .

هنالك احدقت شاخصاً بعيون الدجى ، مصغياً لحفيف الاجنحة غير المنظورة ، شاعراً بملامس ملابس السكوت ، مستبسلاً امام مخاوف الظلام

هنالك رأيتك أيها الليل شبحاً هائلاً جميلاً منتصباً بين الارض والسماء ، متشحاً بالسحاب ، ممنطقاً بالضباب ، ضاحكاً من الشمس ، ساخراً بالنهار ، مستهزئاً بالعبيد الساهرين امام الاصنام ، غاضباً على الملوك الراقدين فوق الحرير والديباج ، محملقاً بوجوه اللصوص ، خافراً بقرب اسرّة الاطفال ، باكياً لابتسام الساقطات ، مبتسماً لبكاء العشاق ، رافعاً بيمينك كبار القلوب ، ساحقاً بقدميك صغار النفوس ،

هناك رأيتك أيها الليل ورأيتني ، فكنتَ بهولك لي أباً وكنتُ باحلامي لك ابناً ، فازيحت من بيننا ستائر الاشكال وتمزق من وجهينا نقاب الظن والتخمين ، فابحتَ لي باسرارك ونواياك ، وابنت لي امانيَّ وآمالي ، حتى اذا حولت اهوالك الى انغام اعذب من همس الازهار ، وتبدلت مخاوفي بانسٍ اطيب من طمأنينة العصافير ، رفعتني اليك ، واجلستني على منكبيك ، وعلمت عينيَّ النظر ، وعلمت اذنيَّ السمع ، وعلمت شفتيَّ الكلام ، وعلمت قلبي محبة ما لايحبه الناس وكره ما لا يكرهونهُ ، ثم لمست بأناملك افكاري فتدفقت افكاري نهراً راكضاً مترنماً يجرف الاعشاب الذابلة ، ثم قبلت بشفتيك روحي فتمايلت روحي شعلةً متقدة تلتهم الانصاب اليابسة .

***

لقد صحبتك أيها الليل حتى صرت شبيهاً بك ، وألفتك حتى تمازجت اميالي باميالك ، واحببتك حتى تحول وجداني الى صورة مصغرة لوجودك . ففي نفسي المظلمة كواكب متلمعة ينثرها الوجد عند المساء وتلتقطها الهواجس في الصباح . وفي قلبي الرقيب قمرٌ يسعى تارةً في فضاء متلبد بالغيوم وطوراً في خلاءٍ مفعم بمواكب الاحلام . وفي روحي

الساهرة سكينة تبيح بتفاعيلها سرائر المحبين وترجع خلاياها صدى صلوات المتعبدين . وحول رأسي غلاف من السحر تمزقه حشرجة النازعين ثم تخيطه اغاني المتشببين .

أنا مثلك أيها الليل وهل يحسبني الناس مفاخراً اذا ما تشبهت بك وهم اذا تفاخروا يتشبهون بالنهار ؟

أنا مثلك أيها الليل وكلانا متهم بما ليس فيه .

أنا مثلك باميالي واحلامي وخلقي واخلاقي .

أنا مثلك وان لم يتوجني المساء بغيومه الذهبية .

أنا مثلك وان لم يرصع الصباح اذيالي باشعته الوردية .

أنا مثلك وان لم اكن ممنطقاً بالمجرة .

أنا ليل مسترسلٌ منبسطٌ هادىءٌ مضطربٌ وليس لظلمتي بدءٌ وليس لاعماقي نهاية ، فاذا ماانتصبت الارواح متباهيةً بنور افراحها تتعالى روحي متمجدة بظلام كآبتها .

أنا مثلك أيها الليل ولن يأتي صباحي حتى ينتهي اجلي .





بركة الدمّ ‏ ‏ ‏ ‏ لجبران خليل جبران

وعظتني نفسي

وعظتني نفسي فعلمتني حبّ ما يمقته النـاس ومصافاة من يضاغنونه وأبانت لي أن الحبّ ليس بميزة في المحبّ بل في المحبوب . وقبل ان تعظني نفسي كان الحبّ بي خيطاً دقيقاً مشدوداً بين وتدين متقار بين ، اما الآن فقد تحول الى هالة أولها آخرها وآخرها أولها تحيط بكل كائن وتتوسع ببطء لتضم كل ما سيكون

* * *

وعظتني نفسي فعلمتني ان أرى الجمال المحجوب بالشكل واللون والبشرة ، وأن أحدق متبصراً بما يعده الناس شناعة حتى يبدو لي حسناً . وقبـل أن تعظني نفسي كنت أرى الجمال شعلاتٍ مرتعشـة بين أعمدة من الدخان وأضمحل فلم أعد أرى سوى ما يشتعل

وعظتني نفسي فعلمتني الاصغاء الى الاصوات التي لا تولدها الألسـنة ولا تضج بها الحناجر . وقبل أن تعظني نفسي كنت كليلَ المسامع مريضها . لا أعي سوى الجلبة والصياح أما الآن فقد صرت اتوجس بالسكينة فاسمع اجواقها منشـدة أغاني الدهور . مرتلة تسابيح الفضاء . معلنة أسرار الغيب

* * *

وعظتني نفسي فعلمتني أن أشرب مما لا يعصر ولا يسكب بكؤوس لا ترفع بالايدي ولا تلمس بالشفاه . وقبل ان تعظني نفسي كان عطشي شرارة ضئيلة في رابية من رمادٍ أخمدها بغبةٍ من الغدير أو برشفة من جرن المعصرة . أما الآن فقد صار شوقي كأسي . وغلّتي شرابي . ووحدتي نشوتي . وانا لا وَلن أرتوي . ولكن في هذه الحرقة التي لا تنطفي مسرة لا تزول

* * *

وعظتني نفسي فعلمتني لمس ما لم يتجسد ولم يتبلور ، وافهمتني ان المحسوس نصفه

المعقول . وان ما نقبض عليه بعض ما نرغب فيه . وقبل ان تعظني نفسي كنت اكتفي بالحارّ ان كنت بارداً . وبالبارد ان كنت حاراً . وباحدهما ان كنت فاتراً . اما الآن فقد انتثرت ملامسي المنكمشة وانقلبت ضباباً دقيقاً يخترق كل ما ظهر من الوجود ليمتزج بما خفي منه

* * *

وعظتني نفسي فعلمتني استنشاق ما لا تبثه الرياحين ولا تنشره المجامر . وقبل ان تعظني نفسي كنت ان اشتهيت عطراً طلبته من البساتين أو من القوارير أو المباخر . أما الآن فقد صرت أشم ما لا يحترق ولا يهرق . واملأ صدري من انفاس زكية لم تمرّ بجنة من جنّات هذا العالم ولم تحملها نسمة من نسمات هذا الفضاء

* * *

وعظتني نفسي فعلمتني ان أقول (لبّيك) عند ما يناديني المجهول والخطر . وقبل أن تعظني نفسي كنت لا أنهض الاّ لصوت مناد عرفته . ولا أسير الا على سبل خبرتها فاستهونتها . أما الآن فقد أصبح المعلوم مطيّة أركبها نحو المجهول والسهل سلّماً أتسلق درجاته لأبلغ الخطر

* * *

وعظتني نفسي فعلمتني ألاّ أقيس الزمن بقولي (كان بالأمس وسيكون غداً) وقبل أن تعظني نفسي كنت أتوهم الماضي عهداً لا يرد والآتي عصراً لن أصل اليه . اما الآن فقد عرفت ان في الهنيهة الحاضرة كل الزمن بكل ما في الزمن مما يرجى وينجز ويتحقق

وعظتني نفسي فعلمتني ألاّ أحدّ المكان بقولي (هنا وهناك وهنالك) وقبل أن تعظني نفسي كنت اذا ما صرت في موضع في الارض ظننتني بعيداً عن كل موضع آخر . أما الآن فقد علمت ان مكاناً أحل فيه هو كل مكان . وان فسحة اشغلها هي كل المسافات

وعظتني نفسي فعلمتني ان أسهر وسكان الحي راقدون . وان انام وهم متنبهون . وقبل ان تعظني نفسي كنت لاأرى أحلامهم في هجعتي ولا يرصدون أحلامي في غفلتهم . أما الآن فلا أسبح مرفرفاً في منامي الاّ وهم يرقبونني ولا يطيرون في أحلامهم الاّ وفرحت بانعتاقهم.

* * *

وعظتني نفسي فعلمتني أن لا أطرب لمديح ولا أجزع لمذمّة . وقبل ان تعظني نفسي كنت أظلّ مرتاباً في قيمة أعمالي وقدرها حتى تبعث اليها الايام بمن يقرظها أو يهجوها . أما الان فقد عرفت ان الاشجار تزهر في الربيع وتثمر في الصيف ولا مطمع لها بالثناء . وتنثر أوراقها في الخريف وتتعرّى في الشتاء ولا تخشى الملامة

* * *

وعظتني نفسي فعلمتني وأثبتت لي انني لست بأرفع من الصعاليك . ولا أدنى من الجبابرة . وقبل ان تعظني نفسي كنت احسب الناس رجلين رجلاً ضعيفاً أرقّ له أو ازدري به ورجلاً قوياً أتبعه أو اتمرد عليه . اما الآن فقد علمت انني كونت فرداً مما كوّن البشر منه جماعة . فعناصري عناصرهم . وطويتي طويتهم . ومنازعي منازعهم . ومحجتي محجتهم . فان اذنبوا فأنا المذنب . وان أحسنوا عملاً فاخرتُ بعملهم . وان نهضوا نهضت وإياهم . وان تقاعدوا تقاعدت معهم

* * *

وعظتني نفسي فعلمتني ان السّراج الذى أحمله ليس لي . والاغنية التي انشدها لم تتكون في أحشائي . فأنا وان سرت بالنور لست بالنور . وانا وان كنت عوداً مشدود الاوتار فلست بالعوّاد

* * *

وعظتني نفسي يا أخي وعلمتني . ولقد وعظتك نفسك وعلمتك . فأنت وأنا متشابهان متضارعان . وما الفرق بيننا سوى انني اتكلم عما بي وفي كلامي شيء من اللجاجة . وأنت تكتم مابك وفي تكتمك شكل من الفضيلة

لكم لبنانكم ولي لبناني

لكم لبنانكم . ولي لبناني

لكم لبنانكم ومعضلاته ، ولي لبناني وجماله

لكم لبنانكم بكل مافيه من الاغراض والمنازع . ولي لبناني بمافيه من الاحلام والاماني

لكم لبنانكم فاقنعوا به ، ولي لبناني وأنا لا اقنع بغير المجرد المطلق

لبنانكم عقدة سياسية تحاول حلها الايام ، أما لبناني فتلول تتعالى بهيبة وجلال نحو زرقاق السماء

لبنانكم مشكلة دولية تتقاذفها الليالي ، أما لبناني فأودية هادئة سحرية تتموج في جنباتها رنات الاجراس وأغاني السواقي

لبنانكم صراع بين رجل جاء من المغرب ورجل جاء من الجنوب . أما لبناني فصلاة مجنحة ترفرف صباحاً عندما يقود الرعاة قطعانهم الى المروج وتتصاعد مساء عندما يعود الفلاحون من الحقول والكروم

لبنانكم حكومة ذات رؤوس لا عداد لها ، أما لبناني فجبل رهيب وديع جالس بين البحر والسهول جلوس شاعر بين الابدية والابدية

لبنانكم حيلة يستخدمها الثعلب عند ما يلتقي بالضبع والضبعُ حينما يجتمع بالذئب ، أما لبناني فتذ كارات تعيد على مسمعي اهازيج الفتيات في الليالي المقمرة وأغاني الصبايا بين البيادر والمعاصر

لبنانكم مربعات شطرنج بين رئيس دين وقائد جيش ، أما لبناني فمعبد ادخله بالروح عند ما أملُّ النظر الى وجه هذه المدينة السائرة على الدواليب

لبنانكم رجلان ، رجل يؤدي المكوس ورجل يقبضها ، أما لبناني فرجل فرد متكىء على ساعده في ظلال الارز وهو منصرف عن كل شيء سوى الله ونور الشمس

لبنانكم مرافىء وبريد وتجارة ، أما لبناني ففكرة بعيدة وعاطفة مشتعلة وكلمة علوية تهمسها الارض في أذن الفضاء



وجه أُمي وجه أُمتي — **لجبران خليل جبران**

هذه كلمات ولدت في قلب جبران . وعندنا انه يجب على كل سوري ان يتخذها دستوراً لامياله ومقاصده في هذه الايام المفعمة بالمرارة والشدائد

لبنانكم موظفون وعمال ومديرون ، أما لبناني فتأهب الشباب وعزم الكهولة وحكمة الشيخوخة ·

لبنانكم وفود ولجان ، أما لبناني فمجالس حول المواقد في ليالٍ تغمرها هيبة العواصف ويجللها طهر الثلوج

لبنانكم طوائف واحزاب ، اما لبناني فصبية يتسلقون الصخور و يركضون مع الجداول و يقذفون الأكر في الساحات

لبنانكم خطب ومحاضرات ومناقشات ، أما لبناني فتغريد الشحارير ، وحفيف أغصان الحور والسنديان ، ورجع صدى النايات في المغاور والكهوف

لبنانكم كذب يحتجب وراء نقاب من الذكاء المستعار ، ورياء يختبىء في رداء من التقليد والتصنع ، أما لبناني فحقيقة بسيطة عارية اذا نظرت في حوض ماء ما رأت غير وجهها الهادىء وملامحها المنبسطة

لبنانكم شرائع و بنود على اوراق ، وعقود وعهود في دفاتر ، أما لبناني ففطرة في اسرار الحياة وهي لا تعلم أنها تعلم ، وشوق يلامس في اليقظة اذيال الغيب و يظن نفسه في منام

لبنانكم شيخٌ قابض على لحيته ، قاطب ما بين عينيه ، ولا يفكر الا بذاته ، أما لبناني ففتى ينتصب كالبرج و يبتسم كالصباح ، و يشعر بسواه شعورَه بنفسه

لبنانكم ينفصل آناً عن سوريا و يتصل بها آونة ثم يحتال على طرفيه ليكون بين معقود ومحلول ، أما لبناني فلا يتصل ولا ينفصل ولا يتفوق ولا يتصاغر

لكم لبنانكم ، ولي لبناني

لكم لبنانكم وأبناؤه ، ولي لبناني وأبناؤه

ومن هم يا ترى أبناء لبنانكم ؟

ألا فانظروا هنيهة لاريكم حقيقتهم

هم الذين ولدت أرواحهم في مستشفيات الغربيين

هم الذين استيقظت عقولهم في حضن طامع يمثل دور أريحي

هم تلك القضبان اللينة التي تميل الى اليمين والى اليسار ولـكن بدون ارادة ، وترتعش في الصباح و في المساء ولـكنها لا تدري أنها ترتعش

هم تلك السفينة التي تصارع الامواج وهي بدون دفة ولا شراع ، أما ربانها فالتردد وأما ميناؤها فكهف تسكنه الغيلان — أوَ ليست كل عاصمة في أوروبا كهفاً للغيلان ؟

هم الاشداء الفصحاء البلغاء ولكن بعضهم لدى بعض ، والضعفاء الخرسان أمام الافرنج

هم الاحرار المصلحون المتحمسون ولكن في صحفهم وفوق منابرهم ، والمنقادون الرجعيون أمام الغربيين

هم الذين يضجون كالضفادع قائلين « لقد تملصنا من عدونا الطاغية القديم » وعدوهم القديم الطاغية ما برح يختبىء في اجسادهم

هم الذين يسيرون أمام الجنازة مزمرين راقصين حتى اذا ماالتقوا بموكب العرس تحول تزميرهم الى نواح ورقصهم الى قرع الصدور وشق الأثواب

هم الذين لا يعرفون المجاعة الا اذا كانت في جيوبهم فاذا ما التقوا بمن كانت مجاعته في روحه ضحكوا منه وتحولوا عنه قائلين « ماهذا سوى خيال يسير في عالم الاخيلة »

هم أولئك العبيد الذين تبدل الايام قيودهم المصدأة بقيود لامعة فيظنون أنهم أصبحوا احراراً مطلقين

هؤلاء هم أبناء لبنانكم فهل بينكم من يمثل العزم في صخور لبنان أم النبل في ارتفاعه أم العذوبة في مائه أم العطر في هوائه ! هل بينكم من يتجرأ أن يقول « اذا ماُمتُّ تركت وطني أفضل قليلاً مما وجدته عند ما ولدت » ! هل بينهم من يتجرأ أن يقول « لقد كانت حياتي قطرة من الدم في عروق لبنان أو دمعة بين أجفانه أو ابتسامة على ثغرهِ ؟ »

هؤلاء هم أبناء لبنانكم فما اكبرهم في عيونكم وما اصغرهم في عيوني

ولـكن قفوا قليلاً وانظروا لاريكم أبناء لبناني :

هم الفلاحون الذين يحولون الوعر الى حدائق وبساتين

هم الرعاة الذين يقودون قطعانهم من وادٍ الى وادٍ فتنمو وتتكاثر وتعطيكم لحومها غذاء وصوفها رداء

هم الكرامون الذين يعصرون العنب خمراً و يعقدون الخمر دبساً

هم الآباء الذين يربون أنصاب التوت والأمهات اللواتي يغزلن الحرير

هم الرجال الذين يحصدون الزرع والزوجات اللواتي يجمعن الاغمار

هم البناؤون والفخارون والحائكون وصانعو الاجراس والنواقيس

هم الشعراء الذين يسكبون أرواحهم في كؤوس جديدة وهم شعراء الفطرة الذين ينشدون العتابا والمعنّى والزجل

هم الذين يغادرون لبنان وليس لهم سوى حماسة في قلوبهم وعزم في سواعدهم و يعودون اليه وخيرات الارض في اكفهم وأكاليل الغار على رؤوسهم

هم الذين يتغلبون على محيطهم اينما حلوا ويجتذبون القلوب اليهم اينما وجدوا

وهم الذين يولدون في الاكواخ و يموتون في قصور العلم هؤلاء هم أبناء لبنان. هؤلاء هم السرج التي لا تطفئها الارياح والملح الذي لا تفسده الدهور. هؤلاء هم السائرون بأقدام ثابتة نحو الحقيقة والجمال والكمال

وماذا عسى ان يبقى من لبنانكم وأبناء لبنانكم بعد مئة سنة ؟ اخبروني — ماذا تتركون للغد سوى الدعوى والتلفيق والبلادة : هل تحسبون ان الزمن يحفظ في ذاكرته مظاهر الخداع والمداهنة والتدليس ؟

أتظنون ان الاثير يخزن في جيو به أشباح الموت وأنفاس القبور ؟ أتتوهمون أن الحياة تستر جسدها العاري بالخرق البالية ؟ أقول لكم والحق شاهد عليَّ إن نصبة الزيتون التي يغرسها القروي في سفح لبنان لأبقى من جميع أعمالكم وما تيكم ، والمحراث الخشبي الذي تجره العجول في منعطفات لبنان لأشرف وأنبل من كل امانيكم ومطامحكم. أقول لكم وضمير الوجود صاغٍ اليَّ ان أغنية جامعةِ البقول بين هضبات لبنان لأطول عمراً من كل ما يقوله أوجه وأضخم ثرثار بينكم. أقول لكم انكم لستم على شيء. ولو

كنتم تعلمون انكم لستم على شيء لتحول اشمئزازي منكم الى شكل من العطف والحنان ، ولكنكم لا تعلمون .

لكم لبنانكم ولي لبناني

لكم لبنانكم وأبناء لبنانكم فاقتنعوا به وبهم ان استطعتم الاقتناع بالفقاقيع الفارغة أما انا فمقتنع بلبناني وأبنائه وفي اقتناعي عذوبة وسكينة وطمأنينة

بالامس . واليوم . وغداً

قلت لصديقي — ألا فانظرها متكئة على ساعده . وبالامس كانت على ساعدي

فقال — وغداً على ساعدي

قلت — تأملها جالسة الى جانبه ، وبالامس كانت الى جانبي

فقال — وغداً الى جانبي

قلت — ألا تبصرها تشرب الخمر من كأسه ، وبالامس كانت ترشفها من كأسي

فقال — وغداً من كأسي

قلت — انظر اليها ترمقه بعين ملؤها الحب ، وبالامس كانت ترمقني

فقال — وغداً ترمقني .

قلت — اسمعها تهمس اغاني الغرام في اذنه ، وبالامس كانت تهمسها في اذني

فقال — وغداً في اذني

قلت — انظر فهي تعانقه وقد كانت بالامس تعانقني

فقال — وغداً تعانقني

قلت — ما أغربها امرأة

قال — هي كالحياة يمتلكها كل البشر . وكالموت تتغلب على كل البشر وكالابدية تضم كل البشر

الارض

تنبثق الارض من الارض كرهاً وقسراً .

ثم تسير الارض فوق الارض تيهاً وكبراً .

وتقيم الارض من الارض القصور والبروج والهيا كل

وتنشيء الارض في الارض الاساطير والتعاليم والشرائع

ثم تمل الارض اعمال الارض فتحوك من هالات الارض الاشباح والاوهام والاحلام

ثم يراود نعاس الارض اجفانَ الارض فتنام نوماً هادئاً عميقاً ابدياً

ثم تنــادي الارض قائلة للارض ، انا الرحم وانا القبر وسأبقى رحماً وقبراً حتى تضمحلّ الكواكب وتتحول الشمس الى رماد



الكمال

تسألني يا أخي أي متى يصير الانسان كاملاً

• فاسمع جوابي

يسير الانسان نحو الكمال عند ما يشعر بانه هو الفضاء ولا حد له ، وهو هو البحر بدون شواطىء ، وانه النار المتأججة دائماً ، والنور الساطع ابداً ، والارياح اذا هبت أو اذا سكنت ، والسحب اذا أبرقت وأرعدت وأمطرت ، والجداول اذا ترنمت او ناحت ، والاشجار اذا أزهرت في الربيع او تجردت في الخريف ، والجبال اذا تعالت ، والاودية اذا انخفضت ، والحقول اذا خصبت أو اجدبت .

اذا شعر الانسان بكل هذه الامور بلغ منتصف طريق الكمال . أما اذا شاء بلوغ محجة الكمال فعليه إن شعر بكيانه ، ان يشعر بانه الطفل المتكل على امه ، والشيخ المسؤول عن عياله ، والشاب الضائع بين امانيه وغرامه ، والكهل الذي يصارع ماضيه ومستقبله ، والعابد في صومعته ، والمجرم في سجنه ، والعالم بين كتبهِ وأوراقه ، والجاهل بين ظلمة ليله وظلمة نهاره ، والراهبة بين أزهار ايمانها وأشواك وحشتها ، والمومس بين انياب ضعفها ومخالب حاجتها ، والفقير بين مرارته وامتثاله ، والغني بين مطامعه واذعانه ، والشاعر بين ضباب امسائه وشعاع اسحاره

اذا استطاع الانسان ان يختبر ويعلم جميع هذه الامور يصل الى الكمال ويصير ظلاً من اظلال الله



الاستقلال والطرابيش

قرأت منذ أمد غير بعيد مقالاً لاديب قام يعترض ويحتج فيه على ربان وموظفي باخرة أفرنسية اقلته من سوريا الى مصر . ذلك لان هؤلاء قد أجبروه ، او حاولوا اجباره على خلع طربوشه اثناء جلوسه الى مائدة الطعام ، وكانا يعلم ان خلع القبعات تحت كل سقف عادة مرعية عند الغربيين .

ولقد أعجبني هذا الاحتجاج لانه أبان لي تمسك الشرقي برمز من رموز حياته الخاصة .

أعجبت بجرأة ذلك السوري كما أعجبت مرة بأمير هندي دعوته الى حضور رواية غنائية في مدينة ميلانو في ايطاليا فقال لي : « لو دعوتني الى زيارة جحيم دانتي لذهبت معك مسروراً ولكني لا أستطيع الجلوس في مكان يحذرون فيه عليّ استبقاء عمامتي وتدخين اللفائف »

اجل يعجبني ان أرى الشرقيّ متمسكاً ببعض مزاعمه قابضاً ولو على ظل من أظلال عادته القومية

ولكن اعجابي هذا لا ولن يمحو ما وراءه من الحقائق الخشنة المستتبة المتشبثة بذاتية الشرق ومنازع الشرق ومزاعم الشرق

لو فكر ذلك الاديب الذي استصعب خلع طربوشه في الباخرة الافرنجية بأن ذلك الطربوش الشريف قد صنع في معمل افرنجي لهان عليه خلعه في أي مكان ، في أية باخرة أفرنجية

لو فكر أديبنا بأن الاستقلال الشخصي في الامور الصغيرة كان وسيكون رهن الاستقلال الفني والاستقلال الصناعي ، وهما كبيران ، لخلع طربوشه ممتثلاً صامتاً .

لو فكر صاحبنا بأن الامة المستعبدة بروحها وعقليتها لا تستطيع ان تكون حرة بملابسها وعاداتها

لو فكر بذلك لما كتب مقاله معترضاً

لو فكر أديبنا بأن جذه للسوري كان يبحر الى مصر على ظهر مركب سوري مرتدياً ثوباً غزلته وحاكته وخاطته للأيدي السورية لما تردَّى بطلنا الحرّ الا بالملابس المصنوعة في بلاده ولما ركب سوى سفينة سورية ذات ربان سوري وبحارة سوريين

مصاب أديبنا الشجاع انه قد اعترض على النتائج ولم يحفل بالاسباب فتناولته الاعراض قبل ان يستميله الجوهر وهذا شأن أكثر الشرقيين الذين يأبون ان يكونوا شرقيين الا بتوافه الامور وصغائرها مع أنهم يفاخرون بما اقتبسوه من الغربيين مما ليس بتافهٍ أو صغير .

أقول لاديبنا واقول لجميع المتطربشين ، الا فاصنعوا طرابيشكم بيدكم ثم تخيروا في ما تفعلونه بطرابيشكم على ظهر الباخرة او على قمة الجبل أو في جوف الوادي

وتعلم السماء ان هذه الكلمة لم تكتب في الطرابيش او في شأن خلعها او استبقائها على الرؤوس تحت السقوف أو تحت المجرة . تعلم السماء انها كتبت في أمرٍ ابعد من كل طربوش . فوق كل رأس ، فوق كل جثة مختلجة .

رؤيا

عند ما جن الليل والقى الكرى رداءه على وجه الارض تركت مضجعي وسرت نحو البحر قائلاً في نفسي « البحر لاينام . وفي يقظة البحر تعزية لروحٍ لاتنام . »

بلغت الشاطىء وكان الضباب قد انحدر من اعالي الجبال وغمر تلك النواحي مثلما يوشي النقاب الرمادي وجه الصبية الحسناء . فوقفت محدقاً بجيوش الامواج ، مصغياً الى تهاليلها ، مفكراً السرمدية الكامنة وراءها — تلك القوى التي تركض مع العواصف وتثور مع البراكين وتبتسم بثغور الورود وتترنم مع الجداول .

وبعد هنيهة التفتُّ فاذا بثلاثة اشباح جالسين على صخر قريب واغشية الضباب تسترهم ولا تسترهم . فمشيت نحوهم ببطءٍ كأن في كيانهم جاذباً يستميلني قسر ارادتي

ولما صرت على بعد بضع خطوات منهم وقفت شاخصاً بهم كأن في المكان سحراً أجمد مابي من العزم وايقظ مافي روحي من الخيال .

في تلك الدقيقة وقف احد الاشباح الثلاثة و بصوت خلته آتياً من اعماق البحر قال

— « الحياة بغير الحب كشجرة بغير ازهار ولا اثمار . والحب بغير الجمال كازهار بغير عطر . واثمار بغير بذور . . . الحياة والحب والجمال — ثلاثة اقانيم في ذات واحدة مستقلة ، مطلقة لاتقبل التغيير ولا الانفصال . » قال هذا وجلس في مكانه

ثم انتصب الشبح الثاني و بصوت يماثل هدير مياه غزيرة قال

— « الحياة بغير تمرد كالفصول بغير ربيع في الصحراء القاحلة الجرداء ... الحياة والتمرد والحق — ثلاثة اقانيم في ذات واحدة لاتقبل الانفصال ولا التغير . »

ثم انتصب الشبح الثالث . و بصوت كقصف الرعد قال

— الحياة بغير الحرية كجسم بغير روح . والحرية بغير الفكر كالروح المشوشة . . . الحياة والحرية والفكر — ثلاثة اقانيم في ذات واحدة ازلية لاتزول ولا تضمحل . »

ثم وقف الاشباح الثلاثة . و باصوات هائلة قالوا معاً

— « الحب وما يولده . والتمرد وما يوجده . والحرية وما تنميه — ثلاثة مظاهر من مظاهر الله . والله ضمير العالم العاقل . »

وحدث اذ ذاك سكوت مفعم بحفيف اجنحة غير منظورة وارتعاش اجسام اثيرية . فاغمضت عينيَّ مصغياً الى صدى الاقوال التي سمعتهـا . ولما فتحتهما ونظرت ثانيـة لم أرَ غير البحر متشحاً بدثار الضباب فاقتربت من الصخرة حيث كان الاشباح جالسين فلم أرَ الا عموداً من البخور متصاعداً نحو السماء .

ما وراء الرداء

عند ما انتصف الليل فتحت راحيل عينيها وحدقت هنيهة بسقف الغرفة ثم أغمضتهما وتنهدت تنهدة عميقة متقطعة ، و بصوت يكاد ان يكون لهاثاً قالت —

« ها قد بلغ الصباح أطراف الوادي ، فلنذهب الى لقائه »

فاقترب اذ ذاك الكاهن من مضجعها وجس يدها فوجدها باردة كالثلج ثم وضع اصابعه بلطف فوق قلبها فألفاه ساكناً كالدهور ، فحنى رأسه وارتعشت شفتاه كأنه يريد أن يلفظ كلمة علوية ترددها اشباح الليل في تلك الاودية القاصية الخالية . ثم صلب ذراعيها فوق صدرها والتفت نحو الرجل الجالس في قرنة مظلمة من تلك الغرفة وقال بصوت ملوءه الشفقة والانعطاف —

« قد ذهبت زوجتك الى لقاء ربها . فقم ، يا اخي ، واركع بجانبي لنصلي . »

فرفع الرجل رأسه وقد تغيرت ملامحه وكبرت عيناه كأنه رأى في فضاء الغرفة ظل اله غير معروف . ثم وقف بهدوء وتقدم من مضجع زوجته وركع بجانب الكاهن مصلياً ، منتحباً ، راسماً بين الآونة والاخرى اشارة الصليب على وجهه وصدره .

وانتصب الكاهن واضعاً يده على كتف الرجل قائلاً —

« قم ، يا اخي ! تعالَ الى الغرفة الثانية . فانت بحاجة الى النوم والراحة »

فلم يبدِ الرجل معارضة ، بل وقف وسار الى الغرفة المحاذية ورمى بنفسه على سرير ضيق ممدداً جسده شأن من ينهكه الهم والسهر والانتظار

ولم تمر بضع دقائق حتى غلب النوم اجفانه فرقد كطفل بين ذراعي امه

* * *

اما الكاهن فظل منتصباً كالتمثال في وسط تلك الغرفة ينظر بعينين غارقتين بالدموع نحو جثة الصبية الباردة و يلتفت كل دقيقة نحو زوجها النائم في الغرفة المحاذية

ومرت ساعة اطول من الدهر واشد هولاً من الموت والكاهن واقف بين رجل

وامرأة راقدين — رجل راقد رقود حقل يحلم بمجيء الربيع ، وامرأة راقدة مع الازمنة الغابرة تحلم احلام الابدية

حينئذٍ اقترب الكاهن من مضجع الصبية وجثا امامها كما يجثو امام المذبح ، ثم أخذ يدها الباردة ووضعها على شفتيه المرتجفتين ونظر الى وجهها المتشح بنقاب الموت وبصوت هادىء كالليل عميق كالبحر مرتعش كآمال البشر قال —

« يا راحيل ، يا راحيل ، يا اخت روحي ، اسمعيني يا راحيل فانا استطيع الآن الكلام . قد فتح الموت شفتيَّ لابوح لك بسر أعمق من الموت ، واطبق الالم لساني لا كشف لك أمراً اشد من الالم . اسمعي صراخ روحي ايتها الروح المرفرفة بين الارض واللانهاية . اسمعي الشاب الذي كان يراك راجعة من الحقل فيتنحى محتجباً بين الاشجار خائفاً من جمال وجهك . اسمعي الكاهن الذي يخدم الله فهو يناديك الآن بلا وجلٍ لانك بلغت مدينة الله »

همس هذه الالفاظ ثم انحنى فوقها وقبل جبهتها وقبل عينيها وقبل عنقها — قبلات طويلة ، حارة ، خرساء ، علوية ، تبين ما في نفسه من اسرار الحب والالم .

ثم تراجع فجأة الى الوراء وارتمى على الارض مرتعشاً كاوراق الخريف كأن ملامسة وجه المرأة المثلجة قد ايقظت في داخله عاطفة الندم ثم انتصب جاثياً ساتراً وجهه بيديه قائلاً في سره —

« اغفر ذنبي ، يا رب ! سامح ضعفي ، يا الهي ! فانا لم اتجلد حتى النهاية فالسر الذي اخفته الحياة في قلبي سبعة اعوام قد اباحه الموت بدقيقة واحدة . اغفر لي يا رب سامح ضعفي يا الهي . . . . »

وظل على هذه الحالة ينتحب ويتوجع ويميل برأسه ذات اليمين وذات اليسار ولا ينظر الى جثة الصبية خائفاً على نفسه من خفايا نفسه حتى جاء الصباح والقى وشاحه الوردي على تلك الرسوم الهيولية التي تمثل الحب والدين والحياة والموت .

بين ليل وصباح

قصيدة منثورة

اسكت ياقلبي فالفضاء لا يسمعك .

اسكت ياقلبي فالأثير المثقل بالنواح والعويل لن يحمل أغانيك وأناشيدك .

اسكت فاشباح الليل لا تحفل بهمس أسرارك ، ومواكب الظلام لا تقف امام أحلامك

اسكت ياقلبي ، اسكت حتى الصباح ، فمن يترقب الصباح صابراً يلاقِ الصباح قوياً ومن يهوَ النور فالنور يهواه .

اسكت ياقلبي واسمعني متكلماً :

في الحلم رأيت شحروراً يغرد فوق فوهة بركان ثائر .

ورأيت زنبقة ترفع رأسها فوق الثلوج .

ورأيت حورية عارية ترقص بين القبور .

ورأيت طفلاً يلعب بالجماجم وهو يضحك .

رأيت جميع هذه الصور في الحلم ولما استيقظت ونظرت حولي رأيت البركان هائجاً ولكنني لم اسمع الشحرور مغرداً ولا رأيته مرفرفاً .

ورأيت الفضاء ينثر الثلوج على الحقول والاودية ، ساتراً بأكفانه البيضاء أجسام الزنابق الهامدة .

ورأيت القبور صفوفاً منتصبة امام سكينة الدهور وليس بينها من يتمايل راقصاً ولا من يجثو مصلياً .

ورأيت رابية من الجماجم وليس هناك من ضاحك سوى الريح .

في اليقظة رأيت الحزن والاسى فأين ذهبت أفراح الحلم ومسراته ؟

انّى توارت بهجة المنام وكيف اضمحلت رسومه ؟

وكيف تتجلد النفس حتى يعيد النوم أشباح أمانيها وآمالها ؟
اصغِ ياقلبي واسمعني متكلماً :

كانت نفسي بالامس شجرة مسنة قوية تمتد عروقها الى أعماق الارض وتتعالى غصونها نحو اللانهاية .

ولقد أزهرت نفسي في الربيع وأثمرت في الصيف ، ولما جاء الخريف جمعت أثمارها في اطباق من الفضة ووضعتها على قارعة الطريق فكان العابرون يتناولون منها ويأكلون ثم يسيرون في سبيلهم .

ولما انقضى الخريف وتحولت تهاليله الى الندب والولولة نظرت فلم أرَ في اطباقي سوى ثمرة واحدة أبقاها الناس لي ، فتناولتها وأكلت فلقيتها مرة كالعلقم حامضة كالحصرم ، فقلت لنفسي : « ويحي لقد وضعت في افواه الناس لعنةً وفي أجوافهم عداءً ، فماذا تُرى فعلتِ يا نفسي بالحلاوة التي امتصتها عروقك من أحشاء الارض وبالاريج الذي تشربته قضبانك من نور الشمس ؟ »

بعد ذلك اقتلعتُ شجرة نفسي القوية المسنة .
اقتلعتها بعروقها من التربة التي نمت فيها وترعرعت .
اقتلعتها من ماضيها ونزعت عنها ذكرى الف ربيع والف خريف
وعدت فزرعت شجرة نفسي في مكان آخر .

زرعتها في حقل بعيد عن سبل الزمن . وكنت أسهر بجانبها قائلاً : ان السهر يدنينا من النجوم ، وكنت اسقيها دمي ودموعي قائلاً : ان في الدم نكهة وفي الدموع حلاوة .

ولما عاد الربيع ازهرت نفسي ثانية ، وفي الصيف أثمرت ، ولما جاء الخريف جمعت ثمارها الناضجة في أطباق من الذهب ووضعتها على ملتقى السبل . فمرّ الناس أفراداً وجماعات ولكن لم يمد احد يده ليتناول منها .

فأخذت اذ ذاك ثمرة وأكلت فوجدتها حلوة كالشهد ، لذيذة كالكوثر ، عطرة كانفاس الياسمين ، طيبة كالخمرة البابلية ، فصرخت قائلاً : « ان النّاس لايريدون البركة في أفواههم ولا الحق في أجوافهم لان البركة ابنة الدموع والحق ابن الدماء . »

ثم عدت وجلست في ظلال شجرة نفسي المنفردة في حقل بعيد عن سبل الزمن .

* * *

اسكت يا قلبي حتى الصباح .

اسكت فالفضاء قد اتخمته رائحة الاشلاء فلن يتشرب انفاسك .

اصغ يا قلبي واسمعني متكلماً :

كانت بالامس فكرتي سفينة تتقلب بين أمواج البحار وتتنقل مع الاهواء من شاطىء الى شاطىء

وقد كانت سفينة فكرتي خالية الا من سبعة أكواب طافحة بألوان مختلفة تشابه ألوان قوس قزح بنضارتها

وجاء زمن مللت فيه التنقل على وجه البحار فقلت سأعود بسفينة فكرتي الفارغة الى ميناء البلد الذي ولدت فيه .

ثم أخذت أطلي جوانب سفينتي بألوان ، صفراء كشمس المغيب ، وخضراء كقلب الربيع ، وزرقاء ككبد السماء ، وحمراء كذوب الشقيق ، وأرسم على شراعها ودفتها رسوماً غريبة تجذب العين وتبهج البصيرة .

ولما انتهيت من عملي وقد ظهرت سفينة فكرتي كرؤيا نبي تطوف بين اللانهايتين ، البحر والسماء ، دخلت بها ميناء بلدي فخرج الناس لملاقاتي بالتهليل والتعظيم وأدخلوني المدينة ضارباً بين الدفوف نافخين الزمور .

فعلوا ذلك لان خارج سفينتي كان مزخرفاً بهجاً .

ولم يسأل احد ماذا جلبت فيها من وراء البحار .

ولم يدرِ احد اني عدت بها فارغةً الى الميناء .

عند ذلك قلت في سري : « لقد ضللت الناس و بسبعة اكواب من الالوان قد كذبت على باصرتهم و بصائرهم . »

وبعد عام ركبت سفينة فكرتي وأبحرت ثانية .

سرت الى جزر الشرق فجمعت منها المرّ واللبان والصندل وأدخلتها الى سفينتي .
والى جزر الجنوب فجلبت منها التبر والعاج والياقوت والزمرّد وجميع الحجارة الكريمة .
والى جزر الشمال فعدت منها بالخز والوشي والبرفير .
والى جزر الغرب فحملت منها الدروع المزردة والسيوف العسالة والرماح السمهرية .
وسائر انواع الاسلحة .

ملأت سفينة فكرتي بنفائس الارض وغرائبها وعدت الى ميناء بلدي قائلاً :
« سوف يمجدني قومي ولكن عن جدارة ، وسيدخلونني المدينة منشدين مزمرين ولكن عن استحقاق . »

ولكن لما بلغت الميناء لم يخرج أحد لملاقاتي .
ودخلت شوارع بلدي فلم يلتفت اليَّ أحدٌ

ووقفت في ساحتها معلناً للناس ما جلبت لهم من ثمار الارض وطرائفها فكانوا ينظرون اليَّ والضحك ملءُ أفواههم والسخرية على وجوههم ثم يتحولون عني .

فعدت الى الميناء كئيباً مستغرباً ، ولكنني مالمحت سفينتي حتى فطنت لامر كنت مشغولاً عنه بمنازع أسفاري ورغائبها ، فهتفتُ قائلاً : « ان أمواج البحار قد محت الطلاء عن جوانب سفينتي فبانت كهيكل من عظام ، وعفت الارياح والانواءُ وحرارة الشمس الرسوم عن شراعها فظهرت كأثواب رمادية بالية .

لقد جمعت طرائف الارض ونفائسها في تابوت يعوم على وجه الماء وعدت الى قومي فنبذوني لان عيونهم لا ترى سوى المظاهر الخارجية .

في تلك الساعة تركت سفينة فكرتي وذهبت الى مدينة الاموات وجلست بين القبور المكلسة مفكراً باسرارها .

* * *

اسكت يا قلبي حتى الصباح . اسكت فالعاصفة الهوجاء تسخر بهمس اعماقك ، وكهوف الوادي لن ترجع بصداها رنات اوتارك .



الحسن بن هاني الملقب « بابي نواس »   لجبران خليل جبران

اسكت يا قلبي حتى الصباح فمن يترقب الصباح متجلداً يعانقه الصباح مشتاقاً .

ها قد طلع الفجر يا قلبي فتكلم ان كنت تستطيع الكلام .

هو ذا موكب الصباح يا قلبي فهل ابقى سكوت الليل في اعماقك أغنيةً تلاقي بها الصباح ؟

هو ذا اسراب الحمام والشحارير تتطاير متنقلة في اطراف الوادي فهل ابقى هول الليل في جنحيك صلابة لتطير معها ؟

هو ذا الرعيان يسيرون امام قطعانهم من الحظائر والمرابض فهل ابقت لك اشباح الليل عزماً لتسير وراءها الى المروج الخضراء ؟

هو ذا الفتيان والصبيان يمشون الهوينا نحو الكروم فهلا نهضت ومشيت معهم ؟

قم يا قلبي ؟ قم وسر مع الفجر فالليل قد مضى ومخاوف الليل قد اضمحلت مع احلامه السوداء .

قم يا قلبي وارفع صوتك مترنماً فمن لا يشارك الصبح باغانيه كان من ابناء الظلام .



السم في الدسم

في صباح يوم من أيام الخريف الذهبية التي تُظهر شمال لبنان بكل مظاهره العلوية اجتمع سكان قرية « تولا » حول الكنيسة القائمة في وسط منازلهم يتساءلون و يتبادلون الاراء في سفر فارس الرحال الفجائي الى مكان قصي لا يعلم به غير الله تاركاً عروسته الصبية التي تزوج بها منذ ستة أشهر

كان فارس الرحال شيخ القرية وزعيمها ، وقد ورث هذه المنزلة عن أبيه وجده . ومع انه لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره فقد كان في شخصيته ما يوعز الاحترام والوقار في قلوب مواطنيه . وعند ما اقترن في اواسط الربيع الغابر بسوسان بركات قال الناس — ما اسعده فتًى ! فهو قد حصل قبل ان يبلغ الثلاثين على كل ما يتمناه الانسان من السعادة في الحياة الدنيا .

ولكن في ذلك الصباح عند ما استيقظ سكان تولا وقيل لهم ان الشيخ فارس قد جمع ما تيسر له من المال وركب فرسه وغادر القرية دون ان يودع نسيباً اوصديقاً تعاظمت ظنونهم واخذوا يتساءلون عن الاسباب الخفية التي جعلته يتركهم و يترك عروسته ومنزله وحقوله وكرومه

ان الحياة في شمال لبنان اقرب الى الاشتراكية منها الى كل تعليم آخر ، فالقوم هناك يتساهمون افراح الوجود وشدائده مدفوعين باميال فطرية وضعية . فاذا ما جاءت الايام بحادث الى قرية ينصرف سكانها بكليتهم الى استقصاء ذلك الحادث حتى تجيء الايام اليهم بامر آخر

تلك هي العوامل التي صرفت سكان تولا عن اعمالهم اليومية فاجتمعوا حول كنيسة مارتولا يتحدثون و يتساءلون و يتبادلون الاراء بسفر فارس الرحال .

و بينما هم على هذه الحالة واذا بالخوري اسطفان كاهن القرية يقترب منهم منحني الرأس منقبض الملامح . فدنوا منه مستطلعين فظل ساكتاً يفرك يداً بيد و بعد هنيهة قال :

— لا تسألوني . لا تسألوني . كل ما أعرفه يا ابنائي هو هـذا . قرع فارس باب منزلي قبل طلوع الفجر ولما فتحت له وجدته متمسكاً بقود فرسه وعلى وجهه امارات الحزن الشديد . فسألته مستغرباً عما يريد فقال « جئت لاودعك يا ابتِ ، فانا مسافر الى ما وراء البحار ولن اعود الى هذه البلاد وانا حي » ثم وضع في يدي رسالة مختومة باسم صديقه نجيب مالك وطلب اليَّ ان اسلمها اليه يداً بيد . فعل هذا واعتلى فرسه وراح مسرعاً قبل ان استوضح أمره . هذا كل ما اعرفه ، فلا تسألوني الزيادة .

فقال أحد الواقفين

— لا شك ان في الرسالة ما ينبئنا عن سبب سفره لان نجيب مالك كان أعز صديق له في القرية

وقال آخر

— وهل رأيت عروسته يا ابتاه ؟

فاجاب الكاهن

قد زرتها بعد صلاة الصباح فوجدتها جالسة بقرب النافذة تنظر الى البعيد بعينين زجاجيتين كأنها فقدت أدراكها ولما سألتها هزَّت رأسها وقالت « لا أدري . لا أدري . » ثم طفقت تبكي وتنتحب كالاطفال .

ولم ينتهِ الكاهن من كلامه الا وذعر القوم حوله لطلق بندقيـة جاء من الوجهة الشرقية من القرية . ثم تبعه صراخ امرأة جارح ارتعشت له دقائق الفضـاء . فبهت القرويون دقيقـة ثم تراكضوا نساءً ورجالاً وعلى وجه كل واحد منهم برقع من الخوف والتشاؤم . ولما بلغوا البستان الذي يحيط بمنزل فارس الرحال شاهدوا هناك منظراً أجمد الدم في عروقهم والفكرة في رؤوسهم ، رأوا نجيب مالك منطرحاً على التراب والنجيع يتدفق من امعائه . وعلى مقربة منه سوسان زوجة فارس الرحال تنبش شعرها وتمزق أثوابها وتصرخ متوجعة — « قد قتل نفسه . قد أطلق البندقية في صدره . »

فبهت القوم كأن أ كف القضاء غير المنظورة قد قبضت على أرواحهم . ولما اقترب الكاهن من الصريع وجد في يمينه الرسالة التي كان قد سلمه اياها في ذلك

الصباح . وقد قبض عليها بشدة كأنه يريد ان يجعلها جزءاً من اصابعه . فتناولها الكاهن ووضعها في جيبه دون ان يراه أحد ثم تراجع الى الوراء لاطماً وجهه .

وحمل القوم جثة المنتحر الى بيت والدته المسكينة التي لم ترَ جثة وحيدها حتى فقدت عقلها .

واهتمَّ بعض النساء بزوجة فارس الرحال فاقتادوها الى منزلها بين حية وميتة .

ولما بلغ الخوري اسطفان منزله أوصد الباب ووضع النظارات على عينيه منتشلاً الرسالة التي وجدها في يد نجيب مالك و بصوت مرتعش أخذ يقرأ :

« أخي نجيب

أنا تارك هذه القرية لان وجودي فيها يجلب التعاسة لك ولزوجتي ولي أيضاً . أنا أعلم بأنك شريف النفس تترفع عن خيانة صديقك وجارك ، وأعلم ان زوجتي سوسان طاهرة الذيل ، ولكنني اعلم في الوقت نفسه ان الحب الذي يضم قلبك وقلبها هو أمر فوق ارادتكما . فأنت لا تستطيع ازالته كما انت لا تقدر ان توقف مجاري نهر قاديشا . لقد كنت صديقاً لي يا نجيب مذ كنا صبيين نلعب في الحقول وفي ساحة الكنيسة . وأنت لم تزل صديقي امام الله . وأرجوك ان تفتكر بي في المستقبل مثلما كنت تفتكر بي في الماضي . واذا التقيت بسوسان غداً أو بعده فقل لها اني أحبها وارحمها . وقل لها أيضاً اني كنت أذوب شفقة عندما كنت استيقظ في سكينة الليل وأراها راكعة امام صورة يسوع تبكي وتنتحب وتجلد صدرها . ليس أصعب من حياة المرأة التي تجد نفسها واقفة بين رجل يحبها ورجل تحبه . وسوسان المسكينة كانت في حرب دائمة . كانت تريد ان تقوم بواجباتها الزوجية ولكنها لم تكن قادرة على قتل عواطفها . أما انا فسأسافر الى مكان بعيد ولن أعود الى هذه الديار لاني لا أريد ان أكون حجر عثرة في سبيل سعادتكما . وفي الختام أرجوك يا أخي أن تبقى مخلصاً لسوسان وان تحافظ عليها حتى النهاية لانها قد ضحت بكل شيء من أجلك . فهي تستحق كل ما يستطيع

الرجل ان يقدم للمرأة . ابقَ يا نجيب كما عهدتك شريف القلب كبير النفس والله يحفظك

لاخيك

فارس الرحال

ولما انتهى الخوري اسطفان من قراءة الرسالة طواها واعادها الى جيبه وجلس بقرب النافذة ينظر الى الوادي البعيد وعلى وجهه المتجعد امارات التفكر العميق

ولكن لم تمر دقيقة حتى انتصب فجأة على قدميه كأنه وجد بين ثنايا افكاره سرّاً دقيقاً هائلاً محجوباً بالظواهر ملتفاً بالسطحيات . فهتف صارخاً — ما أكثر دهاءك يا فارس الرحال . فقد عرفت كيف تقتل ابن مالك وتبقى بريئاً من دمه . قد بعثت اليه بالسم ممزوجاً بالعسل . قد بعثت اليه بالسيف ملتفاً بالحرير . قد بعثت اليه بالموت طي الرسالة . فعندماصوَّب بندقيته الى صدره كانت يدك قابضة على يده وارادتك محيطة بارادته . . . أواه ما أكثر دهاءك يا فارس الرحال . . . .

وعاد الخوري بولس فجلس على المقعد هازاً رأسه ممشطاً لحيته بأصابعه مبتسماً ابتسامات ذات معانٍ أشد هولاً من المأساة . وبعد هنيهة تناول كتاباً من خزانة قريبة وأخذ يتلو بعض موشحات القديس افرام السرياني وهو يرفع عينيه بين الآونة والاخرى ليسمع صراخ النساء آتياً من قلب القرية



على باب الهيكل

اقدمها الى (م م)

قد طهرتُ شفتيَّ بالنار المقدسة لاتكلم عن الحب ولمـا فتحت شفتيَّ للكلام وجدتني اخرسَ

كنت اترنم باغاني الحب قبل ان اعرفه ولما عرفتهُ تحولت الالفاظ في فمي الى لهاث ضئيل ، والانغام في صدري الى سكينة عميقة .

وكنتم أيها الناس فيما مضى تسألونني عن غرائب الحب وعجائبه ، فكنت احدثكم واقنعكم ، اما الآن ، وقد غمرني الحب بوشاحه ، فجئت بدوري اسألكم عن مسالكه ومزاياه فهل بينكم من يجيبني ؟ جئت اسألكم عما بي واستخبركم عن نفسي فهل بينكم من يستطيع ان يبين قلبي لقلبي ويوضح ذاتي لذاتي ؟

ألا فاخبروني ما هذه الشعلة التي تتقد في صدري وتلتهم قواي وتذيب عواطفي واميالي ؟

وما هذه الايدي الخفية الناعمة الخشنة التي تقبض على روحي في ساعات الوحدة والانفراد وتسكب في كبدي خمرة ممزوجةً بمرارة اللذة وحلاوة الاوجاع ؟

وما هذه الاجنحة التي ترفرف حول مضجعي في سكينة الليل فاسهر مترقباً ما لااعرفه مصغياً الى مالا اسمعه ، محدقاً بما لااراه ، مفكراً بما لاافهمه ، شاعراً بما لاادركه ، متاوهاً لان في التأوه غصات أحبَّ لدي من رنة الضحك والابتهاج ، مستسلماً الى قوة غير منظورة تميتني وتحييني ثم تميتني وتحييني حتى يطلع الفجر ويملأ زوايا غرفتي فانام اذ ذاك وبين اجفاني الذابلة ترتعش اشباح اليقظة وعلى فراشي الحجري تتمايل خيالات الاحلام

* * *

وما هذا الذي ندعوه حباً ؟

اخبروني ما هذا السر الخفي الكامن خلف الدهور المختبىء وراء المرئيات الساكن في ضمير الوجود ؟

ما هذه الفكرة المطلقة التي تجيء سبباً لجميع النتائج وتأتي نتيجةً لجميع الاسباب ؟

ماهذه اليقظة التي تتناول الموت والحياة وتبتدع منهما حلماً أغرب من الحياة وأعمق من الموت ؟

اخبروني أيها الناس — اخبروني هل بينكم من لايستيقظ من رقـدة الحياة اذا ما لمس الحبُّ روحه باطراف اصابعه ؟

هل بينكم من لايترك أباه وأمه ويسقط رأسه عند ماتناديه الصبية التي احبها قلبه ؟

هل فيكم من لايمخر البحر ويقطع الصحاري ويجتاز الجبال والاودية ليلتقي بالمرأة التي اختارتها روحه ؟

ايُّ فتى لايتبع قلبه الى اقاصي الارض اذا كان له في اقاصي الارض حبيبة يستطيب نكهة انفاسها و يستلطف ملامس يديها و يستعذب رنة صوتها ؟

ايُّ بشريّ لايحرق نفسه بخوراً امام إله يسمع ابتهاله و يستجيب صلواتهِ ؟

* * *

وقفت بالامس على باب الهيكل اسأل العابرين عن خفايا الحب ومزاياه

فمرَّ امامي كهل مهزول القامة كاسف الوجه وقال متأوهاً « الحب ضعف فطري ورثناه عن الانسان الاول »

ومرَّ فتى قوي الجسم مفتول الساعدين وقال مترنماً « الحب عزمٌ يلازم كياننا و يصل حاضرنا بماضي الاجيال ومستقبلها »

ومرّت امرأة كئيبة العينين وقالت متنهدةً « الحب سمٌّ قتال تتنفسه الافاعي السوداء المتقلبة في كهوف الجحيم فيسيل منتشراً في الفضاء ثم يهبط مغلفاً بقطرات الندى فترتشفه الارواح الظامئة فتسكر دقيقة ثم تصحو عاماً ثم تموت دهراً »

ومرّت صبيةٌ موردة الوجنتين وقالت مبتسمة « الحب كوثر تسكبه عرائس الفجر في الارواح القوية فيجعلها تتعالى متمجدة امام كوكب الليل وتسبح مترنمـة امام شمس النهار »

ومرَّ رجل ذو ملابس سوداء ولحية مسترسلة وقال عابساً « الحب جهالة عمياء تبتدئ ببدء الشباب وتنتهي بنهايته »

ومرّ رجل ذو وجه صبوح وملامح منفرجة وقال فرحاً « الحب معرفة علوية تنير بصائرنا فنرى الاشياء كما يراها الآلهة »

ومرّ اعمى يجس الارض بعكازه وقال منتحباً « الحب ضباب كثيف يكتنف النفس من كل ناحية ويحجب عنها رسوم الوجود ويجعلها لا ترى سوى اشباح اميالها مرتعشة بين الصخور ولا تسمع غير صدى صراخها آتياً من خلايا الوادي »

ومرّ شاب يحمل قيثارة وقال منغماً « الحب شعاع سحري ينبثق من اعماق الذات الحساسة وينير جنباتها فترى العالم موكباً سائراً في مروج خضراء والحياة حلماً جميلاً منتصباً بين اليقظة واليقظة »

ومرَّ هَرِمٌ منحني الظهر يجر قدميه كأنهما خرقتان وقال مرتعشاً « الحب راحة الجسم في سكينة القبر وسلامة النفس في اعماق الابدية »

ومرَّ طفلٌ ابن خمس وهتف ضاحكاً « الحب أبي والحب أمي ولا يعرف الحب سوى أبي وأمي »

* * *

وانقضى النهار والناس يمرون امام الهيكل وكلٌ يصوّر نفسه متكلماً عن الحب بامانيه معلناً سر الحياة .

ولما جاء المساء وسكنت حركة العابرين سمعت صوتاً آتياً من داخل الهيكل يقول « الحياة نصفين نصفٌ متجلد ونصفٌ ملتهب فالحب هو النصف الملتهب »

فدخلت الهيكل اذ ذاك وسجدت راكعاً مبتهلاً مصلياً هاتفاً « اجعلني يا رب طعاماً للهيب — اجعلني أيها الاله ماكلاً للنار المقدسة . آمين »

قبل الانتحار

صفحة مطوية من دفاتر حفار القبور القديمة

في هذه الغرفة المنفردة الهادئة قد جلست بالامس المرأة التي أحبها قلبي .

الى هذه المساند الوردية الناعمة قد القت رأسها الجميل ، ومن هذه الكأس البلورية قد شربت جرعةً من الخمر ممزوجة بقطرة من العطر .

كل ذلك قد كان بالامس والامس حلم لا يعود ، اما اليوم فقد ذهبت المرأة التي أحبها قلبي الى ارض بعيدة خالية مقفرة باردة تدعى بلاد الخلوة والنسيان .

ان آثار أصابع المرأة التي أحبها قلبي لم تزل ظاهرة على بلور مرآتي ، وعطر أنفاسها ما برح متضوعاً بين طيات أثوابي ، وصدى صوتها لم يضمحل بعد من زوايا منزلي — المرأة التي أحبها قلبي — قد رحلت الى مكان قصيّ يدعى وادي الهجر والسلوان ، اما آثار أصابعها وعطر لهاثها وأشباح روحها فستبقى في هذه الغرفة حتى صباح الغد وعند ذلك افتح نوافذ منزلي لتدخل امواج الهواء وتجرف بتيارها كل ما تركته لي تلك الساحرة الحسناء .

ان رسم المرأة التي أحبها قلبي لم يزل معلقاً بجانب مضجعي ، و رسائل الحب التي بعثت بها اليّ ما برحت في العلبة الفضية المرصعة بالعقيق والمرجان وذؤابة الشعر الذهبية التي حبتني بها تذكاراً لم تخرج قط من الغلاف الحريري المبطن بالمسك والبخور — جميع هذه الاشياء ستبقى في اماكنها حتى الصباح — وعند ما يجيء الصباح افتح نوافذ منزلي ليدخل الهواء ويحملها الى ظلمة العدم — الى حيث تقطن السكينة الخرساء .

ان المرأة التي أحبها قلبي شبيهة بالنساء اللواتي احببتهن قلوبكم أيها الفتيان . هي مخلوقة عجيبة صنعتها الالهة من وداعة الحمامة وتقلبات الافعى وتيه الطاووس وشراسة الذئب وجمال الوردة البيضاء وهول الليلة السوداء مع قبضة من الرماد وغرفة من زبد البحر .

وقد عرفت المرأة التي أحبها قلبي ايام الطفولية فكنت اركض وراءها في الحقول واتمسك باذيالها في الشوارع .

وعرفتها أيام الصبا فكنت أرى خيال وجهها في وجوه الكتب والاسفار واشاهد خطوط قامتها بين غيوم المساء واسمع نغمة صوتها متصاعدة مع خرير السواقي .

وعرفتها أيام الرجولية فكنت أجالسها محدثاً واسألها مستفتياً واقترب منها شاكياً ما في قلبي من الاوجاع باسطاً ما في روحي من الاسرار .

كل ذلك كان بالامس والامس حلم لا يعود اما اليوم فقد ذهبت تلك المرأة الى رض بعيدة خالية مقفرة باردة تدعى بلاد الخلو والنسيان .

* * *

اما اسم المرأة التي أحبها قلبي فهو الحياة .

فالحياة امرأة ساحرة حسناء تستهوي قلوبنا ، وتستغوي أرواحنا ، وتغمر وجداننا بالوعود ، فان أمطلت اماتت فينا الصبر وان أبرت أيقظت فينا الملل .

الحياة امرأة تستحم بدموع عشاقها وتتعطر بدماء قتلاها .

الحياة امرأة ترتدي بالايام البيضاء المبطنة بالليالي السوداء .

الحياة امرأة ترضى بالقلب البشري خليلاً وتأباه حليلاً .

الحياة امرأة عاهرة ولكنها جميلة ومن يرَ عهرها يكره جما لها .

البنفسجة الطموحة

كانت في حديقة منفردة بنفسجة جميلة الثنايا ، طيبة العرف تعيش مقتنعة بين أترابها وتتمايل فرحة بين قامات الاعشاب .

ففي صباح ، وقد تكاللت بقطر الندى ، رفعت رأسها ونظرت حوالها فرأت وردة تتطاول نحو العلاء بقامة هيفاء ورأس يتسامى متشامخاً كأنه شعلة من النار فوق مسرجة من الزمرد .

ففتحت البنفسجة ثغرها الازرق وقالت متنهدة — « ما أقل حظي بين الرياحين ، وما أوضع مقامي بين الازهار . فقد ابتدعتني الطبيعة صغيرة ، حقيرة ، اعيش ملتصقة باديم الارض ولا استطيع ان أرفع قامتي نحو ازرقاق السماء أو أحول وجهي نحو الشمس مثلما تفعل الورود »

وسمعت الوردة ما قالته جارتها البنفسجة فاهتزت ضاحكة ثم قالت — «ما أغباك بين الازهار ، فانت في نعمة تجهلين قيمتها . فقد وهبت لك الطبيعة من الطيب والظرف والجمال ما لم تهبه لكثير من الرياحين . فخلي عنك هذه الميول العوجاء والاماني الشريرة وكوني قنوعة بما قسم لك واعلمي ان من خفض جناحه يرفع قدره ، وان من طلب المزيد وقع في النقصان » فاجابت البنفسجة قائلة

— « انت تعزيني أيتها الوردة ، لأنك حاصلة على ما اتمناه ، وتغمرين حقارتي بالحكم ، لأنك عظيمة . وما أمرّ مواعظ السعداء في قلوب التعساء . وما اقسى القوي اذا وقف خطيباً بين الضعفاء ! »

* * *

وسمعت الطبيعة ما دار بين الوردة والبنفسجة فاهتزت مستغربة ثم رفعت صوتها قائلة — « ماجرى لك يا ابنتي البنفسجة ؟ فقد عرفتك لطيفة بتواضعك عذبة بصغرك ، شريفة بمسكنتك ، فهل استهوتك المطامع القبيحة ، أم سلبت عقلك العظمة الفارغة ؟ »

فاجابت البنفسجة بصوت ملوءه التوسل والاستعطاف

— « أيتها الأم العظيمة بجبروتها ، الهائلة بحنانها ، اضرع اليك بكل ما في قلبي من التوسل ، وما في روحي من الرجاء ان تجيبي طلبي وتجعليني وردة ولو يوماً واحداً »

فقالت الطبيعة — « انت لا تدرين ما تطلبين ولا تعلمين ما وراء العظمة الظاهرة من البلايا الخفية فاذا رفعت قامتك وابدلت صورتك وجمالك وردة تندمين حين لا ينفع الندم »

فقالت البنفسجة — « حولي كياني البنفسجي الى وردة مديدة القامة ، مرفوعة الرأس . ومهما يحلّ بي بعد ذلك يكن صنع رغائبي ومطامعي »

فقالت الطبيعة — « لقد اجبت طلبك أيتها البنفسجة الجاهلة المتمردة ولكن اذا داهمتك المصائب والمصاعب فلتكن شكواك من نفسك »

ومدت الطبيعة اصابعها الخفية السحرية ولمست عروق البنفسجة فتحولت بلحظة الى وردة زاهية متعالية فوق الازهار والرياحين .

* * *

ولما جاء عصر ذلك النهار تلبد الفضاء بغيوم سوداء مبطنة بالإعصار ثم هاجت سواكن الوجود فابرقت وارعدت وأخذت تحارب تلك الحدائق والبساتين بجيش عرمرم من الامطار والاهواء . فكسرت الاغصان ولوت الانصاب واقتلعت الازهار المتشامخة ولم تبقِ الا على الرياحين الصغيرة التي تلتصق بالارض أو تختبىء بين الصخور .

أما تلك الحديقة المنفردة فقد قاست من هياج العناصر ما لم تقاسه حديقة أخرى .

فلم تمر العاصفة وتنقشع الغيوم حتى أصبحت أزاهرها هباءً منثوراً ولم يسلم منها بعد تلك المعمعة الهوجاء سوى طائفة البنفسج المختبئة بجدران الحديقة .

* * *

ورفعت احدى صبايا البنفسج رأسها فرأت ما حلّ بازهار الحديقة وأشجارها فابتسمت فرحاً ثم نادت رفيقاتها قائلة :

— « ألا فانظرن ما فعلته العاصفة بالرياحين المتشامخة تيهاً واعجاباً »

وقالت بنفسجة أخرى — « نحن نلتصق بالتراب ، ولكننا نسلم من غضب العواصف والانواء »

وقالت بنفسجة ثالثة — « نحن حقيرات الاجسام غير ان الزوابع لا تستطيع التغلب علينا . »

ونظرت اذ ذاك مليكة طائفة البنفسج فرأت على مقربة منها الوردة التي كانت بالامس بنفسجة وقد اقتلعتها العاصفة و بعثرت أوراقها الارياح وألقتها على الأعشاب المبللة فبانت كقتيل ارداه العدو بسهم .

فرفعت مليكة البنفسج قامتها ومدت أوراقها ونادت رفيقاتها قائلة — « تأملن وانظرن يا بناتي . انظرن الى البنفسجة التي غرتها المطامع فتحولت الى وردة لتتشامخ ساعة ثم هبطت الى الحضيض . ليكن هذا المشهد امثولة لكنَّ . »

عندئذٍ ارتعشت الوردة المحتضرة واستجمعت قواها الخائرة و بصوتٍ يتقطع قالت — « ألا فاسمعن أيتها الجاهلات المقتنعات ، الخائفات من العواصف والاعصار . لقد كنت بالامس مثلكن أجلس بين أوراقي الخضراء مكتفية بما قسم لي ، وقد كان الاكتفاء حاجزاً منيعاً يفصلني عن زوابع الحياة واهوالها ويجعل كياني محدوداً بما فيه من السلامة ، متناهياً بما يساوره من الراحة والطمأنينة . ولقد كان بامكاني ان اعيش نظيركنَّ ملتصقة بالتراب حتى يغمرني الشتاء بثلوجه واذهب كمن ذهب قبلي الى سكينـة الموت والعدم قبل ان اعرف من اسرار الوجود ومخبآته غير ما عرفته طائفة البنفسج منذ وجد البنفسج على سطح الارض . لقد كان بامكاني الانصراف عن المطامع والزهد في الامور التي تعلو بطبيعتها عن طبيعتي . ولكن اصغيت في سكينة الليل فسمعت العالم الاعلى يقول لهـذا العالم « انما القصد من الوجود الطموح الى ما وراء الوجود » فتمردت نفسي على نفسي وهام وجداني بمقام يعلو عن وجداني . ومازلت اتمرد على ذاتي واشوق الى ماليس لي حتى انقلب تمردي الى قوة فعالة واستحال شوقي الى ارادة مبدعة فطلبت الى الطبيعة

— وما الطبيعة سوى مظاهر خارجية لاحلامنا الخفية — ان تحولني الى وردة ففعلت ،
وطالما غيرت الطبيعة صورها ورسومها باصابع الميل والتشويق

وسكتت الوردة هنيهة ثم زادت بلهجة مفعمة بالفخر والتفوق

— اي لقد عشت ساعة كوردة . لقد عشت ساعة كملكة . لقد نظرت الى الكون من وراء عيون الورود . وسمعت همس الاثير باذان الورود . ولمست ثنايا النور باوراق الورود . فهل بينكم من تستطيع ان تدعي شرفي ؟ »

ثم لوت عنقها ، وبصوت يكاد ان يكون لهاثاً قالت

— أنا اموت الآن . أموت وفي نفسي مالم تكنه نفس بنفسجة من قبلي . أموت وانا عالمة بما وراء المحيط المحدود الذي ولدت فيه . وهذا هو القصد من الحياة . هذا هو الجوهر الكائن وراء عرضيات الايام والليالي »

واطبقت الوردة اوراقها وارتعشت قليلاً ثم ماتت وعلى وجهها ابتسامة علوية — ابتسامة من حققت الحياة امانيه — ابتسامة النصر والتغلب — ابتسامة الله



مناجاة ارواح

استيقظي يا حبيبتي ! استيقظي لان روحي تناديك من وراء الابحار الهائلة، ونفسي تمد جنحيها نحوك فوق الامواج المزبدة الغضوبة . استيقظي،فقد سكتت الحركة واوقف الهدوء ضجة سنابك الخيل ووقع أقـدام العابرين وعانق النوم أرواح البشر ، فبقيت وحدي مستيقظاً ، لان الشوق ينتشلني كلـما أغرقني النعاس ، والمحبة تدنيني اليك عند ما تقصيني الهواجس ، قد تركت مضجعي ياحبيبتي خوفاً من خيالات السلو المختبئة بين طيات اللحف ورميت بالكتاب ، لان تأوهي قد أباد السطور من صفحاته ، فاصبحت خالية بيضاء أمام عيني ، استيقظي ! استيقظي ياحبيبتي واسمعيني .

— ها أنذا ياحبيبي قد سمعت نداءك من وراء الابحار وشعرت بملامس جناحيك ، فانتبهت وتركت مخدعي وسرت على الاعشاب ، فتبللت قدماي واطراف ثوبي من ندى الليل ، ها أنا واقفة تحت أغصان اللوز المزهرة أسمع نداء نفسك يا حبيبي !

— تكلمي ياحبيبتي! ودعي أنفاسك تسيل مع الهواءالقادم نحوي من أودية لبنان . تكلمي ، فلا سامع غيري ، لأن الظلمة قد دحرت جميع المخلوقات الى أوكارها ، والنعاس أسكر سكان المدينة وبقيت وحدي صاحياً

***

— قد نسجت السماء نقاباً من أشعة القمر وألقته على جسد لبنان ياحبيبي !

— قد حاكت السماء من ظلمة الليل رداء كثيفاً مبطناً بدخان المعامـل وأنفاس الموت وسترت به أضلع المدينة يا حبيبتي !

***

— قد رقد سكان القرى في أكواخهم القـائمة بين أشجار الجوز والصفصاف وتسابقت نفوسهم نحو مراسح الاحلام يا حبيبتي !

— قد أناخت احمال الذهب قامات البشر ، وأوهنت عقبات المطامع ركبهم ،

وأثقلت المتاعب أجفانهم ، فارتموا على الفرش وأشباح الخوف والقنوط تعذب قلوبهم يا حبيبتي !..

***

— قد سرت في الاودية خيالات الأجيال الغابرة ، وحامت على الروابي أرواح الملوك والانبياء ، فانثنت فكرتي نحو مسارح الذكرى وأرتني عظائم الكلدانيين وفخامة الاشوريين ونبالة العرب

— قد سرت في الازقة أرواح اللصوص القاتمة ، وظهرت من بين شقوق النوافذ رؤوس أفاعي الشهوات ، وجرت في منعطفات الشوارع أنفاس الامراض ممزوجة بلهاث المنايا ، فأزاحت الذكرى ستائر النسيان وأرتني مكاره صادوم وآثام عاموره

***

— قد تمايلت الاغصان يا حبيبي وتحالف حفيفها مع خرير ساقية الوادي ورددت على مسامعي نشيد سليمان ورنات قيثارة داود وأغاني الموصلي

— قد ارتعشت نفوس أطفال الحي ، وأقلقهم الجوع ، وتسارعت تنهدات الامهات المضطجعات على اسرة الهم واليأس ، وراعت أحلام العوز قلوب الرجال المقعدين ، فسمعت نواحاً مراً وزفيراً متقطعاً يملأ الضلوع ندبا ورثاء

***

— قد فاحت روائح النرجس والزنبق وعانقت عطر الياسمين والبيلسان ثم تمازجت بأنفاس الارز الطيبة وسرت مع تموجات النسيم فوق الطلول المتشبعة والممرات الملتوية فملأت النفس انعطافاً ومنحتها حنيناً الى الطيران

— قد تصاعدت روائح الازقة الكريهة واختمرت بجراثيم العلل ، ومثل أسهم دقيقة خافية قد خدشت الحس وسممت الهواء

***

— ها قد جاء الصباح يا حبيبي وداعبت أصابع اليقظة أجفـان النيام وفاضت الاشعة البنفسجية من وراء الجبل وأزالت غشاء الليل عن عزم الحياة ومجدها ، فاستفاقت القرى المتكئة بهدوء وسكينة على كتفي الوادي وترنمت أجراس الكنائس وملأت الاثير نداءً مستحباً معلنة بدء صلاة الصباح ، فأرجعت الكهوف صدى رنينها كأن الطبيعة بأسرها قامت مصلية ، وقد غادرت العجول مرابضها وتركت قطعان الغنم والماعز حظائرها وانثنت نحو الحقول ترتعي رؤوس الاعشاب المتلمعة بقطر النـدى ومشى امامها الرعاة ينفخون الشبابات ووراءها الصبايا المتأهلات مع العصافير بقدوم الصباح

— قد جاء الصباح يا حبيبتي وانبسطت فوق المنازل المكردسـة أكفُّ النهار الثقيلة ، فأزيحت الستائر عن النوافذ وانفتحت مصاريع الابواب ، فبانت الوجوه الكالحة والعيون المعروكة ، وذهب التعساء الى المعامل وداخل أجسادهم يقطن الموت في جوار الحياة ، وعلى ملامحهم المنقبضة قد بان ظل القنوط والخوف ، كأنهم منقادون قهراً الى عراك هائل مهلك . ها قد غصت الشوارع بالمسرعين الطامعين وامتلأ الفضاء من قلقلة الحديد ودوي الدواليب وعويل البخار وأصبحت المدينـة ساحة قتال يصرع فيها القويُّ الضعيف و يستأثر الغني المظلوم بأتعاب الفقير المسكين

***

— ما أجمل الحياة ههنا يا حبيبي ، فهي مثل قلب الشاعر المملوء نوراً ورقة

— ما أقسى الحياة ههنا يا حبيبتي ، فهي مثل قلب المجرم المفعم بالإثم والمخاوف



مجنون ليلى — لجبران خليل جبران

ايتها الارض

ما اجملك أيتها الارض وما أبهاك .

ما اتم امتثالك للنور وانبل خضوعك للشمس .

ما اظرفك متشحة بالظل وما املح وجهك مقنعاً بالدجى .

ما اعذب اغاني فجرك وما اهول تهاليل مسائك .

ما اكملك أيتها الارض وما أسناك .

لقد سرتُ في سهولك ، وصعدت على جبالك ، وهبطت الى اوديتك ، وتسلقت صخورك ، ودخلت كهوفك ، فعرفت حلمك في السهل ، وانفتك على الجبل ، وهدوءك في الوادي ، وعزمك في الصخر ، وتكتمك في الكهف ، فانت انت المنبسطة بقوتها ، المتعالية بتواضعها ، المنخفضة بعلوها ، اللينة بصلابتها ، الواضحة باسرارها ومكنوناتها .

لقد ركبت بحارك ، وخضت انهارك ، وتتبعت جداولك ، فسمعت الابدية تتكلم بمدك وجزرك ، والدهور تترنم بين هضابك وحزونك ، والحياة تناجي الحياة في شعبك ومنحدراتك ، فانت انت لسان الابدية وشفاهها ، واوتار الدهور واصابعها ، وفكرة الحياة وبيانها .

لقد ايقظني ربيعك وسيرني الى غاباتك حيث تتصاعد انفاسك بخوراً ، واجلسني صيفك في حقولك حيث يتجوهر اجهادك اثماراً ، وأوقفني خريفك في كرومك حيث يسيل دمك خمراً ، وقادني شتاؤك الى مضجعك حيث يتناثر طهرك ثلجاً ، فانت انت العطرة بربيعها ، الجوادة بصيفها ، الفياضة بخريفها ، النقية بشتائها .

في الليلة الصافيـة قد فتحت نوافذ نفسي وابوابها وخرجت اليك مثقلاً بمطامعي مكبلاً بقيود انانيتي ، فالفيتك شاخصة بالكواكب وهي تبتسم لك ، فنزعت عني قيودي واثقالي وعلمت ان منزل النفس فضاؤك ، ورغائبها في رغائبك ، وسلامتها في سلامتك ، وسعادتها في الغبار الذهبي الذي تنثره النجوم على جسدك .

في الليـلة المبطنة بالغيوم ، وقد مللت غفلتي وجمودي ، خرجت اليك فوجدتك

جبارة هائلة مسلحة بالعاصفة ، تحار بين ماضيك بحاضرك ، وتصرعين قديمك بجديدك ، وتبعثرين ضئيلك بضليعك ، فعلمت ان نظام البشر نظامك ، وناموسهم ناموسك ، وسنتهم سنتك ، وان من لا يهصر باريا حه مايبس من اغصانه يموت مللا ، ومن لا يمزق بثورانه ما بلي من اوراقه يفنى خمولاً ، ومن لا يكفن بنسيان ما مات من ماضيه كان هو كفناً لما تي الماضي.

* * *

ما اكرمك أيتها الارض وما اطول اناتك .

ما اشد حنانك على ابنائك المنصرفين عن حقيقتهم الى اوهامهم ، الضائعين بين مابلغوا اليه وما قصروا عنه .

نحن نضجّ وانت تضحكين .

نحن نذهب وانت تكفرين .

نحن نجدف وانت تباركين .

نحن ننجس وانت تقدسين .

نحن نهجع ولا نحلم وانت تحلمين في سهرك السرمدي ،

نحن نكلم صدرك بالسيوف والرماح وانت تغمرين كلومنا بالزيت والبلسم .

نحن نزرع راحاتك العظام والجماجم وانت تستنبتينها حوراً وصفصافاً .

نحن نستودعك الجيف وانت تملأين بيادرنا بالاغمار ومعاصرنا بالعناقيد .

نحن نصبغ وجهك بالدم وانت تغسلين وجوهنا بالكوثر .

نحن نتناول عناصرك لنصنع منها المدافع والقذائف وانت تتناولين عناصرنا وتكوّنين منها الورود والزنابق .

ما اوسع صبرك ايتها الارض وما اكثر انعطافك .

ما انت أيتها الارض ومن انت ؟

أذرة من الغبار تصاعدت من بين قدمي الله عند ما سار من مشارق الاكوان الى مغاربها ، أم شرارة قذفت من موقد اللانهاية . ؟

أنواة طرحت في حقل الاثير لتشق قشرتها بعزم لبابها وتتعالى نصبه ربانية الى ما فوق الاثير ؟

أقطرة من الدم في عروق جبار الجبابرة ، أم انت قطرة من العرق على جبينه ؟

أثمرة تلوحها الشمس ببطء ؟ أثمرة أنت في شجرة المعرفة الكلية التي تمد عروقها الى أعماق الازل وترفع غصونها الى أعماق الابد ؟ أم جوهرة انت وضعها إله الزمن في حفنة الاهة المسافة ؟

أطفلة أنت في حضن الفضاء ؟ أم عجوز ترقب الايام والليالي وقد شبعت من حكمة الليالي والايام ؟

ما أنت أيتها الارض ومن أنت ؟

أنت أنا أيتها الارض ! أنت بصري و بصيرتي ، أنت عاقلتي وخيالي وأحلامي ، أنت جوعي وعطشي ، أنت ألمي وسروري ، أنت غفلتي وانتباهي .

أنت الجمال في عينيّ . والشوق في قلبي ، والخلود في روحي .

أنك أنا أيتها الارض فلو لم أكن لما كنت .

المخدرات والمباضع

« هو متطرف بمبادئه حتى الجنون »

« هو خياليٌّ يكتب ليفسد أخلاق الناشئة »

« لو اتبع الرجال والنساء المتزوجون وغير المتزوجين آراء جبران في الزواج لتقوضت اركان العائلة وانهدمت مباني الجامعة البشرية وأصبح هذا العالم جحيماً وسكانه شياطين »

« قهراً عما لاسلوبه الكتابي من الجمال فهو من أعداء الانسانية »

« هو فوضوي كافر ملحد ونحن ننصح لسكان هذا الجبل المبارك بان ينبذوا تعاليمه ويحرقوا مؤلفاته لئلا يعلق منها شيء على نفوسهم »

« قد قرأنا له الاجنحة المتكسرة فوجدناها السم في الدسم »

* * *

هذا بعض مايقوله الناس عني وهم مصيبون ، فانا متطرف حتى الجنون ، أميل الى الهدم ميلي الى البناء ، وفي قلبي كرهٌ لما يقدسه الناس وحب لما يأبونه ، ولو كان بامكاني استئصال عوائد البشر وعقائدهم وتقاليدهم لما ترددت دقيقة . اما قول بعضهم ان كتاباتي « سم في دسم » فكلام يبين الحقيقة من وراء نقاب كثيف — فالحقيقة العارية هي انني لا أمزج « السم » بالدسم بل أسكبه صرفاً . . غير انني أسكبه في كؤوس نظيفة شفافة

اما الذين يعتذرون عني أمام نفوسهم قائلين « هو خيالي يسبح مرفرفاً بين الغيوم » فهم الذين يحدقون بلمعان تلك الكؤوس الشفافة منصرفين عما في داخلها من الشراب الذي يدعونه « سماً » لان معدهم الضعيفة لا تهضمه

قد تدل هذه التوطئة على الوقاحة الخشنة ، ولكن أليست الوقاحة بخشونتها أفضل من الخباثة بنعومتها ؟ ان الوقاحة تظهر نفسها بنفسها اما الخباثة فترتدي بملابس فصلت لغيرها

* * *

يطلب الشرقيون من الكاتب ان يكون كالنحلة التي تطوف مرفرفةً في الحقول جامعة حلاوة الازهار لتصنع منها اقراصاً من العسل

ان الشرقيين يحبون العسل ولا يستطيبون سواه مأ كلاً وقد افرطوا بالتهامه حتى تحولت نفوسهم الى عسل تسيل امام النار ولا تتجمد الا اذا وضعت على الثلج •

و يطلب الشرقيون من الشاعر أن يحرق نفسه بخوراً أمام سلاطينهم وحكامهم و بطاركتهم . وقد تلبد فضاء الشرق بغيوم البخور المتصاعد من جوانب العروش والمذابح والمقابر ولكنهم لا يكتفون . ففي أيامنا هذه مدّاحون يضارعون المتنبي ، وراثون يضاهون الخنساء ، ومهنئون أكثر طلاوة من صفي الدين الحلي

و يطلب الشرقيون من العالم أن يبحث في تاريخ آبائهم وجدودهم ، متعمقاً بدرس آثارهم وعوائدهم وتقاليدهم صارفاً أيامه ولياليه بين مطولات لغاتهم واشتقاقات الفاظهم ومباني معانيهم و بيانهم و بديعهم

و يطلب الشرقيون من المفكر أن يعيد على مسامعهم ما قاله بيدبا وابن رشد وافرام السرياني و يوحنا الدمشقي وأن لا يتعدى بكتاباته حدود الوعظ البليد والارشاد السقيم وما يجيء بينهما من الحكم والآيات التي اذا ما تمشى عليها الفرد كانت حياته كالاعشاب الضئيلة التي تنبت في الظل ونفسه كالماء الفاتر الممزوج بقليل من الافيون

و بالاختصار فالشرقيون يعيشون في مسارح الماضي الغابر و يميلون الى الامور السلبية المسلية المفكهة و يكرهون المبادىء والتعاليم الايجابية المجردة التي تلسعهم وتنبههم من رقادهم العميق المغمور بالاحلام الهادئة

* * *

انما الشرق مريض قد تناوبته العلل وتداولته الاوبئة حتى تعود السقم والف الالم وأصبح ينظر الى أوصابه وأوجاعه كصفات طبيعية بل كخلال حسنة ترافق الارواح النبيلة والاجساد الصحيحة فمن كان خالياً منها عد ناقصاً محروماً المواهب والكمالات العلوية

وأطباء الشرق كثيرون يلازمون مضجعه و يتآمرون في شأنه ولكنهم لا يداوونه بغير المخدرات الوقتية التي تطيل زمن العلة ولا تبرئها

أما تلك المخدرات المعنوية فكثيرة الانواع متعددة الاشكال متباينة الالوان . وقد تولد بعضها من بعض مثلما تناسخت الامراض والعاهات بعضها عن بعض . وكلما ظهر في الشرق مرض جديد يكتشف له أطباء الشرق مخدراً جديداً

وأما الاسباب التي آلت الى وجود المخدرات فعديدة أهمها استسلام العليل الى فلسفة القضاء والقدر المشهورة ، وجبانة الاطباء وخوفهم من تهييج الالم الذي تحدثه الادوية الناجعة

واليك أمثلة من تلك المخدرات والمسكنات التي يتخذها الاطباء الشرقيون لمعالجة الامراض العائلية والوطنية والدينية :

ينفر الرجل من زوجته والمرأة من بعلها لاسباب وضعية حيوية فيتخاصمان ويتضاربان ويتباعدان ولكن لا يمر يوم وليلة حتى يجتمع أهل الرجل أهل زوجته فيتبادلوا الآراء المزخرفة والافكار المرصعة ثم يتفقوا على اتحاد السلام بين الزوجين فيأتون بالمرأة ويستهوون عواطفها بالمواعظ الملفقة التي تخجلها ولا تقنعها ثم يستدعون الرجل ويغمرون رأسه بالاقوال والامثال المزركشة التي تلين أفكاره ولا تغيرها . وهكذا يتم الصلح — الصلح الوقتي — بين الزوجين المتنافرين بالروح فيعودا قهراً عن ارادتهما الى السكنى تحت سقف واحد حتى « يبوخ » الطلاء ويزول تأثير المخدر الذي استخدمه الاهل والانسباء فيعود الرجل الى اظهار نفوره ومقته والمرأة الى ازالة النقاب عن تعاستها . غير أن الذين أوجدوا الصلح في المرة الاولى يوجدونه ثانية ومن يرتشف جرعة من المخدرات لا يأبى شرب كأس دهاق

يتمرد قوم على حكومة جائرة او على نظام قديم فيؤلفون « جمعية اصلاحية » ترمي الى النهوض والانعتاق فيخطبون بشجاعة ويكتبون بحماسة وينشرون « اللوائح والبرامج » ويبعثون « الوفود والممثلين » ولكن لا يمر شهر او شهران حتى نسمع ان الحكومة قد سجنت رئيس الجمعية أو عهدت اليه بوظيفة . أما « الجمعية الاصلاحية » فلا نعود نسمع عنها شيئاً لان أفرادها قد تجرعوا قليلاً من المخدرات المعهودة وعادوا الى السكينة والاستسلام

تتمرد طائفة على رئيس دينها لامور أولية فتنتقد شخصه وتنكر أعماله وتتبرم من ما تيه ثم تهدده باعتناقها مذهباً آخر اقرب الى العقل وأبعد عن الاوهام والخرافات. ولكن لا يمر ردح من الزمن حتى نسمع بأن عقلاء البلاد قد ازالوا الخلاف بين الراعي ورعيته وأرجعوا بفضل المخدرات السحرية الهيبة الى شخص الرئيس والطاعة العمياء الى نفوس المرؤوسين العقوقين !

يتظلم مغلوب ضعيف من ظالم قوي فيقول له جاره « اسكت فالعين التي تعاند السهم تفقأ »

يشك القروي بتقى الرهبان واخلاصهم فيقول له زميله « اصمت فقد جاء في الكتاب اسمعوا أقوالهم ولا تفعلوا أفعالهم »

يعرض التلميذ عن استظهار مباحث البصريين والكوفيين اللغوية فيقول له استاذه « أن الكسالى المتوانين يختلقون لنفوسهم أعذاراً أقبح من الذنوب »

تمتنع الصَّبيّة عن اتباع عوائد العجائز فتقول لها والدتها « ليست الابنة أفضل من أمها فالطريق التي سلكتها تسلكينها أنت أيضاً

يسأل الشاب مستفسراً معاني الزوائد الدينية فيقول له الكاهن « من لا ينظر بعين الايمان لا يرى في هذا العالم سوى الضباب والدخان »

وهكذا تمر الايام أثر الليالي والشرقي مُضْجَع على فراشه الناعم ، يستيقظ دقيقة عند ما تلسعه البراغيث ثم يعود ويهجع جيلاً بحكم المخدرات التي تمازج دمه وتسير في عروقه . فاذا ما قام رجل وصرخ بالنائمين وملأ منازلهم ومعابدهم ومحاكمهم بالضجيج يفتحون أجفانهم المطبقة بالنعاس الابدي ثم يقولون متثائبين « ما أخشنه فتى لا ينام ولا يدع الناس ينامون » ثم يغمضون عيونهم ويهمسون في آذان أرواحهم « هو كافر ملحد يفسد أخلاق الناشئة ويهدم مباني الاجيال و يرشق الانسانية بالسهام السامة »

* * *

قد سألت نفسي مرات ما اذا كنت من المستيقظين المتمردين الذين يأبون شرب المخدرات والمسكنات ، فكانت نفسي تجيبني بكلمات مبهمة ملتبسة ، ولكنني لما سمعت الناس يجدفون على اسمي ويتأففون من مبادئي ايقنت بحقيقة يقظتي وعلمت انني لست من المستسلمين الى الاحلام اللذيذة والخيالات المستحبة بل من أولئك المستوحدين الذين تسيرهم الحياة على سبل ضيقة مغروسة بالاشوك والازهار محفوفة بالذئاب الخاطفة والبلابل المترنمة.

ولو كانت اليقظة فضيلة لمنعني الاحتشام عن ادعائها ولكنها ليست بفضيلة بل حقيقة غريبة تظهر على حين غفلة للافراد المستوحدين وتسير امامهم فيتبعونها قسر ارادتهم مجذوبين باسلاكها الخفية محدقين بمعانيها المهيبة

وعندي ان الاحتشام في اظهار الحقائق الشخصية هو نوع من الرياء الابيض المعروف عند الشرقيين باسم التهذيب

* * *

غداً يقرأ « الادباء المفكرون » ما تقدم فيقولون متضجرين « هو متطرف ينظر الى الحياة من الوجهة المظلمة فلا يرى غير الظلام وقد طالما وقف فينا نادباً نائحاً باكياً علينا متأوهاً لحالنا »

فلهؤلاء الادباء المفكرين أقول — أنا اندب الشرق لان الرقص امام نعش الميت جنون مطبق

انا ابكي على الشرقيين لان الضحك على الامراض جهل مركب

أنا انوح على تلك البلاد المحبوبة لان الغناء أمام المصيبة العمياء غباوة عمياء

أنا متطرف لان من يعتدل باظهار الحق يبين نصف الحق ويبقى نصفه الآخر محجوباً وراء خوفه من ظنون الناس وتقولاتهم

أنا أرى الجيفة المنتنة فتشمئز نفسي وتضطرب احشائي ولا استطيع ان اجلس قبالتها وفي يميني كأس من الشراب وفي شمالي قطعة من الحلوى

فان كان هناك من يريد ان يبدل نوحي بالضحك ويحول اشمئزازي الى الانعطاف وتطرفي الى الاعتدال فعليه ان يريني بين الشرقيين حاكماً عادلاً ومتشرعاً مستقيماً ورئيس دين يعمل بما يعلم وزوجاً ينظر الى امرأته بالعين التي يرى بها نفسه

ان كان هناك من يريد أن يشاهدني راقصاً ويسمعني مطبلاً ومزمراً فعليه ان يدعوني الى بيت العريس لا ان يوقفني بين المقابر



ابو العلاء المعري — لجبران خليل جبران

البحر الاعظم

بالامس — وما أبعد الامس وما أقربه — ذهبت ونفسي الى البحر الاعظم لنغسل بمائه ما علق بنا من غبار الارض واوحالها .

ولما بلغنا الشاطىء طفقنا نبحث عن مكان خالٍ يحجبنا عن العيون .

و بينا نحن سائران التفتنا فاذا برجل جالس على صخرة غبراء وفي يده كيس يأخذ منه الملح قبضة بعد قبضة و يطرحها الى البحر .

فقالت لي نفسي — « هوذا المتشائم الذي لايرى من الحياة سوى ظلها . وليس المتشائم بخليق ان يرى جسدينا العاريين . فلنغادر هذا المكان اذ لا سبيل الى الاستحمام ههنا . »

فتركنا ذلك المكان وتابعنا المسير حتى وصلنا الى خور في الشاطىء . فاذا برجل واقف على صخرة بيضاء وفي يده صندوقة مرصعة بالجواهر وهو يتناول منها قطعاً من السكر ويرمي بها في البحر .

فقالت لي نفسي — « وهذا هو المتفائل الذي يستبشر بما لا بشر فيه . وحذراً من المتفائلين ان يروا جسدينا العاريين » . فعدنا نواصل المسير حتى عثرنا على رجل واقف بقرب الشاطىء يلتقط الاسماك الميتة و يعيدها بحنو الى البحر .

فقالت لي نفسي — « وهذا هو الشفوق الذي يحاول ارجاع الحياة لمن في القبور . فلنبتعد عنه . »

ثم انتهينا الى حيث رأينا رجلاً يرسم خياله على الرمال فتجيء الامواج وتمحو مارسمه وهو يتابع عمله المرة بعد الأخرى .

فقالت لي نفسي — « هوذا المتصوف الذي يقيم في اوهامه صنماً ليعبده . فلندعه وشأنه . »

ومشينا الى ان تبصرنا في خليج هادىء رجلاً يكشف الزبد عن سطح الماء و يضعه في آناء من العقيق .

فقالت لي نفسي — « هوذا الخيالي الذي يحوك من خيوط العنكبوت رداءً ليلبسه. وهو ليس بجدير ان يرى جسدينا عاريين »

فتابعنا المسير. واذا بنا نسمع صوتاً هاتفاً — « هوذا البحر العميق. هوذا البحر الهائل العظيم »

فبحثنا عن مصدر الصوت فرأينا رجلاً واقفاً مديراً ظهره الى البحر وقد وضع صدفة على اذنه وهو يصغي الى دمدمتها.

فقالت لي نفسي — « سر بنا. فهذا هو الدهري الذي يدير ظهره الى كليات لا يستطيع الاحاطة بها و يشغل ذاته بجزئيات تستميل كاينه. »

فسرنا الى ان رأينا في معشبة رجلاً بين الصخور وقد دفن رأسه في الرمال.

فقلت لنفسي — « هلمي يا نفس نستحم ههنا. فهذا الرجل لا يستطيع ان يبصرنا. »

فهزت نفسي رأسها قائلة —

« لا والف لا. ان من تراه هو شر الناس اجمعهم. هو التقي النقي الذي يحجب نفسه عن مأساة الحياة فتحجب الحياة مسراتها عن نفسه. »

حينئذ ظهر على وجه نفسي حزن عميق. و بصوت تقطعه المرارة قالت — « لنذهبنَّ من هذه الشواطىء. فليس هنا مكان خفي محجوب نستطيع ان نستحم به. وأنا لن ارضى أن اسرح غدائري الذهبية في هذه الريح، أو ان اكشف صدري البض امام هذا الفضاء، أو أن اتجرد واقف عارية امام هذا النور. »

فغادرت ونفسي ذلك البحر العظيم. وسرنا ننشد البحر العظيم.

* * *

النملات الثلاث

ثلاث نملات اجتمعن على أنف رجل نائم في الشمس . و بعد أن حيّت كل واحدة رفيقتها بتحية قومها المألوفة وقفن هنالك يتحدثن

فقالت النملة الاولى — « ما أقفر هــذه التلال والاودية فاني لم أرَ لها مثيلاً في القحط والجدب . لقد بحثت النهار بطوله عن حبــة من الحنطة فلم أظفر بشيء قط . »

فقالت النملة الثانية — « أنا مثلك لم أجد شيئاً مع اني فتشت كل الزوايا والشعاب . فهل ، يا ترى ، نحن واقفات الآن في البقعة التي يدعوها قومي بالارض اللينة المتحركة حيث لا ينبت شيء البتة ؟ »

فرفعت اذ ذاك النملة الثالثة رأسها قائلة — « ألا فاسمعا ، يا صديقتي . نحن الآن واقفات على أنف النملة العظمى ، النملة الرهيبة غير المتناهية ، النملة التي تعاظم جسمها حتى لم يعد بامكاننا أن نراه ، وامتد ظلها حتى أصبحنا لا نستطيع تحديده ، وتعالى صوتها حتى عجزنا عن سماعه . وهي ازلية تملأ الارجاء بكيانها .

فلما انتهت النملة الثالثة من كلامها تبادلت رفيقتاها النظرات ثم ضحكتا استهزاء بها . في تلك الدقيقة تحرك الرجل في نومه . ثم رفع يده وحك أنفه فسحق النملات الثلاث .

الكلب الحكيم

مرّ كلب حكيم ذات يوم بجماعة من الهررة . وعند ما اقترب منهم ورأى انهم لم يحفلوا به وقف هناك مستغرباً .

واذا بهر كبير عليه امائر الهيبة والوقار وقف في وسطهم وقال رافعاً عينيه نحو السماء —

« أيها الاخوة المؤمنون ، الحق أقول لكم انكم اذا صليتم بحرارة وايمان مبتهلين يستجاب دعاكم وتمطركم السماء فئراناً . »

فلما سمع الكلب هذا الكلام ضحك في قلبه وتحول عن الجماعة قائلاً في نفسه — « ما أغبى هؤلاء النطط ، وما أعمى بصائرهم ! ألم يجىء في الكتب ، بل ألم أعرف كما عرف آبائي وأجدادي من قبلي أن المؤمنين اذا صلوا وتضرعوا فالسماء لا تمطرهم فئراناً بل تمطرهم عظاماً . »

في سنة لم تكن قط في التاريخ

. . . في تلك الدقيقة ظهرت من وراء اشجار الصفصاف صبية تجر اذيالها على الاعشاب ووقفت بجانب الفتى النائم ووضعت يدها الحريرية على رأسه فنظر اليها نظرة نائم أيقظه شعاع الشمس . فرأى ابنة الأمير واقفة حذاءه فجثا على ركبتيه مثلما فعل موسى عند ما رأى العليقة مشتعلة ولما أراد الكلام ارتج عليه فنابت عيناه الطافحتان بالدمع عن لسانه

ثم عانقته الصبية وقبلت شفتيه ، وقبلت عينيه راشفة المدامع السخينة وقالت بصوت ألطف من نغمة الناي

— « قد رأيتك يا حبيبي في أحلامي ونظرت وجهك في وحدتي وانقطاعي فانت رفيق نفسي الذي فقدته ونصفي الجميل الذي انفصلت عنه عند ما حكم علي بالمجيء الى هذا العالم . قد جئت سراً يا حبيبي لالتقي بك وها أنت الآن بين ذراعي فلا تجزع ؟ قد تركت مجد والدي لاتبعك الى اقاصي الارض وأشرب معك كأس الحياة والموت .

قم يا حبيبي فنذهب الى البرية البعيدة عن الانسان »

ومشى الحبيبان بين الأشجار تخفيهما ستائر الليل ولا يخيفهما بطش الأمير ولا أشباه الظلمة .

الجبابرة

ليس من يكتب بالحبر كمن يكتب بدم القلب
وليس السكوت الذي يحدثه الملل كالسكوت الذي يوجده الالم

أما أنا فقد سكت لأن آذان العالم قدانصرفت عن همس الضعفاء وأنينهم الى عويل الهاوية وضجتها ، ومن الحكمة ان يسكت الضعيف عند ما تتكلم القوى الكامنة في ضمير الوجود — تلك القوى التي لا ترضى بغير المدافع ألسنةً ولا تقنع بسوى القنابل ألفاظاً

نحن الآن في زمن أصغر صغائره أكبر من كبائر ماتقدمه . فالامور التي كانت تشغل أفكارنا وأميالنا وعواطفنا قد انزوت في الظل . والمسائل والمشاكل التي كانت تتلاعب بارائنا ومبادئنا قد توارت وراء نقاب من الاهمال . أما الاحلام المستحبة والاشباح الجميلة التي كانت تميس متنقلة على مسارح وجداننا فقد تبددت كالضباب وحل محلها جبابرة تسير كالعواصف ، وتتمايل كالابحار ، وتتنفس كالبراكين

وما عسى أن يصير اليه العالم بعد أن تنتهي الجبابرة من صراعها ؟

هل يعود القروي الى حقله فيلقي البذور حيث زرع الموت جماجم القتلى ؟

هل يقود الراعي مواشيه الى مروج مزقت أديمها السيوف ويوردها مناهل يمتزج ماؤها بنجيع الدماء ؟

هل يركع العابد في هيكل رقصت فيه الشياطين ، ويردد الشاعر قصائده أمام كواكب حجبت بالدخان ، وينغم المنشد أغانيه في ليل عانقت سكينته الاهوال ؟

هل تجلس الأم بجانب سرير رضيعها مرتلة بالهدوء أغاني النوم وهي لا ترتجف وجلاً مما سيجلبه الغد ؟

وهل يلتقي الحبيب بحبيبته ويتبادلان القبل حيث التقى العدو بعدوه وتبادلا القذائف ؟

وهل يعود نيسان الى الارض ويستر بقميصه اعضاءها المكاومة ؟

ليت شعري ! هل يعود نيسان الى الحقول ؟

وماذا عسى تصير اليه بلادكم و بلادي ، وأي من الجبابرة يضع يده على تلك التلال والهضبات التي انبتتنا وسيرتنا رجالاً ونساء امام وجه الشمس ؟

وهل يطلع الفجر فوق قمم لبنان ؟

كلما خلوت بنفسي أطرح عليها هذه السؤالات غير ان النفس كالقضاء تبصر ولا تتكلم ، وتسير ولكنها لا تلتفت ، فهي ذات عيون تتجلى واقدام تتسارع ، أما لسانها فثقيل

ومن منكم أيها الناس لم يسأل نفسه في كل يوم وليلة عن مصير الارض وسكانها بعد ان تختمر الجبابرة من دموع الارامل والايتام ،

أنا من القائلين بسنة النشوء والارتقاء ، وفي عرفي ان هذه السنة تتناول بمفاعيلها الكيانات المعنوية بتناولها الكائنات المحسوسة ، فتنتقل بالاديان والحكومات من الحسن الى الاحسن انتقالها بالمخلوقات كافة من المناسب الى الانسب . فلا رجوع الى الوراء الا في الظاهر ولا انحطاط الا في السطحي

ولسنة الارتقاء سبل متشعبة يتفرع بعضها من بعض ولكنها متلازمة الاصول ، ومظاهر قاسية ظالمة مظلمة تنكرها الافكار المحدودة وتتمرد عليها القلوب الضعيفة ، أما خفاياها فعادلة منيرة ، متمسكة بحق اسمى من حقوق الافراد محدقة بفرد أعلى من مرام الجماعة . صاغية الى صوت يغمر بهوله وعذوبته تنهدات المنكوبين وغصات المتوجعين

حولي بكل مكان اقزام برون عن بعد اشباح الجبابرة متناضلين و يسمعون في المنام صدى تهاليلهم فيضجون كالضفادع قائلين : لقد رجع العالم الى فطرته الوضعية فما بنته الاجيال بالعلم والفن قد هدمه الانسان الوحشي بالطمع والانانية . فحالنا اليوم حال سكان الكهوف ولا يميزنا عنهم سوى آلات نبتدعها للدمار وحيل نستخدمها للهلاك

هذا ما يقوله هؤلاء الذين يقيسون ضمير العالم بمقياس ضمائرهم ويحللون مراد

الوجود بالفكرة القصيرة التي يستخدمونهـا لحفظ وجودهم الفردي . فكأن الشمس لم تكن الا لتدفئهم ، وكأن البحر لم يوجد الا لغسل أرجلهم

* * *

من أحشاء الحياة ، ومن وراء المرئيات ، من اعماق الكون المدبّر حيث تصان سرائر الـكون المدبر قد انبثق الجبابرة كالريح وتصاعدوا كالغيوم ثم تلاقوا كالجبال وهم الآن يتصارعون ليحلوا مشكلة في الارض لا يحلها غير الصراع

أما البشر وكل ما في رؤوسهم من المـدارك والمعارف ، وما في قلوبهم من المحبة والبغضاء ، وما يعانق نفوسهم من الصبر والجزع والاوجاع فآلات يتناولهـا الجبابرة ويديرونها توصلاً الى غاية علوية لا بد من بلوغها

أما الدماء التي أهرقت فسوف تجري انهاراً كوثرية ، وأما الدموع التي نثرت فستنبت ازهاراً زكية ، وأما الارواح التي فاضت فسوف تجتمع وتتآلف وتتطلع من وراء الافق الجديد صباحاً جديداً فيعلم الناس بانهم قد ابتاعوا الحق في سوق البؤس وان من ينفق في سبيل الحق لن يخسر

واما نيسان فسيعود — ولكن من يطلب نيسان من غير كف الشتاء فلن يجده



ابن سينا — لجبران خليل جبران

ابن سينا وقصيدته

ليس بين ما نظمه الاقدمون قصيدة أدنى الى معتقدي وأقرب الى ميولي النفيسة من قصيدة ابن سينا في النفس .

في هذه القصيدة النبيلة قد وضع الشيخ الرئيس أبعد ما يراود فكرة الانسان ، وأعمق ما يلازم خياله من الاماني التي تولدها المعرفة ، والسؤالات التي يثمرها الرجاءُ ، والنظريات التي لا تصدر الا عن التفكر المستمر والتأملات الطويلة .

وليس من الغرائب صدور هذه القصيدة عن وجدان ابن سينا وهو نابغة زمانه ، ولكن من الغرائب أن تكون مظهراً لرجل صرف عمرهُ مستقصياً أسرار الاجسام ومزايا الهيولى . فكأني به قد بلغ خفايا الروح عن طريق المادة وأدرك مكنونات المعقولات بواسطة المرئيات فجاءت قصيدته هذه برهاناً نيراً على أن العلم هو حياة العقل يتدرج بصاحبه من الاختبارات العملية — الى النظريات العقلية — الى الشعور الروحي — الى الله

قد يجد المطالع في ما نظمه كبار شعراء الغربيين مقاطع متفرقة تذكره بهذه القصيدة السامية . ففي روايات شكسبير الخالدة أبيات لا تختلف بمعانيها عن قول ابن سينا ·

وصلت على كرهٍ اليك وربما كرهت فراقك وهي ذات تفجعِ

وفي أقوال تشلي ما يماثل

سجعت وقد كشف الغطاء فابصرت ما ليس يدرك بالعيون الهجَّعِ

وفي تأملات غوتي ما يضارع

وتعود عالمة بكل خفية في العالمين فخرقها لم يرقعِ

وفي ما قاله براونن ما يضاهي

فكأنها برق تألق بالحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمعِ

ولكن الشيخ الرئيس قد تقدم جميع هؤلاء بقرونٍ عديدة . فوضع في قصيدة

واحدة ما هبط يصور متقطعة على أفكار مختلفة في أزمنة مختلفة . وهذا ما يجعله نابغة لعصره والعصور التي جاءت بعده ، ويجعل قصيدته في النفس أبعد وأشرف ما نظم في أشرف وأبعد موضوع

الغزالي

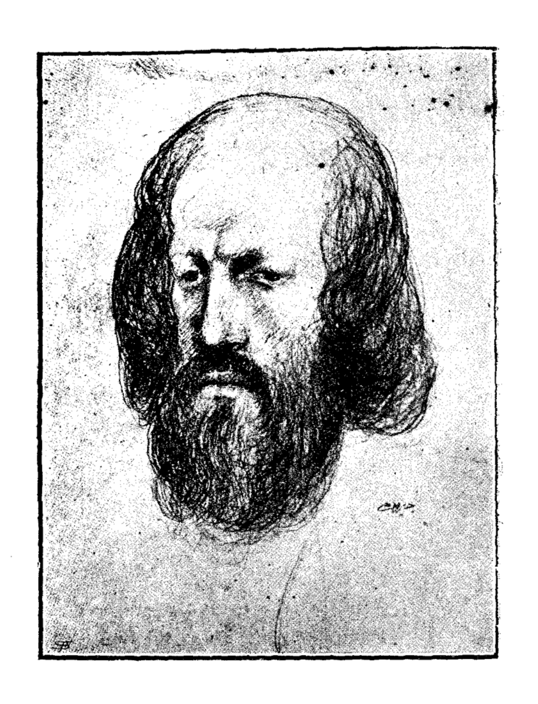
بين الغزالي والقديس أوغسطينوس رابطة نفسية . فهما منظران متشابهان لمبدإ واحد . رغم ما بين زمانيهما ومحيطيهما من الاختلافات المذهبية والاجتماعية . أما ذلك المبدأ فهو ميل وضعي في داخل النفس يتدرج بصاحبه من المرئيات وظواهرها الى المعقولات فالفلسفة فالالهيات

اعتزل الغزالي الدنيا وما كان له فيها من الرخاء والمقام الرفيع وانفرد وحده متصوفاً ، متوغلاً في البحث عن تلك الخيوط الدقيقة التي تصل أواخر العلم باوائل الدين ، متعمقاً في التفتيش عن ذلك الاناء الخفي الذي تمتزج فيه مدارك الناس واختباراتهم بعواطف الناس واحلامهم

وهكذا فعل أوغسطينوس قبله بخمسة أجيال . فمن يقرأ له كتاب « الاعتراف » يرى أنه قد اتخذ الارض وما فيها سلماً يصعد عليه نحو ضمير الوجود الاعلى

غير انني وجدت الغزّالي أقرب الى جواهر الامور وأسرارها من القديس أوغسطينوس . وقد يكون سبب ذلك في الفرق الكائن بين ما ورثه الاول من النظريات العلمية العربية واليونانية التي تقدمت زمانه وما ورثه الثاني من علم اللاهوت الذي كان يشغل آباء الكنيسة في القرنين الثاني والثالث للمسيح واعني بالوراثة ذلك الأمر الذي ينتقل مع الايام من فكر الى فكر مثلما تلازم بعض المزايا الجسدية مظاهرَ الشعوب من عصر الى عصر .

ووجدت في الغزالي ما يجعله حلقة ذهبية موصلة بين الذين تقدموه من متصوفي



الغزّالي — لجبران خليل جبران

تركتُ هوى ليلى وسعدى بمعزلِ ... وعدتُ الى مصحوبِ أولِ منزل

ونادتْ بيَ الاشواقُ مهلاً فهذهِ ... منازلُ من تهوى رويدكَ فانزل

غزلتُ لهم غزلاً دقيقاً فلم أجد ... لغزليَ نساجاً فكسَّرتُ مغزلي

« الغزالي »

الهند والذين جاءوا بعده من الالهيين . ففي ما بلغت اليه أفكار البوذيين قديماً شيء من ميول الغزّالي ، وفي ما كتبه سبنوزا ووليم بلايك حديثاً شيء من عواطفه .

وللغزّالي عند مستشرقي الغرب وعلمائه منزلة رفيعة . وهم يضعونه مع ابن سينا وابن رشد في المقام الاول بين فلاسفة الشرق . اما الروحيون بينهم فيحسبونه أنبل وأسمى فكرة ظهرت في الاسلام . ومن الغرائب انني شاهدت على جدران كنيسة في فلورنسا (ايطاليا) من بناء الجيل الخامس عشر صورة الغزّالي بين صور غيره من الفلاسفة والقديسين واللاهوتيين الذين تعتبرهم أئمة الكنيسة في الاجيال الوسطى دعائم واعمدة في هيكل الروح المطلق

ولكن الأغرب من ذلك هو ان الغربيين يعرفون عن الغزّالي اكثر مما يعرفه الشرقيون . فهم يترجمونه و يبحثون في تعاليمه و يدققون النظر في منازعه الفلسفية ومراميه الصوفية . أما نحن ، نحن الذين لم نزل نتكلم اللغة العربية ونكتبها ، فقلما ذكرنا الغزّالي أو تحدثنا عنه . نحن لم نزل مشغولين بالاصداف كأن الاصداف هي كل ما يخرج من بحر الحياة الى شواطىء الايام والليالي



جرجي زيدان

.لقد مات زيدان ومات زيدان عظيم كحياته ، جليل كاعماله

لقد رقدت تلك الفكرة الكبيرة وحول مضجعها تحوم الآن سكينة توحي الهيبة والوقار وترتفع عن الحزن والبكاء

قد تملصت تلك الروح الطيبة ورحلت الى عالم نشعر به ولا ندركه وفي رحيلها عظة للباقين في قبضة الايام والليالي

قد تحرر ذلك الوجدان النبيل من متاعب العمل ومشاقه وسار ملتفاً برداء مجده الى حيث يتسامى العمل عن المشاق والمتاعب . قد ذهب زيدان الى حيث لا تراه العين ولا تسمعه الاذن — ولكن اذا كان زيدان قد انتقل الى احدى السيارات السابحة في بحر اللانهاية فهو الآن مشغول بنفع سكانها . منهمك بجمع معارفها · مأخوذ بجمال تاريخها . منصبٌ على درس لغاتها

هذا هو زيدان — فكرة متحمسة لا ترتاح الا الى العمل وروح ظامئة لا تنام الا على منكبي اليقظة وقلب كبير مفعم بالرقة والغيرة . فاذا كانت تلك الفكرة لا تزال كائنة بكيان العقل العام فهي تشتغل الآن مع العقل العام . واذا كانت تلك الروح موجودة بوجود النواميس فهي الآن تعمل مع النواميس . واذا كان ذلك القلب باقياً ببقاء الله فهو الآن ملتهب بشعلة الله

هذه هي حياة زيدان — ينبوع تدفق من صدر الوجود وصار نهراً صافياً يروي ما على جانبي الوادي من النبات والانصاب

وها قد بلغ النهر شاطىء البحر فأي متطفل يا ترى يجسر ان يندبه أو يرثيه

أوَ ليس الندب والنواح خليقين بالذين يقفون امام عرش الحياة ثم ينصرفون قبل أن يسكبوا في راحتيها قطرة من عرق جبينهم أو دم قلوبهم ؟

أوَ لم يصرف زيدان ثلاثين سنة مذيباً قلبه مستقطراً جبينه . وهل بيننا من لم يستقِ من تلك المجاري البلورية العذبة ؟

اذاً فمن شاء ان يكرم زيدان فليرفع نحو روحه ترنيمة الشكر وعرفان الجميل بدلا من ندبات الحزن والاسى

من شاء ان يكرم ذكر زيدان فليطلب قسمته من خزائن المعارف والمدارك التي جمعها زيدان وتركها ارثاً للعالم العربي

لا تعطوا الرجل الكبير بل خذوا منه وهكذا تكرمونه

لا تعطوا زيدان ندباً ورثاءً بل خذوا من مواهبه وعطاياه وهكذا تخلدون ذكره



المرحوم جرجي زيدان

مستقبل اللغة العربية

(١) ماهو مستقبل اللغة العربية ؟

انما اللغة مظهر من مظاهر الابتكار في مجموع الامة ، أو ذاتها العامة ، فاذا هجعت قوة الابتكار توقفت اللغة عن مسيرها ، وفي الوقوف التقهقر وفي التقهقر الموت والاندثار

اذاً فمستقبل اللغة العربية يتوقف على مستقبل الفكر المبدع الكائن — أو غير الكائن — في مجموع الامم التي تتكلم اللغة العربية . فان كان ذلك الفكر موجوداً كان مستقبل اللغة عظيماً كماضيها وان كان غير موجود فمستقبلها سيكون كحاضر شقيقتيها السريانية والعبرانية

وما هذه القوة التي ندعوها بقوة الابتكار ؟

هي في الامة عزم دافع الى الامام . هي في قلبها جوع وعطش وشوق الى غير المعروف ، وفي روحها سلسلة احلام تسعى الى تحقيقها ليلاً ونهاراً ولكنها لاتحقق حلقةً من احد طرفيها الا اضافت الحياة حلقةً جديدة في الطرف الآخر . هي في الافراد النبوغ وفي الجماعة الحماسة ، وما النبوغ في الافراد سوى المقدرة على وضع ميول الجماعة الخفية في اشكال ظاهرة محسوسة . ففي الجاهلية كان الشاعر يتأهب لان العرب كانوا في حالة التأهب ، وكان ينمو ويتمدد أيام المخضرمين لان العرب كانوا في حالة النمو والتمدد ، وكان يتشعب أيام المولدين لان الامة الاسلامية كانت في حالة التشعب . وظل الشاعر يتدرج ويتصاعد ويتلون فيظهر آناً كفيلسوف ، وآونة كطبيب ، وأخرى كفلكي حتى راود النعاسُ قوة الابتكار في اللغة العربية فنامت وبنومها تحول الشعراء الى ناظمين والفلاسفة الى كلاميين والاطباء الى دجالين والفلكيون الى منجمين

اذا صح ماتقدم كان مستقبل اللغة العربية رهن قوة الابتكار في مجموع الامم التي تتكلمها ، فان كان لتلك الامم ذات خاصة (أو وحدة معنوية) وكانت قوة الابتكار في تلك الذات قد استيقظت بعد نومها الطويل كان مستقبل اللغة العربية عظيماً كماضيها — والا فلا

* * *

(٢) وما عسى أن يكون تأثير التمدين الاوربي والروح الغربية فيها ؟

انما (التأثير) شكل من الطعام تتناوله اللغة من خارجها فتمضغه وتبتلعه وتحول الصالح منه الى كيانها الحي كما تحول الشجرة النور والهواء وعناصر التراب الى افنان فاوراق فازهار فاثمار . ولكن اذا كانت اللغة بدون اضراس تقضم ولا معدة تهضم فالطعام يذهب سدى بل ينقلب سماً قاتلاً : وكم من شجرة تحتال على الحياة وهي في الظل فاذا ما نقلت الى نور الشمس ذبلت وماتت . وقد جاء « من له يعطى ويزاد ومن ليس له يؤخذ منه »

وأما الروح الغربية فهي دور من ادوار الانسان وفصل من فصول حياته . وحياة الانسان موكب هائل يسير دائماً الى الامام ، ومن ذلك الغبار الذهبي المتصاعد من جوانب طريقه تتكوّن اللغات والحكومات والمذاهب : فالامم التي تسير في مقدمة هذا الموكب هي المبتكرة ، والمبتكر مؤثّر ، والامم التي تمشي في مؤخرته هي المقلدة ، والمقلد يتأثر ، فلما كان الشرقيون سابقين والغربيون لاحقين كان لمدنيتنا التأثير العظيم على لغاتهم ، وها قد اصبحوا هم السابقين وامسينا نحن اللاحقين فصارت مدنيتهم بحكم الطبع ذات تأثير عظيم على لغتنا وافكارنا واخلاقنا

بيدَ أن الغربيين كانوا في الماضي يتناولون ما نطبخه فيمضغونه ويبتلعونه محولين الصالح منه الى كيانهم الغربي ، أما الشرقيون في الوقت الحاضر فيتناولون ما يطبخه الغربيون ويبتلعونه ولكنه لا يتحول الى كيانهم بل يحولهم الى شبه غربيين ، وهي حالة اخشاها وأتبرم منها لانها تبين لي الشرق تارةً كعجوز فقد اضراسه وطوراً كطفل بدون اضراس !

ان روح الغرب صديق وعدو لنا . صديق اذا تمكنا منه وعدوٌّ اذا تمكن منا ، صديق اذا فتحنا له قلوبنا وعدو اذا وهبنا له قلوبنا ، صديق اذا اخذنا منه ما يوافقنا وعدو اذا وضعنا نفوسنا في الحالة التي توافقه

* * *

(٣) وما يكون تأثير التطور السياسي الحاضر في الاقطار العربية ؟

قد اجمع الكتاب والمفكرون في الغرب والشرق على ان الاقطار العربية في حالة التشويش السياسي والاداري والنفسي . ولقد اتفق اكثرهم على ان التشويش مجلبة الخراب والاضمحلال

اما انا فاسأل — هل هو تشويش أم ملل ؟

ان كان مللاً فالملل نهاية كل أمة وخاتمة كل شعب — الملل هو الاحتضار في صورة النعاس والموت في شكل النوم

وان كان بالحقيقة تشويشاً فالتشويش في شرعي ينفع دائماً لانه يبين ماكان خافياً في روح الامة ويبدل نشوتها بالصحو وغيبوبتها باليقظة ونظير عاصفة تهزّ بعزمها الاشجار لا لتقلعها بل لتكسر اغصانها اليابسة وتبعثر اوراقها الصفراء . واذ ما ظهر التشويش في أمة لم تزل على شيء من الفطرة فهو اوضح دليل على وجود قوة الابتكار في أفرادها والاستعداد في مجموعها . انما السديم أول كلمة من كتاب الحياة وليس بآخر كلمة منها ، وما السديم سوى حياة مشوشة

اذاً فتأثير التطور السياسي سيحول ما في الاقطار العربية من التشويش الى نظام ، وما في داخلها من الغموض والاشكال الى ترتيب والفة ، ولكنه لا ولن يبدل مللها بالوجد وضجرها بالحماسة ، ان الخزّاف يستطيع ان يصنع من الطين جرةً للخمر أو للخل ولكنه لا يقدر ان يصنع شيئاً من الرمل والحصى

* * *

(٤) هل يعم انتشار اللغة العربية في المدارس العالية وغير العالية وتعلم بها جميع العلوم ؟

لا يعم انتشار اللغة في المدارس العالية وغير العالية حتى تصبح تلك المدارس ذات صبغة وطنية مجردة ، ولن تعلم بها جميع العلوم حتى تنتقل المدارس من ايدي الجمعيات الخيرية واللجان الطائفية والبعثات الدينية الى ايدي الحكومات المحلية

ففي سوريا مثلاً كان التعليم يأتينا من الغرب بشكل الصدقة ، وقد كنا ولم نزل نلتهم خبز الصدقة لاننا جياع متضورون ، ولقد أحيانا ذلك الخبز ، ولما أحيانا

أماتنا . أحيانا لانه أيقظ جميع مداركنا ونبه عقولنا قليلاً ، وأماتنا لانه فرق كلمتنا وأضعف وحدتنا وقطع روابطنا وأبعد ما بين طوائفنا حتى أصبحت بلادنا مجموعة مستعمرات صغيرة مختلفة الاذواق متضاربة المشارب كل مستعمرة منها تشد في حبل احدى الامم الغربية وترفع لواءها وتترنم بمحاسنها وامجادها . فالشاب الذي تناول لقمة من العلم في مدرسة أميركية قد تحول بالطبع الى معتمد أميركي ، والشاب الذي تجرع رشفة من العلم في مدرسة يسوعية صار سفيراً افرنسياً ، والشاب الذي لبس قميصاً من نسيج مدرسة روسية أصبح ممثلاً لروسيا . . الى آخر ما هناك من المدارس وما تخرجه في كل عام من الممثلين والمعتمدين والسفراء . وأعظم دليل على ما تقدم اختلاف الآراء وتباين المنازع في الوقت الحاضر في مستقبل سوريا السياسي . فالذين درسوا بعض العلوم باللغة الانكليزية يريدون اميركا وانكلترا وصية على بلادهم ، والذين درسوها باللغة الافرنسية يطلبون فرنسا أن تتولى أمرهم ، والذين لم يدرسوا بهذه اللغة أو بتلك لا يريدون هذه الدولة ولا تلك بل يتبعون سياسة أدنى الى معارفهم واقرب الى مداركهم

وقد يكون ميلنا السياسي الى الامة التي نتعلم على نفقتها دليلاً على عاطفة عرفان الجميل في نفوس الشرقيين ، ولكن ما هذه العاطفة التي تبني حجراً من جهة واحدة وتهدم جداراً من الجهة الاخرى ؟ ما هذه العاطفة التي تستنبت زهرة وتقتلع غابة ؟ ماهذه العاطفة التي تحيينا يوماً وتميتنا دهراً ؟

ان المحسنين الحقيقيين وأصحاب الاريحية في الغرب لم يضعوا الشوك والحسك في الخبز الذي بعثوا به الينا ، فهم بالطبع قد حاولوا نفعنا لا الضرر بنا . ولكن كيف تولد ذلك الشوك ومن أين أتى ذلك الحسك ؟ هذا بحث آخر أتركه الى فرصة أخرى

نعم سوف يعم انتشار اللغة العربية في المدارس العالية وغير العالية وتعلم بها جميع العلوم فتتوحد ميولنا السياسية وتتبلور منازعنا القومية لان في المدرسة تتوحد الميول وفي المدرسة تتجوهر المنازع ، ولكن لا يتم هذا حتى يصير بامكاننا تعليم الناشئة على نفقة الامة . لا يتم هذا حتى يصير الواحد منا ابناً لوطن واحد بدلاً من وطنين متناقضين

أحدهما لجسده والآخر لروحه . لا يتم هذا حتى نستبدل خبز الصدقة بخبز معجون في بيتنا ، لان المتسول المحتاج لا يستطيع أن يشترط على المتصدق الاريحي . ومن يضع نفسه في منزلة الموهوب لا يستطيع معارضة الواهب ، فالموهوب مسيَّر دائماً والواهب مخير أبداً

* * *

(٦) وهل تتغلب (اللغة العربية الفصحى) على اللهجات العامية المختلفة وتوحدها ؟

ان اللهجات العامية تتحور وتتهذب ويُدلك الخشن فيها فيلين ولكنها لا ولن تغلب — ويجب ألاّ تغلب — لأنها مصدر ما ندعوه فصيحاً من الكلام ومنبت ما نعده بليغاً من البيان

ان اللغات تتبع مثل كل شيء آخر سنةَ بقاء الانسب ، وفي اللهجات العامية الشيء الكثير من الانسب الذي سيبقى لانه أقرب الى فكرة الامة وأدنى الى مرامي ذاتها العامة : قلت انه سيبقى وأعني بذلك انه سيلتحم بجسم اللغة ويصير جزءاً من مجموعها

لكل لغة من لغات الغرب لهجات عامية ، ولتلك اللهجات مظاهر أدبية وفنية لا تخلو من الجميل المرغوب والجديد المبتكر ، بل في أوربا وأميركا طائفة من الشعراء الموهوبين الذين تمكنوا من التوفيق بين العامي والفصيح في قصائدهم وموشحاتهم فجاءت بليغة ومؤثرة : وعندي أن في الموالي والزجل و «العتابا» و «المعنى» من الكنايات المستجدة والاستعارات المستملحة والتعابير الرشيقة المستنبطة ما لو وضعناه بجانب تلك القصائد المنظومة بلغة فصيحة ، والتي تملأ جرائدنا ومجلاتنا ، لبانت كباقة من الرياحين بقرب رابية من الحطب ، أو كسرب من الصبايا الراقصات المترنمات قبالة مجموعة من الجثث المحنطة

لقد كانت اللغة الايطالية الحديثة لهجةً عامية في القرون المتوسطة ، وكان الخاصة يدعونها بلغة « الهمج » ، ولكن لما نظم بها دانتي و بترارك وكامونس وفرنسيس داسيزي قصائدهم وموشحاتهم الخالدة أصبحت تلك اللهجة لغة ايطاليا الفصحى وصارت اللاتينية بعد ذلك هيكلاً يسير ولكن في نعش على اكتاف الرجعيين . . وليست اللهجات العامية في مصر وسوريا والعراق أبعد عن لغة المعري والمتنبي من لهجة «الهمج»

. الايطالية عن لغة أوفيـدي وفرجيل . فاذا ما ظهر في الشرق الادنى عظيم ووضع كتاباً عظيماً في احدى تلك اللهجات تحولت هـذه الى لغة فصحى : بيد أني أستبعد حدوث ذلك في الاقطار العربية لان الشرقيين أشد ميلاً الى الماضي منهم الى الحاضر أو المستقبل ، فهم المحافظون ، على معرفة منهم أو على غير معرفة ، فان قام كبير بينهم لزم في اظهار مواهبه السبل البيانية التي سار عليها الاقدمون ، وما سبل الاقدمين سوى اقصر الطرقات بين مهد الفكر ولحده

* * *

(٧) وما هي خير الوسائل لاحياء اللغة العربية ؟

أن خير الوسائل ، بل الوسـيلة الوحيدة لاحياء اللغة هي في قلب الشاعر وعلى شفتيه و بين أصابعه ، فالشاعر هو الوسيط بين قوة الابتكار والبشر ، وهو السلك الذي ينقل ما يحدثه عالم النفس الى عالم البحث ، وما يقرره عالم الفكر الى عالم الحفظ والتدوين

الشاعر أبو اللغة وأمها ، تسير حيثما يسـير وتربض أينما يربض ، واذا ما قضى جلست على قبره باكية منتحبة حتى يمر بها شاعر آخر و يأخذ بيدها

واذا كان الشاعر ابا اللغة وأمها فالمقلد ناسج كفنها وحفار قبرها

اعني بالشاعر كل مخترع كبيراً كان أو صغيراً ، وكل مكتشف قوياً كان أو ضعيفاً ، وكل مختلق عظيماً كان أو حقيراً ، وكل محب للحياة المجردة إماماً كان أو صعلوكاً ، وكل من يقف متهيباً أمام الايام والليـالي فيلسوفاً كان أو ناطوراً للكروم

أما المقلد فهو الذي لا يكتشف شيئاً ولا يختلق أمراً بل يستمد حياته النفسـية من معاصريه و يصنع أثوابه المعنوية من رقع يجزها من أثواب من تقدمه

أعني الشاعر ذلك الزارع الذي يفلح حقله بمحراث يختلف ولو قليلاً عن المحراث الذي ورثه عن أبيه فيجيء بعده من يدعو المحراث الجديد باسم جديد ، وذلك البستاني الذي يستنبت بين الزهرة الصفراء والزهرة الحمراء زهرة ثالثة برتقاليـة اللون فيأتي بعده من يدعو الزهرة الجديدة باسم جديد ! وذلك الحائك الذي ينسج على نوله نسيجاً ذا رسوم وخطوط تختلف عن الاقمشة التي يصنعها جيرانه الحائكون فيقوم من يدعو نسيجه

هذا باسم جديد . أعني بالشاعر الملاح الذي يرفع لسفينة ذات شراعين شراعاً ثالثاً ، والبنّاء الذي يبني بيتاً ذا بابين ونافذتين بين بيوت كلها ذات باب واحد ونافذة واحدة ، والصباغ الذي يمزج الالوان التي لم يمزجها أحد قبله فيستخرج لوناً جديداً ، فيأتي بعد الملاّح والبناء والصباغ من يدعو ثمار أعمالهم بأسماء جديدة فيضيف بذلك شراعاً الى سفينة اللغة ونافذةً الى بيت اللغة ولوناً الى ثوب اللغة

أما المقلد فهو ذاك الذي يسير من مكان الى مكان على الطريق التي سار عليها ألف قافلة وقافلة ولا يحيد عنها مخافة أن يتيه ويضيع ، ذاك الذي يتبع بمعيشته وكسب رزقه ومأكله ومشربه وملبسه تلك السبل المطروقة التي مشى عليها ألف جيل وجيل فتظل حياته كرجع الصدى ويبقى كيانه كظل ضئيل لحقيقة قصية لا يعرف عنها شيئاً ولا يريد ان يعرف

أعني بالشاعر ذلك المتعبد الذي يدخل هيكل نفسه فيجثو باكياً فرحاً نادباً مهللاً مصغياً مناجياً ثم يخرج وبين شفتيه ولسانه اسماء وأفعال وحروف واشتقاقات جديدة لاشكال عبادته التي تتجدد في كل يوم وانواع انجذابه التي تتغير في كل ليلة فيضيف بعمله هذا وترًا فضياً لى قيثارة اللغة وعودًا طيباً الى موقدها

أما المقلد فهو الذي يردد صلاة المصلين وابتهال المبتهلين بدون ارادة ولا عاطفة فيترك اللغة حيث يجدها والبيان الشخصي حيث لا بيان ولا شخصية

اعني بالشاعر ذاك الذي ان احب امرأة انفردت روحه وتنحت عن سبل البشر لتلبس احلامها أجسادًا من بهجة النهار وهول الليل وولولة العواصف وسكينة الاوديه ثم عادت لتضفر من اختباراتها أكاليلاً لرأس اللغة وتصوغ من اقتناعها قلادة لعنق اللغة

أما المقلد فمقلد حتى في حبه وغزله وتشبيبه فان ذكر وجه حبيبته وعنقها قال « بدر وغزال » وان خطر على باله شعرها وقدها ولحظها قال « ليل وغصن بان وسهام » وان شكا قال « جفنٌ ساهرٌ وفجرٌ بعيد وعذولٌ قريب » وان شاء أن يأتي بمعجزة بيانية قال « حبيبتي تستمطر لؤلؤ الدمع من نرجس العيون لتسقي ورد الخدود وتعضّ على عناب

انامِلها ببرد أسنانها » . يترنم صاحبنا الببغاء بهذه الاغنية العتيقة وهو لا يدري انه يسمم بيلادته دسم اللغة ويمتهن بسخافته وابتذاله شرفها ونبالتها .

قد تكلمت عن المستنبط ونفعه والعقيم وضرره ولم أذكر أولئك الذين يصرفون حياتهم بوضع القواميس وتأليف المطولات وتشكيل المجامع اللغوية — لم أقل كلمة عن هؤلاء لاعتقادي بانهم كالشاطىء بين مدّ اللغة وجزرها وان وظيفتهم لا تتعدى حد الغربلة — والغربلة وظيفة حسنة ولكن ما عسى يغربل المغربلون اذا كانت قوة الابتكار في الامة لا تزرع غير الزوان ولا تحصد الا الهشيم ولا تجمع على بيادرها سوى الشوك والقطرب ؟

أقول ثانية أن حياة اللغة وتوحيدها وتعميمها وكل ما له علاقة بها قد كان وسيكون رهن خيال الشاعر . فهل عندنا شعراء ؟

نعم عندنا شعراء ، وكل شرقي يستطيع أن يكون شاعراً في حقله وفي بستانه وأمام نوله وفي معبده وفوق منبره وبجانب مكتبته . كل شرقي يستطيع أن يعتق نفسه من سجن التقليد والتقاليد ويخرج الى نور الشمس فيسير في موكب الحياة . كل شرقي يستطيع أن يستسلم الى قوة الابتكار المختبئة في روحه — تلك القوة الازلية الابدية التي تقيم من الحجارة ابناء لله

أما اولئك المنصرفون الى نظم مواهبهم ونثرها فلهم أقول : ليكن لكم من مقاصدكم الخصوصية مانعاً عن اقتفاء أثر المتقدمين فخير لكم وللغة العربية أن تبنوا كوخاً حقيراً من ذاتكم الوضعية من أن تقيموا صرحاً شاهقاً من ذاتكم المقتبسة . ليكن لكم من عزة نفوسكم زاجراً عن نظم قصائد المديح والرثاء والتهنئة فخير لكم وللغة العربية أن تموتوا مهملين محتقرين من أن تحرقوا قلوبكم بخوراً أمام الانصاب والاصنام . ليكن لكم من حماستكم القومية دافعاً الى تصوير الحياة الشرقية بما فيها من غرائب الالم وعجائب الفرح فخير لكم وللغة العربية أن تتناولوا أبسط ما يتمثل لكم من الحوادث في محيطكم وتلبسوها حلة من خيالكم من أن تعرّبوا أجل وأجمل ما كتبه الغربيون

الفارض

كان عمر بن الفارض شاعراً ر بانياً . وكانت روحه الظمآنة تشرب من خمرة الروح فتسكر ثم تهيم سابحة ، مرفرفة في عالم المحسوسات حيث تطوف أحلام الشعراء وأميال العشاق وأماني المتصوفين . ثم يفاجئها الصحو فتعود الى عالم المرئيات لتـدون ما رأته وسمعته بلغة جميلة مؤثرة ، لكنها غير خالية في بعض الاحايين من ذلك التعقيد اللفظي المعروف بالبديع ، وهو في شرعي ليس بالبديع

ولكن اذا وضعنا صناعة الفارض جانباً ونظرنا الى فنه المجرد وما وراء ذلك الفن من المظاهر النفسية وجدناه كاهناً في هيكل الفكر المطلق ، أميراً في دولة الخيال الوسيع ، قائداً في جيش المتصوفين العظيم — ذلك الجيش السائر بعزم بطيء نحو مدينة الحق ، المتغلب في طريقه على صغائر الحياة وتوافهها ، المحدق ابداً بهيبة الحياة وجلالها .

وقد عاش الفارض في زمن خال من التوليد العقلي والاحـداث النفسي بين قوم منصرفين الى التقليد والتقاليد ، مشغولين باستفسار واستيضاح ما تركه الاسلام من الامجاد الادبية والفلسفية . غير ان النبوغ — والنبوغ معجزة الهية — قد صار بشاعر الحوي فتنحى عن زمنه وعن محيطه واختلى بذاته لينظم ما يتراءى لذاته شعراً ابدياً يصل ما ظهر من الحياة بما خفي منها .

ولم يتناول الفارض مواضيعه من ماجريات يومه كما فعل المتنبي ، ولم تشغله معميات الحياة وأسرارها كما شغلت المعري ، بل كان يغمض عينيه عن الدنيا ليرى ما وراء الدنيا ، و يغلق أذنيه عن ضجة الارض ليسمع أغاني اللانهاية .

هذا هو الفارض — روح نقية كاشعة الشمس وقلب متقد كالنار ، وفكرة صافية كبحيرة بين الجبال . وهو إن كان دون الجاهليين عزماً وأقل من المولدين ظرفاً ففي شعره ما لم يحلم به الأولون ولم يبلغه المتأخرون



العارف بالله شرف الدين

لجبران خليل جبران

« عمر بن الفارض »

حفار القبور

في وادي ظل الحيـاة ، المرصوف بالعظام والجماجم ، سرت وحيداً في ليلة حجب الضباب نجومها ، وخامر الهول سكينتها .

هناك ، على ضفاف نهر الدماء والدموع ، المنساب كالحية الرقطاء ، المتراكض كأحلام المجرمين ، وقفت مصغياً لهمس الاشباح ، محدقاً باللاشيء

ولما انتصف الليل وقد خرجت مواكب الارواح من اوكارها ، سمعت وقع أقدام ثقيلة تقترب مني ، فالتفتُّ واذا بشبح جبار مهيب منتصب أمامي ، فصرخت مذعوراً . « ماذا تريد مني ؟ »

فنظر اليَّ بعينين مشعشعتـين كالسراج ثم أجاب بهدوء « لا أريد شيئاً وأريد كل شيء »

قلت « دعني وشأني وسر في سبيلك »

فقال متبسماً « سبيلي سبيلك » فانا سائر حيث تسير ورابض حيث تربض »

قلت « جئت أطلب الوحدة فخلني ووحدتي »

فقال « أنا الوحدة نفسها فلماذا تخافني ؟ »

قلت « لست بخائف منك »

فقال « ان لم تكن خائفا فلماذا ترجف مثل قصبة الريح ؟ »

قلت « ان الهواء يتلاعب باثوابي أما أنا فلا ارتجف »

فضحك مقهقهاً بصوت يضارع ضجيج العاصفة ثم قال

« انت جبان تخافني وتخاف ان تخافني فخوفك مزدوج ولكنك تحاول اخفاءه عني وراء خداع أوهى من خيوط العنكبوت فتضحكني وتغيظني »

ثم جلس على الصخر فجلست قسر أرادتي محدقا بملامحه المهيبة

و بعد هنيهة خلتها ألف عام نظر اليَّ مستهزئاً وسألني قائلاً « ما اسمك »

قلت « اسمي عبد الله »

فقال « ما أكثر عبيد الله وما أعظم متاعب الله بعبيده ، فهلاّ دعوت نفسك سيد الشياطين واضفت بذلك الى مصائب الشياطين مصيبةً جديدة »

قلت « اسمي عبد الله وهو اسم عزيز أعطاني إياه والدي يوم ولادتي فلن ابدله باسم آخر »

فقال « ان بلية الأبناء في هبات الآباء ، ومن لايحرم نفسه من عطايا آبائه واجداده يظل عبد الاموات حتى يصير من الاموات »

فحنيت رأسي مفكراً بكلماته ، مسترجعاً الى حافظتي رسوم أحلام شبيهة بحقيقته ثم عاد وسألني قائلاً : « وما صناعتك ؟ »

قلت « أنظم الشعر وأنثره ولي في الحياة آراء أطرحها على الناس »

فقال « هذه مهنة عتيقة مهجورة لا تنفع الناس ولا تضرهم »

قلت « وماذا عسى أن أفعل بأيامي ولياليّ لأنفع الناس »

فقال « اتخذ حفر القبور صناعة تريح الاحياء من جثث الاموات المكردسة حول منازلهم ومحاكمهم ومعابدهم »

قلت « لم أرَ قط جثث الاموات مكردسة حول المنازل »

فقال « أنت تنظر بعين الوهم فترى الناس يرتعشون امام عاصفة الحيـاة فتظنهم أحياء وهم أموات منذ الولادة ولكنهم لم يجدوا من يدفنهم فظلوا منطرحين فوق الثرى ورائحة النتن تنبعث منهم »

قلت وقد ذهب عني بعض الوجل « كيف اميز بين الحي والميت وكلاهما يرتعش امام العاصفة ؟ »

فقال « إن الميت يرتعش أمام العاصفـة أما الحي فيسير معها راكضاً ولا يقف الا بوقوفها »

واتكأ اذ ذاك على ساعده فبـانت عضلاته المحبوكة كاصول سنديانة مملوءة بالعزم

قلت « نعم وزوجتي امرأة حسناء وأنا كلفٌ بها »

فقال « ما أكثر ذنوبك ومساوئك ، انما الزواج عبودية الانسان لقوة الاستمرار فان شئت ان تتحرر فطلّق امرأتك وعش خالياً »

قلت « لي ثلاثة أولاد كبيرهم يلعب بالاكر وصغيرهم يلوك الكلام ولا يلفظه فماذا أفعل بهم ؟ »

فقال « علمهم حفر القبور ، واعطِ كلاً منهم رفشا ثم دعهم وشأنهم »

قلت « ليس لي طاقة على الوحدة والانفراد فقد تعودت لذة العيش بين زوجتي وصغاري فان تركتهم تركتني السعادة »

فقال « ما حياة المرء بين زوجته وأولاده سوى شقاء أسود مستتر وراء طلاء أبيض . ولكن ان كان لا بد من الزواج فاقترن بصبية من بنات الجن »

قلت مستغرباً « ليس للجن حقيقة فلماذا تخدعني »

فقال « ما أغباك فتى ، ليس لغير الجن حقيقة ومن لم يكن من الجن كان في عالم الريب والالتباس »

قلت « وهل لصبايا الجن ظرف وجمال »

فقال « لهنَّ ظرف لا يزول وجمال لا يذبل »

قلت « أرني جنية فاقتنع »

فقال « لو كان بامكانك ان ترى الجنية وتلمسها لما اشرت عليك بزواجها »

قلت « وما النفع من زوجة لا ترى ولا تمس ؟ »

فقال « هو نفع بطيء ينتج عنه انقراض المخاليق والاموات الذين يختلجون أمام العاصفة ولا يسيرون معها »

وحوّل وجهه عني دقيقة ثم عاد وسألني قائلاً : « وما دينك »

قلت « أومن بالله وأكرم أنبياءه وأحب الفضيلة ولي رجاء بالآخرة »

فقال « هذه الفاظ رتبتها الاجيال الغابرة ثم وضعها الاقتباس بين شفتيك . أما الحقيقة المجردة فهي أنك لا تؤمن بغير نفسك ولا تكرم سواها ولا تهوى غير أميالها

ولا رجاء لك الا بخلودها . منذ البدء والانسان يعبد نفسه ولكنه يلقبها بأسماء مختلفة باختلاف أمياله وأمانيه ، فتارة يدعوها البعل وطوراً المشتري وأخرى الله »

ثم ضحك فانفرجت ملامحه تحت نقاب من الهزء والسخرية وزاد قائلاً : « ولكن ما أغرب الذين يعبدون نفوسهم ونفوسهم جيفة منتنة »

ومرت دقيقة وأنا أفكر بأقواله فأجد فيهـا معاني أغرب من الحياة وأهول من الموت وأعمق من الحقيقة . حتى اذا ما تاهت فكرتي بين مظـاهره ومزاياه ، صرخت قائلاً : « ان كان لك رب فبربك قل من أنت »

قال « أنا رب نفسي »

فقلت « وما اسمك ؟ »

قال « الإله المجنون »

فقلت « وأينَ ولدت ؟ »

قال « في كل مكان »

فقلت « وأي متى ولدت ؟ »

قال « في كل زمان »

فقلت «ممن تعلمت الحكمة ، ومن ذا الذي باح لك بأسرار الحياة وبواطن الوجود ؟ »

قال « لست بحكيم فالحكمة صفة من صفـات البشر الضعفاء بل انا مجنون قوي أسير فتميد الأرض تحت قدميّ واقف فتقف معي مواكب النجوم وقد تعلمت الاستهزاء بالبشر من الابالسة ، وفهمت اسرار الوجود والعدم بعد ان عاشرت ملوك الجن ورافقت جبابرة الليل »

فقلت « وماذا تفعل في هذه الاودية الوعرة وكيف تصرف أيامك ولياليك ؟ »

قال « في الصباح أجدف على الشمس ، وعند الظهيرة العن البشر ، وفي المساء أسخر بالطبيعة ، وفي الليل أركع امام نفسي وأعبدها » .

فقلت « وماذا تأكل وماذا تشرب وأين تنام ؟ » .

قال « أنا والزمان والبحر لا ننـام ولكننا نأكل أجسـاد البشر ونشرب دماءهم ونتحلى بلهاثهم »

وانتصب اذ ذاك مبكلاً ذراعيه على صـدره ثم أحدق بعينيّ وقال بصوت عميق هادىء « الى اللقاء فأنا ذاهب الى حيث تلتئم الغيلان والجبابرة »

فهتفت قائلاً : « امهلني دقيقة فلي سؤال آخر »

فأجاب وقد انحجب بعض قامته بضباب الليل « ان الآلهة المجانين لا يمهلون أحداً ، فإلى اللقاء »

واختفى عن بصري وراء ستار الدجى وتركني خائفاً طائشاً محتاراً به و بنفسي

ولما حولت قدميّ عن ذلك المكان سمعت صوتهُ متموجاً بين تلك الصخور الباسقة قائلاً : « الى اللقاء — الى اللقاء »

وفي اليوم التـالي طلَّقت امرأتي وتزوجت صبية من بنات الجن ، ثم أعطيت كل واحد من أطفالي رفشا ومحفراً وقلت لهم اذهبوا وكلما رأيتم ميتاً واروه في التراب »

ومن تلك الساعة الى الآن وأنا أحفر القبور والحد الاموات . غير أن الاموات كثيرون وأنا وحدي وليس من يسعفني !



العاصفة

١

كان يوسف الفخري في الثلاثين من عمره عند ما ترك العالم وما فيه وجاء ليعيش وحيداً متزهـداً صامتاً في تلك الصومعة المنفردة القائمة على كتف وادي قاديشا في شمال لبنان .

وقد اختلف سكان القرى المجاورة في أمره فمنهم من قال — « هو ابن أسرة شريفة مثرية وقد أحب امرأة فخانت عهده فهجر الديار وطلب الخلوة توصلاً الى السلوان » . ومنهم من قال — « هو شاعر خيالي قد انصرف عن ضجـة الاجتماع ليدون افكاره وينظم عواطفه » . ومنهم من قال — « هو متصوف متعبد قد اقتنع بالدين دون الدنيا » . ومنهم من اكتفى بقوله — « هو مجنون »

اما أنا فلم أكن من رأي هذا ولا ذاك لعلمي أن في داخل الارواح اسراراً غامضة لا تكشفها الظنون ولا يبوح بها التخمين . غير انني كنت أتمنى لقاء هذا الرجل الغريب وأشتهي محادثته . وقد حاولت مرتين التقرب اليه لاستطلع حقيقته واستفسر مقاصده وأمانيه . فلم أظفر منـه بسوى نظرات حادة وبعض ألفاظ تدل على الجفاء والبرودة والترفع . ففي المرة الاولى ، وقد لقيته سائراً بقرب غابة الارز ، حييته باحسن ما حضرني من الكلام فلم يرد التحية الا بهز رأسه ثم تحول عني مسرعاً . وفي المرة الثانية وجدته واقفاً في وسط كرمة صغيرة بقرب صومعة فدنوت منه قائلاً « قد سمعت بالامس أن هـذه الصومعة بناها ناسك سرياني في القرن الرابع عشر فهل لك علم بذلك يا سيدي ؟ »

فاجاب بلهجة خشنة « لا أعلم من بنى هذه الصومعة ولا أريد أن أعلم » ثم ادار لي ظهره وزاد ساخراً « لمـاذا لا تسأل جدتك فهي أقدم عهداً وأكثر علماً بتاريخ هذه الأودية » فتركته مكسوفاً نادماً على تطفلي

وهكذا مرّ عامان وحياة هذا الرجل المكتنفة بالاسرار تراود خيالي وتمايل مع أفكاري وأحلامي :

٢

ففي يوم من أيام الخريف وقد كنت متجولاً بين تلك التلول والمنحدرات المجاورة لصومعة يوسف فخري ، فاجأتني العاصفة باهوائها وأمطارها وأخذت تتلاعب بي مثلما يتلاعب البحر الهائج بمركب كسرت الامواج دفته ومزقت الريح شراعه ، فتحولت نحو الصومعة قائلاً في نفسي — هذه فرصة موافقة لزيارة هذا المتنسك وستكون العاصفة عذري وأثوابي البليلة شفيعي .

بلغت الصومعة وأنا في حالة يرثى لها ولم أطرق الباب حتى ظهر أمامي الرجل الذي طالما تشوقت الى لقائه حاملاً بيده طائراً مهشم الرأس منبوش الريش وهو يختلج كأنه على آخر رمق من الحياة . فقلت بعد أن حييته « اعذرني يا سيدي على مجيئي اليك في هذه الحالة ولكن العاصفة شديدة وأنا بعيد عن المنازل »

فتفرس فيّ عابساً وأجاب بصوت يساوره الاستنكاف — « الكهوف كثيرة في هذه النواحي وقد كان بامكانك الالتجاء اليها »

قال هذا وهو يلامس رأس الطائر بانعطاف لم أرَ مثله في حياتي فعجبت لمرأى الضدين — الرأفة والخشونة — في وقت واحد وتحيرت في أمري . وكأنه قد علم بما يخالج ضميري فنظر اليّ نظرة استيضاح واستعلام ثم قال — « ان العاصفة لا تأكل اللحوم الحامضة فلمَ تخافها وتهرب منها »

فاجبته — « العاصفة لا تحب الحوامض ولا الموالح ولكنها تميل الى الرطب البارد ولا أشك بانها ستجدني لقمة لذيذة اذا قبضت عليّ ثانية »

فقال وقد انفرجت ملامحه قليلاً — « لو مضغتك العاصفة لقمة لحصلت على شرف رفيع لا تستحقه »

فاجبته — « نعم يا سيدي ، ولقد جئت اليك هارباً من العاصفة لكي لا أنال ذلك الشرف الذي لا أستحقه ! »

فحول وجهه محاولاً اخفاء ابتسامة ضئيلة ، ثم أشار نحو مقعد خشبي بقرب موقد تأجج فيه النار وقال — « اجلس وجفف أثوابك »

فجلست بقرب النار شاكراً وجلس هو قبالتي على مقعد محفور في الصخر وأخذ يغمس أطراف أصابعه بمزيج زيتي في طاسة فخارية ويدهن بها جانح الطائر ورأسه المجروح ، ثم التفت نحوي قائلاً — « قد دفعت الريح هذا الشحرور فهبط على الصخور بين حي وميت »

فقلت « والريح قد حملتني أيضاً الى بابك يا سيدي وأنا للآن لا أدري ما اذا كانت قد كسرت جانحي أو هشمت رأسي »

فنظر الى وجهي بشيء من الاهتمام وقال — « حبذا لو كان للانسان بعض أطباع الطيور . حبذا لو كسرت العواصف أجنحة البشر وهشمت رؤوسهم . ولكن الانسان مطبوع على الخوف والجبانة فهو لا يرى العاصفة مستيقظة حتى يختبيء في شقوق الارض ومغاورها »

فقلت وقصدي متابعة الحديث — « نعم ان للطير شرفاً ليس للانسان ، فالانسان يعيش في ظلال شرائع وتقاليد ابتدعها لنفسه أما الطيور فتحيا بحسب الناموس الكلي المطلق الذي يسير بالارض حول الشمس »

فلمعت عيناه وانبسطت ملامحه كأنه وجد بي تلميذاً سريع الفهم ثم قال — « أحسنت ، أحسنت ، فاذا كنت تعتقد حقيقة بما تقول فاترك الناس وتقاليدهم الفاسدة وشرائعهم التافهة وعش كالطيور في مكان بعيد خال الا من ناموس الارض والسماء »

فقلت — « اني أعتقد بما أقول يا سيدي »

فرفع يده وقال بصوت يمازجه التعنت والتصلب — « الاعتقاد شيء والعمل به شيء آخر . كثيرون هم الذين يتكلمون كالبحر أما حياتهم فشبيهة بالمستنقعات . كثيرون هم الذين يرفعون رؤوسهم فوق قمم الجبال أما نفوسهم فتبقى هاجعة في ظلمة الكهوف »

قال هذا ولم يدع لي فرصة للكلام بل قام من مكانه ومدد الشحرور على جبة قديمة بقرب النافذة ثم تناول رزمة من القضبان اليابسة وألقاها في الموقد قائلاً —

« اخلع حذاءك وجفف قدميك فالرطوبة أضرُّ بالانسان من كل شيء آخر . جفف أثوابك جيداً ولا تكن خجولاً »

فاقتربت من النار والبخار يتصاعد من أثوابي الرطبة . أما هو فوقف في باب الصومعة محدقاً بالفضاء الغضوب .

و بعد هنيهة سألته قائلاً — « هل جئت الى هذه الصومعة منذ زمن بعيد ؟ »

فاجاب بدون أن يلتفت نحوي — « جئت الى هذه الصومعة عند ما كانت الارض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه »

فسكتُّ قائلاً في سري — « ما أغرب هذا الرجل وما أصعب السبيل الى حقيقته ، ولكن لا بد من محادثته ومعرفة خفايا روحه ، وسوف أصبر حتى يتحول شموخه الى اللين والدعة .

٣

وغمر الليل تلك البطاح بردائه الاسود ونمت العاصفة وغزرت الامطار حتى خيل لي ان الطوفان قد جاء ثانية ليبيد الحياة و يطهر الارض من أدرانها وكأن ثورة العناصر قد ولدت في نفس يوسف الفخري تلك الطمأنينة التي تجيء في بعض الاحايين مظهراً لرد الفعل فتحول نفوره مني الى الاستئناس بي ، فقام وأشعل شمعتين ثم وضع أمامي جرّة طافحة بالخمر وطبقاً عليه الخبز والجبن والزيتون والعسل و بعض الأثمار المجففة ، ثم جلس قبالتي وقال بلطف : « هذا كل ماعندي من الزاد فتفضل ياأخي وشاركني به »

تناولنا العشاء صامتين صاغين الى ولولة الريح و بكاء الامطار ، غير انني كنت أتبصر وجهه بين اللقمة والاخرى ، مستفسراً ملامحه عن غوامضه ، سائلاً معانيه عن الميول والمقاصد المستحكمة بوجدانه .

و بعد ان رفع المائدة تناول من جانب الموقد ابريقاً نحاسياً وصبَّ منه قهوة صافية زكية الرائحة في فنجانين ثم فتح علبة مفعمة بلفائف التبغ وقال بهدوء . « تفضل يا أخي »

فأخذت لفافة رافعاً بيدي فنجان القهوة وأنا لا أصدق ما تراه عيني فنظر اليَّ وكأنه قد سمعني مفكراً فابتسم هازاً رأسه ثم قال بعد ان أشعل لفافة وشرب قليلاً من

القهوة ، انت بالطبع تستغرب وجود الخمر والتبغ والقهوة في هذه الصومعة . وقد تستغرب وجود الطعام والفراش ، وانا لا ألومك فأنت واحد من الكثيرين الذين يتوهمون ان البعد عن البشر يستوجب البعد عن الحياة وما في الحياة من الملذات الطبيعية والمسرات البسيطة »

فأجبته « نعم يا سيدي فقد تعودنا الاعتقاد بأن من يتنحى عن العالم ليعبد الله يترك وراءَهُ كل ما في العالم من الملذات والمسرات ليعيش وحده متنسكاً متقشفاً مستكفياً بالماء والاعشاب »

فقال — « لقد كان بإمكاني عبادة الله وأنا بين خلقه لان العبادة لا تستلزم الوحدة والانفراد وانا لم اترك العالم لاجد الله لانني كنت أجده في بيت ابي وفي كل مكان آخر ، ولكنني هجرت الناس لان أخلاقي لاتنطبق على اخلاقهم وأحلامي لاتتفق مع أحلامهم ، تركت البشر لانني وجدت نفسي دولاباً يدور يمنةً بين دواليب تدور يساراً ، تركت المدينة لانني وجدتها شجرة مسنة فاسدة قوية هائلة عروقها في ظلمة الارض وغاصانها تتعالى الى ما وراء الغيوم ، أما أزاهرها فمطامع وشرور وجرائم وأما أثمارها فويل وشقاء وهموم . وقد حاول بعض المصلحين تطعيمها وتغيير طبيعتها فلم يفلحوا بل ماتوا قانطين مضطهدين مغلوبين على أمرهم »

واتكأ اذ ذاك الى جانب الموقد وكأنه قد وجد لذة في تأثير كلامه عليَّ فرفع صوته أكثر من ذي قبل وزاد قائلاً : « لا ، لم أطلب الوحدة للصلاة والتنسك ، لان الصلاة ، وهي أغنية القلب ، تبلغ آذان الله وان تصاعدت ممزوجة بصياح ألوف الالوف ، واما التنسك ، وهو قهر الجسد وامانة رغائبه ، فمسألة لا مكان لها في ديني لان الله قد بنى الاجسام هياكل للارواح وعلينا ان نحافظ على هذه الهياكل لتبقى قوية نظيفة لائقة بالالوهية التي تحل فيها . لا يا أخي لم أطلب الوحدة للصلاة والتقشف بل طلبتها هارباً من الناس وشرائعهم وتعاليمهم وتقاليدهم وأفكارهم وضجتهم وعويلهم ، طلبت الوحدة لكي لا أرى أوجه الرجال الذين يبيعون نفوسهم ليشتروا بأثمانها ما كان دون نفوسهم قدرًا وشرفاً . طلبت الانفراد لكي لا ألتقي بالنساء اللواتي يسرنَ ممدودات الاعناق

غامزات العيون وعلى ثغورهن الف ابتسامة وفي اعماق قلوبهن غرض واحد . طلبت الانفراد لكي لا أجالس ذوي « النصف معرفة » الذين يبصرون في المنام خيـال العلم فيتخيلون انهم اصبحوا من المدارك بمقـام النقطة من الدائرة ، ويرون في اليقظة أحد أشباح الحقيقة فيتوهمون انهم قد امتلكوا جوهرها الكامل المطلق . طلبت الخلوة لانني مللت مجاملة الخشن الذي يظن اللطف ضرباً من الضعف ، والتساهل نوعاً من الجبانة ، والترفع شكلاً من الكبرياء . طلبت الخلوة لان نفسي تعبت من معاشرة المتمولين الذين يظنون ان الشموس والاقمـار والكواكب لا تطلع الا من خزائنهم ولا تغيب الى في جيوبهم . ومن الساسة الذين يتلاعبون بأماني الامم وهم يذرون في عيونها الغبار الذهبي ويملأون آذانها برنين الالفاظ ، ومن الكهان لذين يعظون الناس بمـا لا يتعظون به ويطلبون منهم بما لا يطلبونه من نفوسهم . طلبت الوحدة والانفراد لانني لم أحصـل على شيء من يد بشري الا بعد ان دفعت ثمنه من قلبي . طلبت الوحدة والانفراد لانني سئمت ذلك البنـاء العظيم الهائل المدعو حضارة ، ذلك البناء الدقيق الصنع والهندسـة القائم فوق رابية من الجماجم البشرية . طلبت الوحدة لان في الوحدة حياة للروح والفكر والقلب والجسد . طلبت البرية الخالية لان فيها نور الشمس ورائحة الازهار وأنغـام السواقي . طلبت الجبـال لان فيها يقظة الربيع وأشواق الصيف وأغاني الخريف وعزم الشتاء . جئت الى هذه الصومعة المنفردة لانني أريد معرفة اسرار الارض والدنو من عرش الله »

وسكت متنفساً الصعداء كأنه القى حملا ثقيلاً عن عاتقه وقد لمعت عيناه باشعـة غريبة سحرية وظهرت على وجهه امارات الانفة والارادة والقوة

ومرت بضع دقائق وانا انظر اليه مسروراً بظهور ما كان محجوباً عني ثم خاطبته قائلاً — أنت مصيب في كل ماقلته ، ولـكن ألا ترى ياسيدي ان بتشخيصك امراض الاجتماع واوصابه قد ابنت لي انك احد الاطباء الماهرين وانه لايجدر بالطبيب الإعراض عن العليل قبل ان يشفى أو يموت ؟ ان العالم بحاجة ماسة الى امثالك وليس من العـدل ان تعتزل عن الناس وانت قادر على نفعهم

فحدق بي هنيهة ثم قال بلهجة ملؤها القنوط والمرارة « منذ البدء والاطباء يحاولون انقاذ العليل من علته . فمنهم من جاء بالمباضع ومنهم من جاء بالأدوية والمساحيق ، ولكنهم ماتوا جميعاً بدون رجاء ولا أمل وياليت عليل الدهور يكتفي بملازمة مضجعه القذر ومؤانسة قروحه المزمنة ولكنه يمد يده من بين اللحف ويقبض على عنق كل من يزوره ممرضاً ويخنقه والأمر الذي يغيظني ويحول الدم في عروقي الى نار محرقة هو ان ذلك العليل الخبيث يقتل الطبيب ثم يعود ويغمض عينيه قائلاً لنفسه لقد كان بالحقيقة طبيباً عظيماً « . . لا يا اخي . ليس بين الناس من يستطيع ان ينفع الناس فالحارث وان كان حكيماً ماهراً لا يقدر على استنبات حقله في ايام الشتاء »

فاجبته قائلاً — « قد يمر شتاء العالم ياسيدي ويجيء بعده ربيع بهي جميل فتظهر الازهار في الحقول وتترنم الجداول في الأودية »

فقطب مابين عينيه متنهداً وبصوت تعانقه الكآبة قال « ليت شعري هل قسم الله حياة الانسان — وهي الدهر بكامله — الى فصول تشابه فصول السنة بسيرها وتتابعها ؟ هل يظهر على سطح الارض بعد الف الف عام طائفة من البشر تحيا بالروح والحق ؟ هل يأتي زمن يتمجد فيه الانسان فيجلس عن يمين الحياة فرحاً بنور النهار وطمأنينة الليل ؟ هل يتم ذلك ياترى ؟ — هل يتم ذلك بعد ان تشبع الارض من لحوم البشر وترتوي من دمائهم ؟ »

وانتصب اذ ذاك واقفاً رافعاً يمينه نحو العلاء كأنه يشير الى عالم غير هذا العالم — « تلك احلام بعيدة ، وليست هذه الصومعة منزلاً للاحلام ، لان ما اعلمه يقيناً يشغل كل فسحة وكل قرنة فيها ، بل يشغل كل مكان في هذه الأودية وهذه الجبال . أما ما اعلمه يقيناً فهو هذا — انا كائن موجود ، وفي اعماق وجودي جوع وعطش ، ولي الحق ان اتناول خبز الحياة وخمرها من الآنية التي اصنعها بيدي ، من اجل ذلك تركت موائد الناس وولائمهم وجئت هذا المكان وسأبقى فيه حتى النهاية »

وأخذ يمشي ذهاباً واياباً في وسط تلك الغرفة وانا اتأمله وافكر بكلامه وبالعوامل والبواعث التي صورت له الجامعة البشرية بخطوط عوجاء والوان قاتمة ، ثم استوقفته قائلاً —

« اني احترم افكارك ومقاصدك يا سيدي ، واحترم وحدتك وانفرادك غير انني اعلم — والعلم بجلبة الاسف — ان هذه الأمة التعسة قد فقدت بتنحيك وابتعادك رجلاً موهوباً قادراً على خدمتها وايقاظها »

فاجاب — هازاً رأسه — « ليست هذه الأمة الاَّ كالامم كافة ، فالناس من جبلة واحدة وهم لا يختلفون بعضهم عن بعض الا في الظواهر والمظاهر الخارجية التي لا يعتدُّ بها ، فتعاسة الامم الشرقية هي تعاسة الارض بكاملها . وليس ماتحسبه رقياً في الغرب سوى شبح آخر من اشباح الغرور الفارغ ، فالرياء يظل رياء وان قلّم اظافره ، والغش يبقى غشاً وان لانت ملامسه ، والكذب لا يصير صدقاً اذا لبس الحرير وسكن القصور ، والخداع لا يتحول الى امانة اذا ركب القطار او اعتلى المنطاد ، والطمع لا ينقلب قناعةً اذا قاس المسافات او وزن العناصر ، والجرائم لا تصبح فضائل وان سارت بين المعامل والمعاهد . . . أما العبودية — العبودية للحياة ، العبودية للماضي ، العبودية للتعاليم والعوائد والازياء ، العبودية للاموات فستبقى عبودية وان طلت وجهها وغيرت ملابسها . العبودية تظل عبودية حتى وان دعت نفسها حرية . لا يا اخي ليس الغربي ارقى من الشرقي ولا الشرقي احط من الغربي وما الفرق بينهما الاَّ كالفرق الكائن بين الذئب والضبع . ولقد نظرت فرأيت وراء مظاهر الاجتماع المتباينة ناموساً اولياً عادلاً يفرق التعاسة والعماوة والجهالة على السواء فلا يميز شعباً على شعب ولا يظلم طائفة دون طائفة »

فقلت وقد بلغ بي الاستغراب حد الالتباس — « اذاً فالمدنيَّة باطلة وكل ما فيها باطل ؟ »

فاجاب متهيجاً — « نعم باطلة هي المدنيَّة وباطل كل شيء فيها ، فما الاختراعات والاكتشافات سوى الاعيب يتسلى بها العقل وهو في حالة الملل والتضجر ، وما تقصير المسافات وتمهيد الجبال والاودية والتغلب على البحار والفضاء غير اثمار غشاشة مملوءة بالدخان لا ترضي العين ولا تغذي القلب ولا ترفع النفس أما تلك الالغاز والاحاجي التي يدعونها بالمعارف والفنون فهي قيود وسلاسل ذهبية يجرها الانسان مبتهجاً بلمعانها ورنين حلقاتها ، بل هي اقفاص ابتدأ الانسان بتطريق اعمدتها واسلاكها منذ القدم

غيرَ عالم بانه لا ينتهي من صنعها الا ويجد نفسه اسيراً مسجوناً في داخلها . . . نعم باطلة هي اعمال الانسان ، وباطلة هي تلك المقاصد والمرامي والمنازع والاماني وباطل كل شيء على الارض ، وليس بين اباطيل الحياة سوى أمر واحد خليق بحب النفس وشوقها وهيامها — ليس هناك غير شيء واحد »

فقلت « وما ذلك ياسيدي ؟ »

فوقف دقيقة ساكناً ثم اغمض اجفانه واضعاً يديه على صدره ، وقد اشرق وجهه وانبسطت ملامحه ، وبصوت عذب مرتعش قال — « هي يقظة في النفس . هي يقظة في عمق اعماق النفس . هي فكرة تفاجيء وجدان الانسان على حين غفلة وتفتح بصيرته فيرى الحياة مكتنفة بالانغام ، محاطة بالهالات ، منتصبة كبرج من النور بين الارض واللانهاية . هي شعلة من شعلات ضمير الوجود تأجج فجأةً في داخل الروح فتحرق ما يحيط بها من الهشيم وتصعد سابحة مرفرفة في الفضاء الوسيع . هي عاطفة تهبط على قلب الفرد فيقف مستغرباً مستهجناً كل مايخالفها . كارهاً كل شيء لايجاريها . متمرداً على الذين لا يفهمون اسرارها . هي يد خفية قد ازالت الغشاء عن عيني وانا في وسط الاجتماع بين اهلي واصحابي ومواطني فوقفت منذهلا مدهوشا قائلا في نفسي — ماهذه الوجوه وما شأن هؤلاء الناظرين اليّ وكيف عرفتهم ، واين لقيتهم ، ولماذا أقيم بينهم بل لماذا اجالسهم واحادثهم ؟ هل انا غريب بينهم أم هم الغرباء في ديار بنتها الحياة لي واسلمتني مفاتيحها . . . »

وسكت فجأة كأن الذكرى قد رسمت على حافظته صوراً وأشباحا لا يريد اظهارها ، ثم بسط ذراعيه وقال همساً — « هذا ما حلّ بي منذ أربع سنوات فتركت العالم وجئت هذه البرية الخالية لاعيش في اليقظة متمتعاً بالفكر والعاطفة والسكينة »

ومشى اذ ذاك نحو باب الصومعة ناظراً الى اعماق الليل ثم هتف كأنه يخاطب العاصفة — « هي يقظة في اعماق النفس فمن يعرفها لا يستطيع اظهارها بالكلام ومن لم يعرفها فلا ولن يدرك اسرارها

٤

ومرت ساعة طويلة ممنطقة بهمس الفكر ونداء العاصفة ويوسف الفخري يمشي تارة في وسط تلك الحجرة ويقف طورًا في بابها محدقاً بالفضاء العابس ، اما انا فبقيت صامتاً شاعراً بتموجات روحه ، مستظهرا اقواله مفكرا بحياته وما وراء حياته من لذة الوحدة وآلامها . وعند انقضاء الهزيع الثاني من الليل اقترب مني ونظر طويلاً الى وجهي كأنه يريد ان يحفظ في ذاكرته رسم الرجل الذي باح له بسر وحدته وانفراده . ثم قال ببطء — « أنا ذاهب الآن للتجول في العاصفة ، هي عادة اتمتع بلذتها في الخريف وفي الشتاء ... هاك أبريق القهوة واللفائف ، وان طلبت نفسك الخمر تجدها في الجرة . واذا شئت النوم تجد اللحف والمساند في تلك القرنة »

قال هذا والتف بجبة سوداء كثيفة ثم زاد مبتسما — « أرجوك أن توصد باب الصومعة عند ما تذهب في الصباح لانني سأصرف الغد في غابة الارز »

ثم سار نحو الباب وتناول من جانبه عكازا طويلا وقال — « اذا فاجأتك العاصفة ثانية وأنت في هذه النواحي فلا تتأخر عن الالتجاء الى هذه الصومعة . ولكنني أرجو أن تعلم نفسك حب العواصف لا الخوف منها . . . . مساء الخير يا أخي »

وخرج الى الليل مسرعا

ولما وقفت في باب الصومعة لارى وجهته كان الظلام قد اخفاه ولكنني بقيت بضع دقائق اسمع وقع قدميه على حصباء الوادي

٥

جاء الصباح وقد مرت العاصفة وانقشعت الغيوم وظهرت تلك الصخور والغابات متشحة بنور الشمس فتركت الصومعة بعد ان قفلت بابها وفي نفسي شيء من تلك اليقظة المعنوية التي تكلم عنها يوسف الفخري

ولكنني لم ابلغ منازل الناس وارى حركاتهم واسمع اصواتهم حتى وقفت قائلا في سري — « نعم ، ان اليقظة الروحيــة هي اخلق شيء بالانسان بل هي الغرض من

الوجود ، ولـكن اليست المدنية بما فيها من التلبس والاشكال من دواعي اليقظة الروحية ؟ وكيف يا ترى نستطيع انكار امر موجود ونفس وجوده دليل على اثبات صلاحيته . قد تكون المدنيـة الحاضرة عرضا زائلا ولـكن الناموس الابدي قد جعل الاعراض سلما تنتهي درجاته بالجوهر المطلق »

ولم اجتمع ثانية بيوسف الفخري لان الحياة ابعدتني عن شمال لبنان في اواخر ذلك الخريف فجئت منفياً الى بلاد قصية عواصفها داجنة اما التنسك فيها فضرب من الجنون .

شذرات

عند ما رمى بي الله حجراً الى بحيرة الحياة احدثتُ الدوائر على سطحها ولـكنني ما بلغت اعماقها حتى صرت هادئاً .

الناس رجلان ، رجل مستيقظ في الظلام ورجل نائم في النور .

أنا كولمبس نفسي ، وفي كل يوم اكتشف قارة جديدة فيها .

الحب الذي لا يتجدد في كل يوم وليلة يتحول الى شكل من قوة الاستمرار وهـذه دورها لا تلبث ان تنقلب عبودية .

اشد الناس كآبة كئيب لا يعرف سبب كآبته .

حقيقة الناس في ما يخفونه عنك فان شئت ان تعرف الناس فلا تصغِ الى ما يقولونه بل الى ما لا يقولونه .

ما اظلم من يعطيك من جيبه ليأخذ من قلبك .

الخيال حقيقة لم تتحجر بعد .

تشربون الخمر لتسكروا واشربها لاصحو من خمرة أخرى .

بعض الوجوه الحريرية مبطنة بنسيج خشن .

اقرب الناس الى قلبي ملك لا مملكة له وفقير لا يعرف كيف يستعطي .

لم يعمل البشر الا بمقتضى قول القائل « خير الامور الوسط » لذلك تراهم يقتلون المجرمين والانبياء .

يظن بعض الناس انني اغامزهم عند ما اغمض عينيّ كي لا أراهم .

كان الموهوب في الماضي يفاخر بخدمة الملوك أما اليوم فانه يدّعي خدمةالمساكين .

الحياة مركب يستسرعه البطيء فيتنحى عنه ، و يستبطئه السريع فيتنحى عنهايضاً .

يقولون لي لست والعــالم الذي تسكنه سوى ذرة رمل على شاطىء بحر اللانهاية وليست العوالم أجمع سوى ذرات على شاطئي .

أشتاق الى الابدية لانني سأجتمع فيها بقصائدي غير المنظومة وصوري غير المرسومة .

أنا الشعلة وأنا الهشيم وبعضي يأكل بعضي فهلا حولت وجهـك عني كي لا يعميك دخاني ؟

كيف أشك بعدل الحياة وأحـلام من يفترش الريش ليست باجمل من أحلام من يفترش الثرى ؟

لو لا جهلي ما تعرفونه لما عرفت ما تجهلونه .

كيف يستطيع مربع الرأس أن يفتكر أفكارا مستديرة ؟

اللؤلؤة هيكل بناه الالم حول حبة رمل وأجسادنا هياكل بناها التشويق حول ذرات من الروح .

كلما وضع أمامي شكل من الطعام أسأل ذاتي ما هذا الذي سألتهمه الآن يا ترى أعالم شمسي كامل التكوين أم سديم لم يكمل بعد .

ما أضيق عيش من يؤثر اجتهاد النمل على انشاد الجنادب !

المتدين لا يتمذهب والمتمذهب لا دين له .

هل كانت محبة أم يوداص لولدها أقل من محبة مريم ليسوع ؟

لو قال الشتاء « الربيع مختبىء في قلبي » فمن يا ترى يصدقه ؟

اجعلني يا رب فريسة للاسد قبل ان تجعل الارنب فريسة لي .

اجعل يا رب قوة إعدائي مضارعة لقوتي كي لا تكون الغلبة الا للحق .

اذا كان القصد من الدين الثواب ، ومن الوطنية المصلحة ، ومن العلم التفوق ، اذن فاعطني الدنيوي الحر ، وعديم الوطنية المخلص ، والغبي المتواضع .

سيأتي زمن يأبى فيه ابناؤه الانتساب الينا مثلما يأبى بعضنا الانتساب الى طائفة السعادين .

بعض النـاس يسمعون باذانهم والبعض ببطونهم والبعض بجيوبهم والبعض لا يسمع ابدا .

ما أشبه أرواح بعض الناس بالاسفنج فانك لا تستقطر منها الا ما امتصته منك .

أبعد الناس عن قلبي راغب يمثل دور مرغوب .

لو وجد رجلان متشابهان لما وسعتها الدنيا .

ولدت ثانية لما تزوج جسدي من نفسي .

قلت للحياة الا فأسمعيني الموت متكلماً فرفعت الحياة صوتها عن ذي قبل وقالت أنت تسمعه الآن .

هذا تاريخ البشر — ولادة وزواج وموت ثم ولادة وزواج وموت ثم ولادة وزواج وموت — ولكن في فجر كل عهد من سلسلة أجيال خاليـة الا من الولادة والزواج والموت يظهر في الارض مجنون ذو فكرة غريبة ويقص على البشر حلماً رآه في عالم غير هذا العالم و بين مخلوقات أرقى من سكان هذه الارض الذين لا يرون في أحلامهم سوى الولادة والزواج والموت .

انما الانتظار سنابك الزمن .

ما أغربني عند ما أشكو المـاً فيه لذتي

عند ما تبلغ قلب الحياة تجد أنك لست أرفع من المجرمين ولا أدنى من الانبياء .

أ كثر ذوي العواطف الرقيقة يتسرعون بمس عواطفك خوفاً من أن تسبقهم وتمس عواطفهم .

عند ما يلمس الرجل بيده يد امرأة يلمس كلاهما أذيال ثوب الابدية .

ما أكثر النساء اللواتي يستعرن قلب الرجل وما أقل اللواتي يمتلكنه .

قولك انك لا تفهمني مديح لا أستحقه أنا وأهانة لا تستحقها أنت .

لو لم تكن المجرة في داخلي لما عرفت بوجودها .

وقفت أمامك مرآة صافيـة فنظرت بي ورأيت ذاتك منعكسة بخطوطها والوانها فتوهمت انك تحبني والحقيقة انك لم تحب سوى شبحك .

للرجل العظيم قلبان ، قلب يدمي وقلب يتجلد .

قد تخور الضفادع كالجواميس غير أنها لا تجر المحراث في الحقـل ولا النوارج على البيدر أما جلودها فلا تصلح للاحذية .

كم مرة عزوت لنفسي جـرائم لم أرتكبها قط كي لا أظهر أرفع ممن يجالسني من المجرمين .

حجتي تقنع الجاهل وحجة الحـكيم تقنعني . أما من تراوحت عاقلته بين الحـكمة والجهالة فلا أقنعه ولا يقنعني .





المعتمد بن عباد　　　　لجبران خليل جبران

العهد الجديد

في الشرق اليوم فكرتان متصارعتان ، فكرة قديمة وفكرة جديدة . أما الفكرة القديمة فستغلب على أمرها لانها منهوكة القوى محاولة العزم

وفي الشرق يقظة تراود النوم ، واليقظة قاهرة لان الشمس قائدها والفجر جيشها

وفي حقول الشرق ، ولقد كان الشرق بالامس مبانة واسعة الارجاء ، يقف اليوم فتى الربيع منادياً سكان الاجداث ليهبوا و يسيروا مع الايام واذا ما أنشد الربيع اغنيته بُعث مصروع الشتاء وخلع أكفانه ومشى

وفي فضاء الشرق اهتزازات حية تنمو وتتمدد وتتوسع وتتناول النفوس المتنبهة الحساسة فتضمها اليها ، وتحيط بالقلوب الابية الشاعرة لتكتسبها

وللشرق اليوم سيدان ، سيد يأمر و ينهي و يطاع ولكنه شيخ يحتضر ، وسيد ساكت بسكوت النواميس والانظمة ، هادىء بهدوء الحق ، ولكنه جبار مفتول الساعدين يعرف عزمه و يثق بكيانه و يؤمن بصلاحيته

***

في الشرق اليوم رجلان ، رجل الامس ورجل الغد ، فأي منهما أنت أيها الشرق ؟

ألا فاقترب مني لاتفرسك وأتبصرك وأتحقق من ملامحك ومظاهرك ما إذا كنت من الآتين الى النور أو الذاهبين الى الظلام

تعال واخبرني ما أنت ومن أنت

أسياسي يقول في سره « أريد ان انتفع من أمتي » ؟ أم غيور متحمس يهمس في نفسه « أتوق الى نفع أمتي » ؟

ان كنت الاول فانت نبتة طفيلية ، وان كنت الثاني فانت واحة في صحراء

أتاجر يتخذ عوز الناس وسيلة للربح والانتفاخ فيحتكر الضروريات ليبيع بدينار

ما ابتاعه بدرهم ؟ ام رجل جدٍ واجتهاد يسهل التبادل بين الحائك والزارع ويجعل نفسه حلقة بين الراغب والمرغوب ، فيفيد المرغوب والراغب ويستفيد بعدل منهما ؟

ان كنت الاول فأنت مجرم سكنت القصور أم السجون ، وان كنت الثاني فانت محسن شكرك الناس أم جحدوك

أرئيس دين يحوك من سذاجة القوم برفيراً لجسده ، ويصوغ من بساطة قلوبهم تاجاً لرأسه ، ويدَّعي كره ابليس ويعيش بخيراته ؟ أم تقي ورع يرى في فضيلة الفرد أساساً لرقي الامة ، وفي استقصاء اسرار روحه سلماً الى الروح الكلي ؟

ان كنت الاول فانت كافر ملحد صُمت النهار أو صليت الليل ، وان كنت الثاني فأنت زنبقة في جنة الحق ضاع اريجها بين أنوف البشر أم تصاعد حراً طليقاً الى الغلاف الاثيري حيث تحفظ أنفاس الازهار

أصحفي يبيع فكرته ومبدأه في سوق النخاسين ويثمو ويترعرع على ما يفرزه الاجتماع من أخبار المصائب والويلات . ونظير الشوحة الجائعة لا تهبط الى على الجيف المنتنة ؟ أم معلم واقف على منبر من منابر المدنية يستمد من مآتي الايام مواعظ يلقيها على الناس بعد ان يتعظ بها هو نفسه ؟

ان كنت الاول فأنت بثور وقروح ، وان كنت الثاني فدواء وبلسم

أحاكم يتصاغر أمام من ولاه ويستصغر من تولى عليهم ، فلا يحرك يداً الا ليضعها في جيوبهم ، ولا يخطو خطوة الا لمطمع له فيهم ؟ أم خادم أمين يدير شؤون الشعب ويسهر على مصالحه ويسعى الي تحقيق أمانيه ؟

ان كنت الاول فأنت زوان في بيادر الامة ، وان كنت الثاني فأنت بركة في اهرائها

أزوج يستبيح لنفسه ما يحرمه على زوجته ، ويسرح ويمرح وفي حزامه مفتاح سجنها ، ويلتهم ما يشتهيه حتى التخمة وهي جالسة في وحدتها امام صحفة فارغة ؟ أم رفيق لا يسير الى امر الا ويده بيد رفيقته ولا يفعل أمراً الا ولها فيه فكرة ورأي ، ولا يفوز بأمر الا لتساهمه افراحه وأمجاده ؟

ان كنت الاول فأنت مما بقي حياً من قبائل انقرضت وهي تسكن الكهوف وتلبس الجلود ، ان كنت الثاني فأنت في طليعة أمة تسير مع الفجر نحو ظهيرة المدالة والحصافة

أ كاتب بحاثة يشمخ برأسه الى ما فوق رؤوسنـا أما ما في داخل رأسه فيدب في هوة الماضي الغابر حيث القت الاجيال ما رثَّ من أثوابها ، ورمت مالم يعد صالحاً لها ، أم فكرة صافية تتفحص محيطها لتعلم ما ينفعه وما يضره فتصرف العمر في بناء النـافع وهدم المضر ؟

ان كنت الاول فأنت سخافة مطرَّسة و بلادة مزركشة ، وان كنت الثاني فأنت خبز للجائعين وماء للظامئين

أشاعر انت يضرب الطنبور امام ابواب الامراء و ينثر الازهـار في الاعراس ، و يسـير وراء الجثث الهامدة و بين فكيه أسفنجة مثقلة بالماء الفاتر حتى اذا ما بلغ المقبرة ضغط عليها بلسانه وشفتيه ، أم موهوب وضع الله في يده قيثارة يستولدها انغاماً علوية تجذب قلوبنا وتوقفنا متهيبين امام الحياة وما في الحياة من الجمال والهول ؟

ان كنت الاول فأنت من المشعوذين الذين لا ينبهون في نفوسنـا سوى عكس ما يقصدون فان تباكوا نضحك ، وان صرحوا نكتئب ، وان كنت الثاني فأنت بصيرة مشعشعة وراء بصرنا . وشوق عذب في قلوبنا ، ورؤيا ربانية في غيبو بتنا

***

أقول في الشرق موكبان ، موكب من عجائز محدودبي الظهور ، يسيرون متوكئين على العصيّ الموجاء ، ويلهثون منهوكين مع انهم ينحدرون من الاعالي الى المنخفضات ، وموكب من فتيان يتراكضون كأن في أرجلهم أجنحة ، و يهللون كأن في حناجرهم أوتاراً ، و ينتهبون العقبات كأن في جبهات الجبال قوة تجذبهم وسحراً يختلب لبابهم

فمن أية فئة أنت ايها الشرقي وفي أي موكب تسير ؟

الا فاسأل نفسك ، استجوبها في سكينة الليل وقد صحت من مخدرات محيطها عما اذا كنت من عبيد الامس أم من أحرار الغد ؟

أقول لك ان أبناء الامس يمشون في جنازة العهد الذي أوجدهم وأوجدوه . أقول إنهم يشدون بحبل اوهت الايام خيوطه ، فاذا ما انقطع — وعما قريب ينقطع — هبط من تعلق به الى حفرة النسيان . أقول إنهم يسكنون منازل متداعية الاركان ، فاذا ما هبت العاصفة — وهي على وشك الهبوب — لنهدمت تلك المنازل على رؤوسهم وكانت لهم قبوراً اقول ان أفكارهم وأقوالهم ومنازعهم وتصانيفهم ودواوينهم وكل ما آتيهم ليست سوى قيود تجرهم بثقلها ولا يستطيعون جرها لضعفهم

أما ابناء الغد فهم الذين نادتهم الحياة فاتبعوها باقدام ثابتة ورؤوس مرفوعة . هم فجر عهد جديد ، فلا الدخان يحجب أنوارهم ، ولا قلقلة السلاسل تغمر اصواتهم ، ولا نتن المستنقعات يتغلب على طيبهم . هم طائفة قليلة العدد بين طوائف كثر عددها ، ولكن في الغصن المزهر ماليس في غابة يابسة ، وفي حبة القمح ماليس في رابية من التبن . هم فئة مجهولة لكنهم يعرفون بعضهم بعضاً ومثل قمم عالية يرى واحدهم الآخر ويسمع نداءه ويناجيه ، اما المغاور فعمياء لا ترى ، وطرشاء لا تسمع . هم النواة التي طرحها الله في حقلةٍ مّا فشقت قشرتها بعزم لبابها ، وتمايلت نصبة غضة امام وجه الشمس ، وسوف تنمو شجرة عظمى تمتد عروقها الى قلب الارض وتتصاعد فروعها الى أعماق الفضاء



على شاطئ البحر

« معرب »

اذا انتصف النهار وتناولت الطعام كنت أذهب مع رفيقي المدرسيّ ونفتش كلانا على مكان رطب في قمة الصخور المشرفة على البحر لنقضي الساعات الحارة من النهار تارة في النظر وطوراً في التأمل والمطالعة .

وكان أول مجلد صرفت فكري اليه كتاباً ايطالياً صغيراً يسمى كتابات « جاكوبي أورتيس » يبحث عن السياسة والغرام معاً . وهو متداول بين الشبان الذين يجملون نظيرنا بوسام العشق وتاج السياسـة ثم تلوت رواية بولس وفرجينيا تأليف برناردين دي سان بيير وهذا الـكتاب المختصر الممثل الحب الصافي يخال لي أنه صفحة جليلة لعظة أولاد الملوك منزوعة من قلب التاريخ البشري ومحفوظـة بغاية العفة والطهارة بدموع سريعة العدوى لاعين ستة عشر عاماً . و بعد هذا قرأت كتاب تاسيت ذلك الـكتاب المشتمل على صفحات ملأى بالفساد والعار حيث يمثل فيه الفضيلة قابضة بعزم ثابت على قلم النقاش لترسم صورة طاهرة وغير متأثرة من التاريخ الذي يوحي للذين يفهمونه بعض الظلم والاستبداد وقوة الاسترقاق الشديد وهذه الـكتب الثلاثة مطابقة للحاسيات التي كانت منذ ذلك الزمان كدليل القلب فتهز في أنفسنا أوتار الحب والشهامة وادارة الاعمال الخطيرة التي كان يمثلها لنا تاسيت و ينعش بها أنفسنا منذ حداثتها بنار الفضيلة القديمة .

وكنا نقرأ بصوت عال فنتعجب تارة ونبكي تارة ونتأمل طوراً ويخيم أحياناً علينا سكون طويل وعميق لا يتخلله الا بعض تأوهات متبادلة كأنها تظهر لنـا بدون ترو انفعالاتنا وتضمحل مع الريح بأحلامنا ثم ننتقل بالتصورات الى بعض المواضيع الخيالية التي كان الشاعر أو المؤلف يقصها علينا ونجعل أنفسنا محل العاشق الخيالي الوطني المجاهد في سبيل الحياة وعند مغيب الشمس كنا نقطع المسافات الطويلة حتى نعود الى المدينة وجيوبنا وأيدينا ملأى من الهدايا ونجتمع بالعائلة على سطح المنزل ولا شيء مبهج وجدير

بالتصوير سوى منظر السطح في نور القمر ونغمات الآلات الموسيقية التي تشبه أنين الغابة المضطربة من الامواج أو بغناء الزرزور المقلق في الشمس وفي وسط الطبيعة الهادئة واذ ذاك كان يوجد في الهواء والهيئات حتى في جنون ذلك الهذيان المفرح شيء من الوقار والحزن كما وان كل فرح لم يكن سوى جنون زائل وهكذا الشبيبة والجمال لكي يحصلا على شرارة أو لمعة في السعادة يحتاجان الى الطيش و يصبحان في حالة الثمل ولو ان الآلات كانت مفرحة والمواقف تترجم عن حاسيات الفرح والسرور فقد كانت الالحان المحزنة والأغاني المشجية المبكية والعلامات الموسيقية البطيئة والنادرة تذهب الى أعماق الفؤاد وتهز أوتار القلب النائمة

وهذه هي حلة الموسيقى في أي مكان حيث لم تكن حركة الا وهي للاذن فقط بل هي حركة الاهواء والأميال التي تخرج مع الصوت وكل تلك الحركات هي زفرات وكل تلك العلامات تسكب الدموع الغزيرة مع الصوت

فلم يمكن أن نقرع بشدة على قلب الانسان بدون أن نهطل من اقامة الدموع طالما الطبيعة مملوءة من حزن عميق وطالما المحرك لها يخرج لحناً من أفواهنا ودموعاً من عيوننا وطالما كنا نتوسل ونستعطف الصبية بأدب لكي ترقص التار نتلا (نوع من الرقص الوطني في ايطاليا على أصوات النقارة) فكانت تدور على ذاتها مجذوبة بالحركة المستديرة من ذلك الرقص الوطني مقلدة بأناملها تصفيق النقارات فينحدر عرقها على أقدامها نظير قطرات المطر المتساقطة على السطح

و يالله ما أجمل ذلك المنظر وما أشده وقعاً على النفس والشعور فقد مرَّ عليَّ عشرون عاماً وأنا لا أزال أذكره وأتخيل به كأنه ابن اليوم بل الساعة التي أنا فيها

وهكذا تبقى أبهج أيام الشباب وأكثرها على النفس الى زمن الرجولية والهرم والى نهاية حياة الانسان فتكون له سلوى في الشيخوخة وعزاء في انقضاء الاجل

واذا كانت تلك الصفحة هي صفحة الحياة الاولى التي قضيتها تحت سماء ايطاليا و بين ربوع نابولي وعلى شاطىء البحر بين تدافع الامواج فهي صفحة خالدة في نفسي وعواطفي وشعوري وستبقى كذلك ذات تأثير فعال في حياتي الثانية تحت عرش الله

الضمير

معرب

فرَّ قايين من امام ربه يضرب في بيداء الارض حتى بلغ ذات مساء سفح جبل في سهل فسيح وكان التعب قد انهك امرأته وأولاده فانطرحوا على الارض وناموا بين الروعة واللوعة

ران القرى على عيونهم أما قايين فجلس وغاص في تأملاته وهواجسه لأن النوم كان بعيداً عن عينيه ثم رفع رأسه الى السماء الحالكة فرأى في اقصى الافق عيناً هائلة مفتوحة تحدق فيه تحديقاً شديداً فعرته رعدة وتملك منه الخوف فقال في نفسه : لاأزال على مقربة منه . ثم قام وأيقظ امرأته وأولاده وعاود المسير فطوى الفيافي حزيناً كئيباً ولبث ثلاثين يوماً وثلاثين ليلة هائماً على وجهه شاحب اللون مضعضع الحواس لا ينطق ببنت شفةٍ ولا يجسر ان ينظر وراءه ولا ان ينام حتى انتهى الى ساحل البحار في ارض أشور وهناك قال لنلقِ عصا الترحال في هذا المكان لنكون في أمان . أجل لنقم هنا فقد جاوزنا حدود هذا العالم · و بينما كان ينحني ليجلس اذ به يرى في الجو القاتم العين نفسها في موضعها نفسه في اقصى الافق فاضطرب عند ذلك اضطراباً شديداً وأخذ ينتفض من شدة الخوف والوجل وصاح بمن حوله (اخفوني) وكان اولاده واقفين ينظرون اليه باكتئاب وحزن واصابعهم على شفاههم

التفت قايين الى جو بال جد الذين يعيشون في القفار تحت مضارب الو بر وقال له . مدَّ من هذه الجهة ستار الخيمة فنشر الستار ووضع عليه ثقلاً عظيماً من الرصاص . وحينئذ قالت له تسيلا حفيدته وكانت رقيقة كالصباح . هل ترى بعدُ شيئاً ؟ أجابه قايين أي نعم هذه هي العين لاأزال اراها

فقام جو بال ونفخ في الابواق وضرب على الطبول وصاح : لا بد من ان اقيم حاجزاً

دونها ثم بنى جداراً كثيفاً من الحديد ووضع قايين وراءه ولكن قايين نظر وقال لا . هذه العين لا تزال تنظر اليّ

أجاب جوبال يجب ان نقيم دائرة منيعة من الاسوار لا يجسر واحد ان يقرب منها فلنبنِ مدينة ولنقم فيها قلعة حصينة ثم نغلقها فقام حينئذٍ تيبال ابو الحدادين وشيد مدينة هائلة تفوق طاقة البشر و بينما هو دائب في العمل كان اخوته يطاردون اولاد ونوش وشيث في السهل و يفقؤن عين كل من يجسر على المرور

وفي المساء أخذوا يطلقون السهام و يرشقون بها النجوم حتى قامت المدينة وجعل الصوان فيها مقام مضارب الشعر وشدت الصخور بسلاسل من حديد فكان يخال لمن يراها أنها بناية من بنايات الجحيم لان اسوارها كانت بكثافة الجبال وظلها كان يحجب النور عن البراري ونقشوا على ابوابها هذه الكلمات (محظور على العليّ الدخول)

ولما فرغوا من السد والبناء وضعوا الجد في الوسط ضمن برج من الصخور ولكنه ظل حزيناً مرتعداً فنادته تسيلا وهي ترتجف . يا ابي هل اختفت العين فأجاب : لا تزال هنا . ثم قال اريد ان اسكن تحت التراب كالميت في قبره لا ارى ولا أُرى

فحفروا حفرة وقال قايين : حسناً ثم نزل وحده في تلك الهوة المظلمة . ولما انجلس على مقعد وسط الظلام واغلقوا عليه الحفرة كانت العين في القبر وكانت تحدق بقايين ...





ديك الجن الحمصي لجبران خليل جبران

الوحدة والانفراد

الحياة جزيرة في بحر من الوحدة والانفراد

الحياة جزيرة صخورها الاماني ، واشجارها الاحلام ، وازهارها الوحشة ، وينابيعها التعطش وهي في وسط بحر من الوحدة والانفراد

حياتك يا اخي جزيرة منفصلة عن جميع الجزر والاقاليم ومها سيرت من المراكب والزوارق الى الشواطىء الاخرى ومها بلغ شواطئك من الاساطيل والعمارات فأنت انت الجزيرة المنفردة بآلامهـا المستوحدة بافراحها البعيدة بحنينها المجهولة بأسرها وخفاياها!

رأيتك يا اخي جالساً على رابية من الذهب وأنت فرح بثروتك متفوق بغناك شاعر ان في كل حفنة من التبر سلكاً « خفياً » يصل فكرة النـاس بفكرتك ويربط ميولهم بميولك. ومثل فاتح كبير تبصرتك تقود فيالق جنود الصفر الى المعاقل الحصينة فتدكها ، والى المستحكمات المنيعة فتمتلـكها ولـكنني نظرت اليك ثانية فرأيت وراء جـدران خزائنك قلباً يختلج في وحدته وانفراده اختلاج ظامىء في قفص مصنوع من الذهب والجواهر ولـكنه خالٍ من الماء

رأيتك يا اخي جالساً على عرش من المجد وقد وقف حولك الناس مترنمين باسمك مرددين حسناتك معددين مواهبك محدقين بك كأنهم في حضرة نبي يرفع ارواحهم بعزم روحه ويطوف بها بين النجوم والـكواكب ، وانت تنظر اليهم وعلى وجهك سيماء الغبطة والقوة والتغلب كانك منهم بمقام الروح من الجسد . ولـكنني نظرت اليك ثانية فرأيت ذاتك المستوحدة واقفة الى جانب عرشك وهي تتوجع بغربتها وتغص بوحشتها ثم رأيتها تمد يدها الى كل ناحية كأنها تستعطف وتستعطي الاشباح غير المنظورة . ثم رأيتها تنظر من فوق رؤوس الناس الى مكان قصي الى مكان خالٍ من كل شيء سوى وحدتها وانفرادها

رأيتك يا أخي مشغوفاً بحب امرأة جميلة وأنت تسكب على مفرق شعرهـا ذوب قلبك وتملأ راحتيها بقُبل شفتيك وهي تنظر اليك واشعة الانعطاف في عينيها وحلاوة

الامومة على ثغرها فقلت بسري لقد أزالت المحبة وحدة هذا الرجل ومحت انفراده فعاد واتصل بالروح الـكلية العامة التي تجتذب اليها بالحب ما انفصل عنها بالخلو والسلوان ولـكنني نظرت اليك ثانية فرأيت طي قلبك المشغوف قلباً منفرداً يريد أن يسكب مخبآته على رأس المرأة ولا يقدر ورأيت وراء نفسك الذائبة حباً نفساً أخرى مستوحدة شبيهة بالضباب تروم ان تتحول في حفنتَي رفيقتك الى قطرات من الدموع ولكنها لا تستطيع

***

حياتك يا أخي منزل منفرد عن جميع المنازل والاحياء

حياتك المعنوية منزل بعيد عن سبل الظواهر والمظاهر التي يدعوها الناس باسمك. فان كان هذا المنزل مظلماً فانت لاتقدر أن تنيره بسراج قريبك وان كان خالياً فانت لاتستطيع ان تملأه من خيرات جارك وان كان قائماً في صحراء فانت لاتقدر ان تنقله الى حديقة غرسها سواك وان كان منتصباً على قمة جبل فانت لاتستطيع ان تهبط به الى وادٍ وطئته أقدام غيرك

حياتك النفسية يا اخي محاطة بالوحدة والانفراد ولولا هذه الوحدة وذاك الانفراد لما كنت أنت وأنا أنا . لولا هذه الوحدة وذاك الانفراد لـكنت إن سمعت صوتك ظننتني متكلماً . وان رأيت وجهك توهمت نفسي ناظراً في المرآة

موت الشاعر حياته

خيم الليل بجنحه فوق المدينة وألبسها الثلج ثوبا وهزم البرد ابن آدم من الاسواق فاختبأ في أوكاره وكانت الارواح تتأوه بين المساكن كمؤبن وقف بين القبور الرخامية يرثي فريسة الاسد

وكان في أطراف الاحياء بيت حقير تداعت أركانه وأثقلته الثلوج حتى أوشك أن يسقط . وفي احدى زوايا ذلك البيت فراش بال عليه محتضر ينظر الى سراج ضعيف يغالب الظلمة فتغلبه . فتى في ربيع العمر قد علم بقرب أجل انعتاقه من قيود الحياة فصار ينتظر المنية وعلى وجهه المصفر نور الأمل ، وعلى شفتيه ابتسامة محزنة ، شاعر جاء ليفرح قلب انسان بأقواله الجميلة ، يموت جوعاً في مدينة الاحياء الاغنياء . نفس شريفة هبطت مع نسم الاله لتجعل الحياة عذبة تودع دنيانا قبل أن تبتسم لها الانسانية . منازع يتنهد أنفاسه الاخيرة وليس بقربه سوى سراج كان رفيق وحدته وأوراق عليها خيالات روحه اللطيفة

جمع ذاك الفتى المحتضر بقايا قوة قاربت الفناء ورفع يديه نحو العلاء وحرك أجفانه الذابلة كأنه يريد أن يخترق بنظراته الاخيرة سقف ذلك الكوخ البالي ليرى النجوم ثم قال تعالي أيتها المنية الجميلة فقد اشتاقتك نفسي ، اقتربي وحلي قيود المادة فقد تعبت من جرها ، تعالي أيتها الحلوة وانقذيني من بين البشر الذين يحبونني غريبا عنهم لاني أترجم ما أسمعه من الملائكة الى لغة البشرية ، اسرعي نحوي فقد تخلى عني الانسان وطرحني في زوايا النسيان لاني لم أكن طامعاً بالمال نظيره ولا باستخدام من هو أضعف مني ، تعالي أيتها المنية العذبة وخذيني فأولاد بجدتي لا يحتاجون اليّ ضميني الى صدرك المملوء محبة ، قبّلي شفتيَّ اللتين لم تذوقا طعم قبلة الوالدة ولا لمستا وجنة الاخت ولا لثمتا ثغر المحبوبة ، وأسرعي وعانقيني يا حبيبتي المنية ، اذ ذاك انتصب بجانب فراش المنازع طيف امرأة ذات جمال غير بشري ترتدي ثوباً ناصعاً كالثلج وتحمل بيدها اكليل زنابق من نبت الحقول العلوية ثم دنت منه وعانقته وغمضت عينيه كي يراها بعين نفسه

وقبلت شفتيه قبلة محبة قبلةً تركت على شفتيه ابتسامة استكفاء وفي تلك الدقيقة أصبح ذلك البيت خالياً من التراب و بعض أوراقه منثورة في زوايا الظلام

مرّت الأجيال وسكان تلك المدينة غرقى في سبات الجمود وكرى الاهمال وعدم الإكتراث ولما أفاقوا ورأت عيونهم فجر المعرفة أقاموا لذلك الشاعر تمثالاً عظيماً في وسط الساحة العمومية . وعيدوا له في كل عام عيداً . . . آه ما أجهل الانسان

حياة الحب

— الربيع —

هلمي يامحبوبتي نمشِ بين الطلول ، فقد ذابت الثلوج ، وهبت الحياة من مراقدها وتمايلت في الاودية والمنحدرات . سيري معي لنتبع آثار اقدام الربيع في الحقل البعيد . تعالَي لنصعد الى اعالي الربى ونتأمل في تموجات اخضرار السهول حولها .

ها قد نشر فجر الربيع ثوباً طواه ليل الشتاء فاكتست به أشجار الخوخ والتفاح فظهرت كالعرائس في ليلة القدر ، واستيقظت الكروم وتعانقت قضبانها كمعاشر العشاق ، وجرت الجداول راقصة بين الصخور مرددة أغنية الفرح ، وانبثقت الازهار من قلب الطبيعة انبثاق الزبد من البحر .

تعالَي لنشرب بقايا دموع المطر من كؤوس النرجس ونملأ نفسينا بأغاني العصافير المسرورة ونغتنم استنشاق عطر النسيمات .

لنجلس بقرب تلك الصخرة حيث يختبيء البنفسج ونتبادل قبلات المحبة .

— الصيف —

هيا بنا الى الحقل يا حبيبتي فقد جاءت أيام الحصاد و بلغ الزرع مبلغه وأنضجته حرارة محبة الشمس للطبيعة . تعالي قبل ان تسبقنا الطيور فتستغل أتعابنا ، وجماعة النمل فتأخذ أرضنا . هلمي نجني ثمار الارض مثلما جنت النفس حبوب السعادة من بذور الوفاء

التي زرعتها المحبة في أعماق قلبينا ، ونملأ المخازن من نتاج العناصر كما ملأت الحياة اهراء عواطفنا

هلمي يا رفيقتي نفترش الاعشاب ونلتحف السماء ونوسد رأسينا بضغث من القش الناعم فنرتاح من عمل النهار ونسمع مسامرة غدير الوادي .

— الخريف —

لنذهب الى الكرمة يا محبوبتي ونعصر العنب ونوعيه في الاجران مثلما توعي النفس حكمة الاجيال ونجمع الاثمار اليابسة ونستقطر الازهار ونستعيض عن العين بالأثر

لنرجع نحو المساكن فقد اصفرت أوراق الاشجار ونثرها الهواء كأنه يريد ان يكفن بها ازهاراً قضت لوعة عند ما ودعها الصيف . تعالي فقد رحلت الطيور نحو الساحل وحملت معها أنس الرياض وخلفت الوحشة للياسمين والسيسبان فبكى باقي الدموع على أديم التراب .

لنرجع ، فالجداول قد وقفت عن مسيرها ، والعيون نشفت دموع فرحها ، والطلول خلعت باهي أثوابها ، تعالي يامحبوبتي ، فالطبيعة قد راودها النعاس ، فأمست تودع اليقظة بأغنية نهاوندية مؤثرة .

— الشتاء —

اقتربي يا شريكة حياتي ، اقتربي مني ولا تدعي أنفاس الثلوج تفصل جسمينا . اجلسي بجانبي امام هذا الموقد ، فالنار فاكهة الشتاء الشهية . حدثيني بما تى الاجيال ، فآذاني قد تعبت من تأوه الارياح وندب العناصر . اوصدي الابواب والنوافذ ، فرأى وجه الجو الغضوب بحزن نفسي والنظر الى المدينة الجالسة كالثكلى تحت أطباق الثلوج يدمي قلبي . . اسقي السراج زيتاً . يا رفيقة عمري ، فقد اوشك ان ينطفيء ، وضعيه بالقرب منك لارى ما كتبته الليالي على وجهك ... هات جرة الخمر لنشرب ونذكر أيام العصر

اقتربي ! — اقتربي مني ياحبيبة نفسي فقد خمدت النار وكاد الرماد يخفيها . . ضميني فقد انطفأ السراج وتغلبت عليه الظلمة . . ها قد اثقلت أعيننا خمرة السنين . . ارمقيني بعين كحلها النعاس .. عانقينا قبل أن يعانقنا الكرى .. قبليني فالثلج قد تغلب على كل شيء الا على قبلتك.. آه ياحبيبتي ما أعمق بحر النوم . آه ما ابعد الصباح .. في هذا العالم

في مدينة الاموات

تملصت بالامس من غوغاء المدينة وخرجت أمشي في الحقول الساكنة حتى بلغت أكمة عالية ألبستها الطبيعة أجمل حلاها . فوقفت وقد بانت المدينة بكل ما فيها من البنايات الشاهقة والقصور الفخمة تحت غيمة كثيفة من دخان المعامل .

جلست أتأمل عن بعد في أعمال الانسان فوجدت اكثرها عناء ، فحاولت في قلبي ألا افتكر بما صنعه ابن آدم وحولت عيني نحو الحقل كرسي مجدالله فرأيت في وسطه مقبرة ظهرت فيها الاجداث الرخامية المحاطة باشجار السرو

هناك بين مدينة الاحياء ومدينة الاموات جلست أفكر — أفكر في كيفية العراك المستمر والحركة الدائمة في هذه وفي السكينة السائدة والهدو المستقر في تلك . من الجهة الواحدة آمال وقنوط ، ومحبة و بغضة ، وغنى وفقر ، واعتقاد وجحود ، ومن الاخرى تراب في تراب تقلب الطبيعة بطنه ظاهراً وتبدع منه نباتاً ثم حيواناً وكل ذلك يتم في سكينة الليل .

بينما أنا مستسلم لعوامل هذه التأملات استلفت ناظري جمع غفير يسير الهوينا تتقدمه الموسيقى وتملأ الجو الحاناً محزنة . موكب جمع بين الفخامة والعظمة وآلاف بين أشكال الناس . جنازة غني قوي . رفات ميت تتبعها الاحياء وهم يبكون و يولولون و يملأون الهواء الصراخ والعويل .

بلغوا الجبانة فاجتمع الكهان يصلون و يبخرون وانفرد الموسيقيون ينفخون الابواق و بعد قليل انبرى الخطباء فأبنوا الراحل بمنتقيات الكلام ثم الشعراء فرثوه بمنتخبات المعاني وكل ذلك كان يتم بتطويل مملّ و بعد قليل انقشع الجمع عن جدث تسابق في صنعه الحفارون والمهندسون وحوله أكاليل الازهار المنمقة بأيدي المتفننين .

رجع الموكب نحو المدينة وأنا انظر من بعيد وأفتكر

ومالت الشمس نحو الغروب واستطالت خيالات الصخور والاشجار وأخذت تخلع أثواب النور .

في تلك الدقيقة نظرت فرأيت رجلين يقلان تابوتاً خشبياً ووراءهما امرأة ترتدي أطماراً باليـة وهي حاملة على منكبيها طفلاً رضيعاً وبجانبها كلب ينظر اليها تارة والى التابوت أخرى — جنازة فقير حقير وراءها زوجة تذرف دموع الاسى وطفل يبكي لبكاء أمه وكلب أمين يسير وفي مسيره حزن وكآبة .

وصلوا هؤلاء الى المقبرة وأودعوا التابوت حفرةً في زاوية بعيدة عن الاجداث الرخامية ثم رجعوا بسكينة مؤثرة والكلب يتلفت نحو محط رحال رفيقه حتى اختفوا عن بصري وراء الاشجار

فالتفتُ اذ ذاك نحو مدينة الاحياء وقلت في نفسي : — تلك للاغنياء الاقوياء . ثم نحو مدينة الاموات وقلت :— هذه للاغنياء الاقوياء . فأين موطن الفقير الضعيف يارب ؟

قلت هذا ونظرت نحو الغيوم المتلبدة المتلونة اطرافها بذهب من أشعـة الشمس الجميلة . وسمعت صوتاً من داخلي يقول . . هناك .



بنات البحر

في أعماق البحر الذي يحيط بالجزائر القريبة من مطلع الشمس — هنالك في الاعماق حيث الدر الكثير جثة فتى هامدة بقربها بنات البحر ذوات الشعور الذهبية قد جلسن بين نبات المرجان ينظرون اليها بعيونهن الزرقاء الجميلة ويتحدثن بأصوات موسيقية. حديثاً سمعته اللجة فحملته الامواج الى الشواطىء فجاء به النسيم الى نفسي.

قالت واحدة : — « هذا بشريٌّ هبط بالامس اذ كان البحر حانقاً »

فقالت الثانية : « لم يكن البحر حانقاً ولكن الانسان — وهو الذي يدَّعي بأنه من سلالة الالهة — كان في حرب حامية أهرقت فيها الدماء حتى صار لون الماء قرمزياً وهذا البشري هو قتيل الحرب . »

فقالت الثالثة : — « لا أدري ماهي الحرب ولكني أعلم ان الانسان بعد ان تغلب على اليابسة طمع بالسيادة على البحر فابتدع الآلات الغريبة ومخر العباب فدرى نبتون اله البحار وغضب من هذا التعدي فلم ير الانسان بدًّا اذ ذاك من إرضاء مليكنا بالذبائح والهدايا . فالاشلاء التي رأيناها بالأمس هابطة هي آخر تقدمة من الانسان الى نبتون العظيم »

قالت الرابعة : — « ما أعظم نبتون ولكن ما أقسى قلبه . لو كنت أنا سلطانة البحار لما رضيت بالذبائح الدموية . تعالين لنرى جثة هذا الشاب فربما أفادتنا شيئاً عن طائفة البشر » .

اقتربت بنات البحر من جثمان الشاب وبحثن في جيوب أثوابه فعثرن على رسالة في الثوب الملاصق قلبه فأخذت الرسالة واحدة منهن وقرأت :

« ياحبيبي . — هاقد انتصف الليل وانا ساهرة وليس لي مسلٍّ غير دموعي ولا معزٍّ سوى املي برجوعك اليّ من بين مخالب الحرب ولا اقدر بأن افتكر بما قلته لي عند الوداع بأن عند كل انسان أمانة من الدمع لا بد من ردها يوما . . لا ادري ياحبيبي ماذا أكتب بل اترك نفسي تسيل على الورق . نفس يعذبها الشقاء ويعزيها الحب الذي يجعل الالم

لذة والاحزان مسرة . لما وحّد الحب قلبينا وصرنا نتوقع ضم جسمين تجول فيهما روحٌ واحدة نادتك الحرب فاتبعتها مدفوعاً بعوامل الواجب والوطنية . ما هذا الواجب الذي يفرق المحبين و يرمل النساء و ييتم الاطفال ؟ ماهذه الوطنية التي من اجل اسباب صغيرة تدعو الحرب لتخريب البلاد ، ماهذا الواجب المحتوم على القروي المسكين والذي لايحفل به القوي وابنُ الشرف الموروث ؟ اذا كان الواجب ينفي السلم من بين الامم ، والوطنيـة تزعج سكينة حياة الانسان ؟ فسلام على الواجب والوطنية . . . لا لا ياحبيبي ؟ لا تحفل بكلامي بل كن شجاعاً ومحباً لوطنك ولا تسمع كلام ابنة أعماها الحب وأضاع بصيرتها الفراق . اذا كان الحب لا يرجعك اليّ في هذه الحياة فالحب يضمني اليك في الحيـاة الآتية »

وضعت بنات البحر تلك الرسالة تحت أثواب الشاب وسبحن بسكينة محزنة ولمـا بعدن قالت واحدة منهن : — « ان قلب الانسان أقسى من قلب نبتون »



شذرات

الحقيقة في المظهر تحتاج الى متكلم وسامع . اما الحقيقة في المصدر فلا تحتاج الى لسان ولا الى آذان

الكبير من الناس يعزو اليَّ الكبر ، والصغير منهم يشكو من صغري . والغريب ان كليهما محق عادل .

يقول لي منزلي « لا تغادرني فانا خافظ اسرار ماضيك » وتقول لي السبل « قم واتبعني فني منعكفاتي اسرار مستقبلك » . وانا أقول لمنزلي وللسبل « ليس لي ماضٍ ولا مستقبل ، فان بقيت هنا فني بقائي الذهاب ، وان ذهبت الى هناك فني ذهابي البقاء »

ما أبعدني عن البشر وأنا بينهم ، وما أقربهم اليَّ وانا بعيد عنهم .

لا يحترم الناس الامومة الا اذا جاءت مرتدية بأثواب شرائعهم .

الحب كالموت يغير كل شيء

ارواح بعض الناس شبيهة بالالواح السوداء المعلقة على جدران المدرسة تكتب عليها لأيام بعض الآيات والقواعد والامثلة ولكنها تعود وتمحوها باسفنجة بليلة .

حقيقة الموسيقى في ما يبقى مرتعشاً بسمعك بعد ان ينتهي المغني من انشاده ويقف العازف عن نقر أوتاره .

ما رغبت في أمر الا وقام من رغبتي فيه شيء يصدني عنه

قالت لي امرأة كيف أشك بأن الحرب الكونية كانت مقدرة ومجيدة وقد صرع وحيدي في احدى ساحاتها ؟

ماذا عسى أقول في من يستدين مالي ليشتري سيفاً ليبارزني به ؟

ليس هناك من قيمة للأعمال التي نستطيع ارجاعها واسنادها الى أسباب معلومة لدينا .

قال لي نبي « حبَّ عدوك » فامتثلت وأحببت ذاتي

يقول السواد للبياض لو كنت رمادياً لتساهلت معك .

ما أكثر الذين يعرفون ثمن كل شيء ولا يعرفون قيمة لشيء .

ترجمة كل امرىء مكتوبة على جبهته ولكن بلغة لا يحسن قراءتها الا من أوتي الوحي .

منذ أربعين قرناً سمعت في بابل امرأة تقول لجارتها « عند ما قال لي كذا قلت له كذا وكذا » وبالامس سمعتها في نيويورك تتابع حديثها لجارتها قائلة « ولما أجابني بكذا وكذا عدت فقلت له كذا وكذا »

أرني وجه أمك أقل لك من أنت .

حرية من يتبجح بحريته شكل من العبودية .

يشكرني بعضهم لا اقراراً بعرفان الجميل بل ليذيع أمام الناس أهليته الرائعة لمواهبي السنية .

ليس الذوق السليم بالتعنت أو بالانتخاب بل بترتيب الأشياء وايجاد الفة طبيعية بين كيانها ومزاياها .

خشونة بعضهم أفضل من لطف البعض الآخر

اشمئزاز الناس مما لا يفهمون كاشمئزاز المحمومين من المآكل الشهية

ليست الثرثرة عيباً بل مرضاً .

أحب الأطفال ولكن بدون لحى وشوارب وأحترم الشيوخ ولكن ليس بالمهود والاقمطة .

الصلبان

المكان — منزل يوسف مسرة في بيروت

الزمان — ليلة من ليالي الخريف سنة ١٩٠١

الاشخاص

بولس الصلبان موسيقي وأديب

يوسف مسرة — كاتب وأديب

الآنسة هيلانه مسرة — شقيقة يوسف

سليم معوض — شاعر وعواد

خليل بك تامر — موظف في الحكومة

يرفع الستار عن قاعة حسنة في منزل يوسف مسرة مفعمة بالكتب والاوراق — خليل بك تامر يدخل بالنارجيلة . الآنسة هيلانة تطرز . يوسف مسرة يدخن لفافة —

خليل بك « مخاطباً يوسف مسرة » — قد قرأت اليوم مقالتك في الفنون الجميلة وتأثيرها على الاخلاق وقد أعجبتني كثيراً ، ولو لا صبغتها الافرنجيــة لكانت خير ما كتب في الموضوع . أنا يا مسرة أفندي من الذين يرون ان تأثير الآداب الغربيــة على لغتنا من الامور المضرة .

يوسف مسرة « مبتسماً » — قد يكون الحق معك يا صديقي ولكن بارتدائك الملابس الافرنجية و بتناولك الطعام بآنية أفرنجية وبجلوسك على مقاعد أفرنجية قد عارضت ذاتك بذاتك . وفوق كل ذلك أنت أكثر ميلاً الى مطالعة الكتب الافرنجية منك الى مطالعة الكتب العربية .

خليل بك — ليس لهذه الامور السطحية من علاقة بالآداب والفنون .

يوسف مسرة — نعم هناك علاقة حيوية وضعية . واذا تعمقت قليلاً في الموضوع

تجد ان الفنون تلازم العادات والازياء والتقاليد الدينية والاجتماعية بل تلازم كل مظهر من مظاهر حياتنا الاجتماعية .

خليل بك — أنا شرقي وسابقى شرقياً الى آخر حياتي وقهراً عن بعض مظاهري الاوربية فانا أرجو أن تبقى الآداب العربية طاهرة ونقية من جميع التأثيرات الاجنبية .

يوسف مسرة — اذاً أنت ترجو موت اللغة والآداب العربية ؟

خليل بك — وكيف ذلك ؟

يوسف مسرة — ان الامم المسنة التي لا تكتسب مما تثمره الامم الحديثة تموت أدبياً وتنقرض معنوياً .

خليل بك — ان كلامك هذا يحتاج الى برهان .

يوسف مسرة — لديّ ألف برهان و برهان .

« في هذه الدقيقة يدخل بولس صلبان وسليم معوض فيقف الحاضرون لهما احتراماً »

يوسف مسرة — أهلاً وسهلاً بالاخوان « مخاطباً الصلبان » أهلاً وسهلاً ببلبل سوريا .

« الآنسة هيلانة تنظر الى الصلبان وقد توردت وجنتاها قليلاً وظهرت على محياها امارات السرور »

سليم معوض — بالله عليك يا يوسف ان لا تقول كلمة حسنة لبولس

يوسف مسرة — ولماذا ؟

سليم معوض « بين الجد والمزاح » — لانه لا يستحق التكريم ولا المديح ولا الاطراء . لانه ذو أطوار وأخلاق غريبة . لانه مجنون .

بولس الصلبان — « مخاطباً معوض » — هل أحضرتك برفقتي الى هذا المنزل لتبين عيوبي وتشرح أخلاقي ؟

الآنسة هيلانه — ماذا جرى ياترى ؟ هل كشفت يا سليم افندي عيوباً جديدة في أخلاق بولس ؟

سليم معوض — ان عيوبه القديمة ستبقى جديدة حتى يموت ويدفن وتتحول عظامه الى تراب .

يوسف مسرة — اخبرنا . ماذا جرى ؟ اخبرونا بالحكاية من اولها الى آخرها !

سليم معوض « مخاطباً الصلبان » — هل تسمح لي أن أتكلم عن جرائمك يا بولس أم تريد أن تعترف أنت بها ؟

بولس الصلبان — أريدك أن تبقى صامتاً كالمقبرة هاجماً كقلب العجوز

سليم معوض — اذاً فسوف أتكلم .

الصلبان — يظهر لي أنك تريد أن تنغص عيشتي في هذه السهرة .

سليم معوض — لابل أريد أن أعرض قصتك أمام هؤلاء الاصحاب لينظروا في أمرك .

الآنسة هيلانه « مخاطبة معوض » — تكلم وأسمعنا ما جرى ! « للصلبان » قد تكون الجريمة التي يريد سليم أن يظهرها احدى فضائلك .

الصلبان — لم أقترف جريمة كما أنني لم أفعل فضيلة . أما المسألة التي يحترق صاحبنا لاظهارها فهي لا تستحق الذكر وفوق كل ذلك فانا لا أريدكم أن تصرفوا السهرة بحديثي

الآنسة هيلانه — حسن اذاً فلنسمع الخبر !

سليم معوض « يشعل لفافة ويجلس بقرب يوسف مسرة » — قد سمعتم طبعاً يا سادتي بزواج ابن جلال باشا وقدعرفتم ان والد العريس قد أقام ليلة أمس حفلة طرب دعا اليها وجهاء المدينة وكبارها « مشيراً الى بولس » وقد دعا هذا الشرير ودعيت أنا أيضاً والسبب في ذلك ان الناس يحسبونني ظلاً ابولس أسير حيث يسير وأقوم حيث يقوم ، ولانه ، أدامه الله وأبقاه ، لا يحب الانشاد الا على نقرات عودي . بلغنا منزل جلال باشا متأخرين و بولسنا كالملوك لا يجيء الا متأخراً فوجدنا هناك الوالي والمطران بل وجدناهناك الحسناء الفاضلة والاديب والشاعر والمثري والزعيم . جلسنا بين مجامر البخور وكؤوس الخمر والقوم ينظرون الى بولس كأنه ملاك هبط من السماء أما السيدات

فاخذن يقدمن اليه كؤوس الخمر وصحف النقل وطاقات الازهار مثلما كانت تفعل نساء أثينا عند رجوع أحد الابطال من ساحات الحرب . خلاصة الكلام إن بولسنا كان في بدء السهرة موضوعاً للتكريم والاحتفاء . اخذت عودي وضربت أولاً وثانياً وثالثاً ففتح بولس شفتيه المقدستين وانشد بيتاً — بيتاً واحداً من قصيدة الفارض

غيري على السلوان قادر   وسواي في المشاق غادر

فاصغى القوم وتطاولت اعناقهم كأن الموصلي قد جاء من وراء حجب الابدية فيهمس في آذانهم انفاحاً سحرية علوية . و بعد ذلك سكت بولس فظن الحاضرون انه سيعود الى الانشاد بعد ان يشرب كاساً أخرى من العرق ولكن بولس ظل ساكتاً .

بولس الصلبان « بلهجة جدية » — ارجوك ان تقف عند هذا الحد فانا لا اقدر ان اسمع هذا الحديث البليد وانا لا اشك بان اصحابنا لا يجدون لذة بهذه الثرثرة الخالية من المعنى

يوسف مسرة — بحقك دعنا نسمع البقية .

خليل بك — لم نصل الآن لقلب الخبر

بولس الصلبان « ينهض من مكانه قائماً » — الظاهر انكم تفضلون هذا الحديث البارد على وجودي بينكم — أودعكم !

الآنسة هيلانه « تنظر الى بولس نظرة معنوية » — اجلس يا بولس ومهما كان الخبر فنحن معك

« يجلس بولس وعلى وجهه دلائل الصبر والتجلد »

سليم معوض « متابعاً حديثه » — قلت ان بولس المعطر المعظم قد انشد بيتاً — بيتاً واحداً من قصيدة الفارض وسكت . اعني بذلك انه اذاق اولئك الجياع المساكين لقمة واحدة من طعام الآلهة ثم رفس المائدة وكسر آنيتها وكؤوسها ثم جلس ساكتاً جلوس ابي الهول على رمال النيل . وقامت السيدات الواحدة بعد الاخرى يستعطفنه بارق الكلام لينشد اغنية اخرى فكان يعتذر لهن بقوله — « انا مرشح . اشعر بألم في حنجرتي » — ثم قام الوجهاء والاغنياء يرجونه ويتذللون امامه فلم يحنّ ولم يلن بل بقي

جامداً قاسياً متمنعاً كأن الله قد ابدل قلبه بحجر من الصوان وحول الانغام في نفسه الى الغنج والدلال . و بعد نصف الليل وقد بلغ القنوط من الحاضرين حد الألم ناداه جلال باشا الى غرفة محاذية ووضع في جيبه قبضة من الدنانير قائلاً « انت تستطيع يابولس افندي ان تختم حفلتنا بالسرور و بالاكدار لذلك ارجوك ان تقبل مني هذه الهدية الصغيرة لا كمكافأة بل كمظهر لشعوري نحوك فلا تخيب آمالي وآمال الحاضرين بك » . عند ذلك تعالت قامة بولس وظهرت لوائح الكبرياء على وجهه ورمى بالدنانير الى مقعد بجانبه قائلاً بلهجة الملوك الفاتحين « انت تهينني يا جلال باشا بل انت تحتقرني فانا لم اجيء الى منزلك لكي انشد واغني وابيع انفاسي بالمال بل جئت كأحد المهنئين » . بعد ذلك فقد جلال باشا صبره وتجلد وتلفظ ببعض كلمات خشنة جعلت بولس الحساس يخرج من المنزل لاعناً مجدفاً . اما أنا — أنا المسكين فقد تناولت عودي وتبعت بولس تاركاً ورائي الوجوه الجميلة والقامات النحيلة والخمور الطيبة والمآكل الشهية . نعم قد ضحيت بكل ذلك لكي لاافقد صداقة هذا المتصلب المتعنت قد ضحيت بكل ذلك على مذبح هذا البعلبم وهو للآن لم يشكرني و يمدح بسالتي ولم يعترف بمودتي وولائي .

يوسف مسرة « ضاحكاً » — هذه بالحقيقة حكاية لذيذة حرية أن تكتب بالابر على اماق البصر !

سليم معوض — لم أصل للآن الى نهاية الحكاية . أما اللذة ففي النهاية تلك النهاية الشيطانية التي لم يحلم بمثلها اهرمان الفرس ولا سيفا الهنود .

بولس الصلبان « مخاطباً الآنسة هيلانه » — بقيت ههنا اكراماً لك والآن أرجوك ان تطلبي من هذا الضفدع ان يقف عند هذا الحد .

هيلانه — دعه يتكلم يا بولس ! ومهما كانت نهاية الخبر فنحن معك قلباً وقالباً .

سليم معوض « يشعل لفافة ثانية و يتابع الحديث » — قلت اننا خرجنا من منزل جلال باشا و بولس يجدف على اسم الاغنياء والوجهاء وانا اجدف على اسمه في سري و بعد ذلك — و بعد ذلك هل تظنون انه ذهب كل منا الى منزله ؟ هل تظنون ان ليلة أمس قد انتهت على هذه الصورة ؟ اسمعو وتعجبوا ! ! تعلمون ان بيت

حبيب سعاده محاذ لمنزل جلال باشا ولا يفصلها غير حديقة صغيرة . وانتم تعلمون ان حبيب سعاده من عشاق المدام والانغام والاحلام وممن يعبدون هـذا البعليم « مشيراً الى بولس » فلما خرجنا من منزل جلال باشا وقف بولس دقيقـة في منتصف الشارع فاركاً جبهته كأنه قائد عظيم يفكر بفتح مملكة عاصية ثم مشى فجأة نحو منزل حبيب سعاده وقرع الجرس بشدة فظهر حبيب بملابس النوم وهو يفرك عينيه ويتمتم ويتثاءب ولكنه عند مارأى وجه بولس ورآني حاملاً العود تحت ابطي تغيرت سحنته ولمعت عيناه كأن السماء انفتحت امامه وصرخ مسروراً مؤهلاً قائلاً — « ما أتى بـكم في هذه الساعـة المقدسة ؟ » فاجاب بولس — « قد جئنا لنحتفل بعرس ابن جلال باشا في دارك » فقال حبيب « هل ضاقت عليكم دار جلال باشا فجئتم الى هذا المنزل الحقير ؟ » فاجاب بولس « ليس لجدران بيت الباشا آذان تسمع رنات العود والاناشيد من اجل ذلك جئنا اليك فهات قنية العرق وصحفة المازة ولا تطل الكلام » الخلاصة جلسنا حول مائدة الشراب ولم يتناول بولس كاساً أو كاسين من العرق حتى قام وفتح النوافذ التي تطل على حديقة الباشا ثم ناولني العود وقال آمراً « هذي عصاك ياموسى فحولها الى افعى ومرها ان تبتلع جميع افاعي مصر . اضرب النهوند واضرب طويلاً واضرب جميلاً » فتناولت العود وليس على العبد الا الطاعة وضربت النهوند فحول بولس وجهه نحو منزل جـلال باشا وأخذ ينشد بصوت عال

« هنا يسكت سليم دقيقة وتزول سيماء المزاح عن وجهه ويقول بلهجة هادئة جدية ».

أنا أعرف بولس منذ خمس عشرة سنة . أعرفه منذ كنا صبيين في المدرسة ولقد سمعته منشداً في حالتي الفرح والشقاء . سمعته ينوح كالثكلى ويترنم كالعاشق ويهلل كالمنتصر . سمعته يهمس في سكينة الليل وقد نامت هذه المدينة وسكانها وسمعته بين أودية لبنان وأجراس الـكنائس البعيدة يملأ الفضاء سحراً وهيبة . نعم لقـد سمعته منشداً الف مرة ومرة وكنت أتوهم انني أعرف حركات روحه وسكناتها ولـكنني في ليلة أمس لما حول وجهه نحو منزل جلال باشا واغمض عينيه وأنشد .

« كل يوم اشكو من غرام قلبي   وكلما اشكو يزيد الغرام »

عند ماأنشد هذا الدور متلاعباً بمقاطيعه مثلما يتلاعب الهواء باوراق الخريف قلت في نفسي لا — ما عرفت في الماضي من روح بولس الا القشور أما الآن فقد بلغت اللباب . لم أسمع في الماضي غير لسان بولس منشداً اما الآن فاني أسمع قلبه وروحه ... وظل بولس يلاحق الدور بالدور ويتدرج من نشيد الى نشيد حتى خيّل لي ان الفضاء طغمة من أرواح العشاق تحوم مرفرفة هامسة منادية مرددة تذكارات الماضي البعيد ناشرة ما طوته الليالي من أماني البشر وأحلامهم . نعم يا سادتي « مشيراً الى بولس » ان هذا الرجل قد صعد ليلة أمس على سلم الفن حتى بلغ الكواكب ومن العجائب انه لم يهبط الى الارض حتى الفجر . لم يسكت حتى وضع اعداءه تحت موطىء قدميه كما جاء في المزامير . أما ضيوف جلال باشا فلم يسمعوا صوته خارجاً من منزل حبيب سعاده حتى تزاحموا في النوافذ وجلسوا نساءً ورجالاً يتأوهون بعد كل مقطع وكل نبرة تخرج من فمه . وقد خرج بعضهم الى الحديقة ووقفوا تحت الاشجار مغبوطين متعذبين مصغين محتارين في أمر هذا البعليم الذي ينكيهم ويهينهم وفي الوقت نفسه يملأ قلوبهم بخمرة علوية وقد كان يناديه البعض مستعطفاً مترجياً والبعض متوعداً مجدفاً وقد علمت من أحد المدعوين أن جلال باشا كان يزأر كالاسد متنقلاً من غرفة الى غرفة لاعناً الصلبان غاضباً على ضيوفه خصوصاً على أولئك الذين خرجوا الى الحديقة حاملين كؤوس العرق وصحف المازة بايديهم . هذا ما جرى ليلة أمس فما قولكم في هذا النابغة المجنون ؟ ما رأيكم بأطوار هذا الرجل وأخلاقه الغريبة ؟

خليل بك — هذه حادثة عجيبة . أما رأيي فيها فهو هذا — أنا من المعجبين بمواهب بولس افندي ومع كل احترامي له أقول انه قد اخطأ ليلة أمس فقد كان بامكانه أن ينشد في بيت جلال باشا كما أنشد في بيت حبيب سعاده ويقابل استعطاف القوم بشيء من فنه . « مخاطباً يوسف مسرة » ما رأيك يا يوسف افندي ؟

يوسف مسرة — أنا لا ألوم الصلبان كما انني لا أحاول فهم أسراره وخفاياه لعلمي ان المسألة شخصية تتعلق به دون سواه ولعلمي ان أخلاق الفنيين خصوصاً الموسيقيين منهم تختلف عين أخلاق الناس كافة وليس من الصواب أو العدالة ان نقيس أعمالهم

وما تيهم على المقاييس التي نستخدمها لادراك أعمال غيرهم . ان الفني — واعني بالفني ذلك المبدع الذي يخلق لافكاره وعواطفه صوراً جديدة — هو رجل غريب بين أهله وخلانه وغريب في وطنه بل هو غريب عن هذا العالم . الفني يميل شرقاً عنـد ما يميل الناس غرباً ويتأثر لعوالم باطنية لا يستطيع هو نفسه أن يبسطها فهو تعس بين الفرحين فرح بين التعساء ضعيف بين القـادرين قادر بين الضعفاء . الفني فوق الشريعـة رضي الناس أم غضبوا .

خليل بك — ان كلامك هـذا يا يوسف أفندي لا يختلف بمعانيه ومفاده عما جاء في مقالاتك عن الفنون الجميلة واسمح لي أن أقول ثانيـة ان الروح الغربية ، الروح الافرنجية التي تكرز بها ستكون سبباً لزوالنا كشعب واضمحلالنا كأمة .

يوسف مسرة — هل تحسب مافعله بولس افندي ليلة أمس مظهراً للروح الافرنجية التي تنكرها وتكرهها ؟

خليل بك — اني استغرب مافعله بولس أفندي ، أقول ذلك مع الاحترام لشخصه .

يوسف مسرة — أوليس للصلبان تمام الحرية ان يفعل بصوته وفنـه ما يشاء ومتى يشاء ؟

خليل بك — نعم له تمـام الحرية أن يفعل ما يشاء ولـكنني أرى أن حياتنا الاجتماعية لا تتفق مع هذا النوع من الحرية . ان ميولنا وعاداتنا وتقاليدنا لا تسمح للفرد الواحد أن يفعل مافعله بولس أفندي ليلة أمس بدون أن يضع نفسه في موقف حرج .

الآنسة هيلانة — هذه مناظرة لذيذة ومفيدة . ولـكن بما أن السبب في هـذه المناظرة موجود بيننا فهو بالطبع يستطيع أن يدافع عن نفسه بنفسه .

بولس الصلبان « بعـد سكوت طويل » — كنت أتمنى لو لم يفتح سليم هـذا الحديث . بل كنت أود أن يزول ما جرى ليلة أمس مع ليلة أمس ولـكن بما أنني في مركز حرج كما يقول حضرة البك فانا لا أرى بداً من اظهار أفكاري في هذا الموضوع . أنتم تعلمون وأنا أعلم أيضاً ان أكثر من يعرفني ينتقدني . هذا يقول انني مغنج وذلك انني أعوج . وهناك فئة تقول انني لئيم وليس للئيم كرامـة . وما هو السبب يا ترى في

هذه الانتقادات الجارحة ؟ السبب في أخلاقي . نعم في أخلاقي التي لا أقدر أن أغيرها ولو قدرت لما أردت . ولماذا يا ترى يهتم الناس بي وبأخلاقي ! اليس بامكانهم أن يتناسوا كياني ؟ في هذه المدينة كثير من المغنين والمنشدين والموسيقيين وكثير من الشعراء والمقرظين وكثير من المبخرين والشحاذين الذين يبيعون أصواتهم وأفكارهم وعواطفهم بل ويبيعون نفوسهم بدينار أو بعلبة أو بقنينة من الخمر . وقد عرف أغنياؤنا ووجهاؤنا هذا السر لذلك تراهم يبتاعون ابناء الفن والادب بابخس الأثمان ويعرضونهم في منازلهم وقصورهم كما يعرضون خيولهم ومركباتهم في الساحات والطرق . نعم أيها السادة ان المغنين والشعراء في الشرق هم حملة المباخر بل هم العبيد وقد فرض عليهم أن ينشدوا في الاعراس ويترنموا في الحفلات ويندبوا في المآتم ويرثوا في المقابر . هم الآلات التي تدار في أيام الحزن وليالي الافراح ، فاذا لم يكن من داعٍ للحزن أو الفرح طرحوا جانباً كأنهم سلع لا قيمة لها . وأنا لا ألوم الوجهاء والاغنياء بل ألوم المغنين والشعراء والادباء الذين لا يحترمون نفوسهم ولا يضنون بماء وجوههم . ألومهم لأنهم لا يترفعون عن الصغائر والتوافه . ألومهم لأنهم . . . .

خليل بك « متهيجاً » — ان القوم كانوا يستعطفونك ليلة أمس ويحاولون بكل وسيلة لديهم أن يسترضوك لتتكرم عليهم باغنية أو نشيد . فهل تحسب انشادك في بيت جلال باشا نوعاً من الخضوع والتذلل ؟

بولس الصلبان — لو استطعت الانشاد في منزل جلال باشا لفعلت . ولكنني نظرت حولي فلم أجد بين الحاضرين غير الموسرين الذين لا يسمعون من الاصوات الا رنات الدنانير والوجهاء الذين لا يفهمون من الحياة الا ما يرفعهم ويخفض سواهم لا يفضلون الموت على الخضوع والتذلل . نظرت حوالي فلم اجد من يميز النهوند عن الرصد أو العشاق عن الاصبهان . لذلك لم أستطع أن أفتح صدري أمام العميان وأعرض أسرار قلبي أمام الطرشان . انما الموسيقى لغة الارواح . هي سيّال خفي يتموج بين روح المنشد وأرواح السامعين ، فاذا لم يكن هناك من أرواح تسمع وتفهم ما تسمع فالمنشد يفقد ذلك الميل الى البيان ويفقد ذلك الشوق الى اظهار ما في أعماقه من الحركات والسكنات .

والموسيقيّ مثل قيثارة ذات أوتار مشدودة حساسة فاذا تراخت تلك الاوتار فقدت خاصتها وأصبحت كخيوط من الكتان . « يقف و يسير بضع خطوات ثم يقول ببطء » — لقد تراخت أوتار روحي في منزل جلال باشا عند ما تفرست في الحاضرين نساءً ورجالاً ولم أرَ بينهم غير المتكلف والمتصنعة والمتقلد والبليدة والعقيم والمتعجرفة . أما استعطافهم اياي فلم يكن نالجاً الاعن تمنعي وسكوتي . ولو كنت كالكثيرين من ضفادع المنشدين لما اهتمَّ أحدٌ بي .

خليل بك « يقاطعه مداعباً » — و بعد ذلك ذهبت الى منزل حبيب سعاده وللنكاية — وللنكاية فقط — جلست منشداً حتى الصباح !

بولس الصلبان — جلست منشداً حتى الصباح لاني أردت أن أفرغ مكنونات قلبي . لانني أردت أن القي حملاً ثقيلاً عن عاتقي . لانني أردت أن أعاتب الليل والحياة والدهر . لانني شعرت بحاجة ماسة الى شد تلك الاوتار التي تراخت في منزل الباشا .

أما اذا كنت تظن يا خليل بك انني أردت النكايه فلك الحق بأن تفتكر بما تريد . ان الفن طائر حرٌّ يسبح محلقاً عند ما يشاء ويهبط الى الارض عند ما يشاء وليس من قوة في هذا العالم تستطيع تقييده أو تغييره . الفن روح سامٍ لا يباع ولا يشرى ، وعلى الشرقيين أن يعرفوا هذه الحقيقة المطلقة . أما الفنيون بيننا — وهم أندر من الكبريت الاحمر — فعليهم أن يكرموا نفوسهم لانها الا ناء الذي يملأه الله خمرة علوية .

يوسف مسرة — اني متفق معك يابولس . ولقد أبنتَ أفكاري في هذا الموضوع بصورة لا أستطيع أنا اظهارها . أنت ابن الفن أما أنا فباحث بالفنون ، والفرق بيننا هو كالفرق الكائن بين العنب الحامض والخمرة المعتقة .

سليم معوض — الصلبان يتكلم مثلما ينشد وليس على سامعه الا الاقتناع والاذعان .

خليل بك — لم أقتنع بعد ولن أقتنع . وما فلسفتكم هذه الا احدى تلك العلل المتسربة الينا من بلاد الافرنج .

يوسف مسرة — لو سمعت الصلبان منشداً ياحضرة البك لاقتنعت ونسيت الفلسفة .

« في هذه الدقيقة تدخل الخادمة وتخاطب الآنسة هيلانة قائلة : — يامعلمتي قد جاءت الكنافة من الفرن فوضعتها على المائدة. »

« يوسف مسرة ينتصب مخاطباً الجميع » — تفضلوا أيها الاخوان فقد هيأنا لكم أكلة لذيذة — لذيذة جداً — وتكاد أن تكون صلبانية بنكهتها وحلاوتها !

« يقف الجميع ثم يخرج يوسف مسرة وخليل بك وسليم معوض أما الصلبان والآنسة هيلانة فيظلان واقفين في وسط القاعة وكل يحدق بوجهه الآخر وفي عينيهما أشعة لا توصف »

هيلانة « هامسة » — هل علمت انني كنت مصغية اليك ليلة أمس ؟

الصلبان « مستغرباً » — ماذا تعنين يا هيلانة قلبي ؟

هيلانة « بخجل ووجل » — كنت أمس في بيت شقيقتي مريم . — ذهبت لانام عندها لان زوجها متغيب وهي تخاف وحدها .

الصلبان — أو بيت صهرك على طريق الحرج ؟

هيلانه — ولا يفصله عن بيت حبيب سعاده غير زقاق ضيق .

الصلبان — وهل سمعتني منشداً ؟

هيلانة — سمعت نداء روحك من نصف الليل حتى الفجر . سمعتك حتى سمعت الله متكلماً .

« يسمع صوت يوسف مسرة آتياً من الغرفة المحاذية قائلاً تفضل يابولس فقد بردت الكنافة »

« يخرج بولس وهيلانة . الستار ! »

يوحنا المجنون

١

في أيام الصيف كان يوحنا يسير كل صباح الى الحقل سائقاً ثيرانه وعجوله ، حاملاً محراثه على كتفه مصغياً لتغاريد الشحارير وحفيف أوراق الغصون وعند الظهيرة كان يقترب من الساقية المتراكضة بين منخفضات تلك المروج الخضراء ويأكل زاده تاركاً على الاخشاب مابقي من الخبز للعصافير . وفي المساء عند ما ينتزع المغرب دقائق النور من الفضاء كان يعود الى البيت الحقير المشرف على القرى والمزارع في شمال لبنان ويجلس بسكينة مع والديه الشيخين مصغياً لاحاديثهما المملوءة باخبار الايام شاعراً بدنو النعاس والراحة معاً

وفي أيام الشتاء كان يتكىء مستدفئاً بقرب النار سامعاً تأوه الارياح وندب العناصر مفكراً بكيفية تتابع الفصول ناظراً من الكوة الصغيرة نحو الاودية المكتسية بالثلوج والاشجار العارية من الاوراق كأنها جماعة من الفقراء تركوا خارجاً بين أظافر البرد القارس والرياح الشديدة

وفي الليالي الطويلة كان يبقى ساهراً حتى ينام والده ثم يفتح الخزانة الخشبية ويأتي بكتاب العهد الجديد ويقرأ منه سراً على نور مسرجة ضعيفة متلفتاً بتحذر بين الآونة والأخرى نحو والده النائم الذي منعه عن تلاوة ذلك الكتاب لان الكهنة ينهون بسطاء القلب عن استطلاع خفايا تعاليم يسوع ويحرمونهم من « نعم الكنيسة » اذا فعلوا .

هكذا صرف يوحنا شبيبته بين الحقل المملوء بالمحاسن والعجائب وكتاب يسوع المفعم بالنور والروح وكان سكوتاً كثير التأملات يصغي لاحاديث والديه ولا يجيب بكلمة . ويلتقي باترابه الفتيان ويجالسهم صامتاً ناظراً الى البعيد حيث يلتقي الشفق بازرقاق السماء واذا ما ذهب الى الكنيسة عاد مكتئباً لان التعاليم التي يسمعها من على

المنابر والمذابح هي غير التي يقرأها في الانجيل وحياة المؤمنين مع رؤسائهم هي غير الحياة الجيلة التي تكلم عنها يسوع الناصري

جاء الربيع واضمحلت الثلوج في الحقول والمروج وأصبحت بقاياها في أعالي الجبال تذوب وتسير جداول جداول في منعطفات الاودية وتجتمع انهراً غزيرة تتكلم بهديرها عن يقظة الطبيعة . فأزهرت أشجار اللوز والتفاح وأورقت قضبان الحور والصفصاف وأنبتت الروابي اعشابها وازاهرها فتعب يوحنا من الحياة بجانب المواقد وعرف بان عجوله قد ملت ضيق المرابض واشتاقت الى المراعي الخضراء لان مخازن التبن قد شحت وزنابل الشعير قد نفدت . فجاء وحلّها من معالفها وسار امامها الى البرية ساتراً بعباءته كتاب العهد الجديد كيلا يراه أحد حتى بلغ المرجة المنبسطة على كتف الوادي بقرب حقول الدير القائم كالبرج الهائل بين تلك الهضاب(١) فتفرقت عجوله مرتعية الاعشاب وجلس مستنداً الى صخرة يتأمل تارة بجمال الوادي وطوراً بسطور كتابه المتكلمة عن ملكوت السموات

كان ذلك النهار من أواخر أيام الصوم وسكان تلك القرى المنقطعون عن اللحوم أصبحوا يترقبون بفضلات الصبر مجيء عيدالفصح . أما يوحنا فمثل جميع الزارعين الفقراء لم يكن يفرق بين أيام الصيام وغيرها فالعمر كله كان صوماً طويلاً عنده . وقوته لم يتجاوز قط الخبز المعجون بعرق الجبين والثمار المبتاعة بدم القلب ، فالانقطاع عن اللحوم والمآكل الشهية كان طبيعياً . ومشتهيات الصوم لم تكن في جسده بل في عواطفه لانها تعيد الى نفسه ذكرى مأساة « ابن البشر » ونهاية حياته على الارض

كانت العصافير ترفرف متناجية حول يوحنا واسراب الحمام تتطاير مسرعة والزهور تتمايل مع النسيم كانها تستحم باشعة الشمس . وهو يقرأ في كتابه بتمعن ثم يرفع رأسه ويرى قبب الكنائس في المدن والقرى المنثورة على جانبي الوادي ويسمع طنين أجراسها

(١) هو دير غني في شمالي لبنان واسع الاراضي يدعى دير اليشاع النبي يقطنه عشرات من الرهبان المعروفين بالحلبيين

فيغمض عينيه وتسبح نفسه فوق أشلاء الاجيال الى أورشليم القديمة متبعة أقدام يسوع في الشوارع سائلة العابرين عنه فيجيبونها قائلين : — هنا شفى العميان وأقام المقعدين . وهناك ضفروا له اكليلاً من الشوك ووضعوه على رأسه — في هذا الرواق وقف يكلم الجموع بالامثال وفي ذلك القصر كتفوه على العمود و بصقوا على وجهه وجلدوه — في هذا الشارع غفر للزانية خطاياها وفي ذاك وقع على الارض تحت اثقال صليبه

ومرت الساعة ويوحنا يتألم مع الاله الانسان بالجسد ويتمجد معه بالروح حتى اذا ما انتصف النهار قام من مكانه ونظر حوله فلم يرَ عجوله فمشى متلفتاً الى كل ناحية مستغرباً اختفاءها في تلك المروج السهلة ولما بلغ الطريق المنحنية بين الحقول المنخفضة خطوط الكف رأى عن بعد رجلاً بملابس سوداء واقفاً بين البساتين فاسرع نحوه ولما اقترب منه وعرف أنه احد رهبان الدير حياه باحناء رأسه ثم سأله قائلاً : « هل رأيت عجولا سائرة بين هذه البساتين يا أبتاه » فنظر اليه الراهب متكلفاً اخفاء حنقه واجاب بخبث : « نعم رأيتها فهي هناك تعالَ وانظرها » فسار يوحنا وراء الراهب حتى بلغا الدير فاذا بالعجول ضمن حظيرة واسعة موثقة بالحبال يخفرها أحد الرهبان وفي يده نبوت يجلدها به كيفما تحركت واذ همَّ يوحنا ليقودها أمسك الراهب بعباءته والتفت نحو رواق الدير وصرخ باعلى صوته ؟ « هوذا الراعي المجرم قد قبضت عليه فهرول القسس والرهبان من كل ناحية يتقدمهم الرئيس وهو رجل يمتاز عن رفاقه بنحافة أثوابه وانقباض سحنته واحاطوا بيوحنا كالجنود المتسابقة الى الغنيمة فنظر يوحنا الى الرئيس وقال بهدوء « ماذا فعلت لأكون مجرماً ولماذا قبضتم عليَّ » فاجابه الرئيس وقد بانت القساوة على وجهه و بصوت خشن اشبه بصرير المناشير قال « قد ارتعت عجولك زرع الدير وقضمت قضبان كرومه فقبضنا عليك لان الراعي هو المسئول عما تخربه مواشيه » فقال يوحنا مستعطفاً : « هي بهائم لا عقل لها يا ابتاه وانا فقير لا املك غير قوى ساعديَّ وهذه العجول فاتركني اقودها واسير واعداً اياك بألا اجيء الى هذه المروج مرة اخرى » فقال الرئيس وقد تقدم قليلاً الى الامام ورفع يده نحو السماء « ان الله قد وضعنا هنا ووكل

الينا حماية اراضي مختاره اليشاع العظيم فنحن نحافظ عليها ليلاً ونهاراً بكل قوانا لانها مقدسة وهي كالنار تحرق كل من يقترب منها . فاذا امتنعت عن محاسبة الدير انقلبت الاعشاب في اجواف عجولك سموماً آكلة . ولكن ليس من سبيل الى الامتناع لاننا نبقي بهائمك في حظيرتنا حتى تفي آخر فلس عليك »

وهمّ الرئيس بالذهاب فاوقفه يوحنا وقال متـذللاً متوسلاً : « أستحلفك ياسيدي بهذه الايام المقدسة التي تألم فيها يسوع وبكت لاحزانها مريم أن تتركني أذهب بعجولي لا تكن قاسي القلب عليَّ . فانا فقير مسكين والدير غنيٌّ عظيم فهو يسامح تهاملي ويرحم شيخوخة والدي » فالتفت اليه الرئيس وقال بهزء : « لا يسامحك الدير بمثقال ذرة أيها الجاهل فقيراً كنت أم غنياً فلا تستحلفني بالاشياء المقدسة لاننا أعرف منك باسرارها وخفاياها وان شئت أن تقود عجولك من هـذه المرابض فافتدها بثلاثة دنانير لقاء ما التهمت من الزرع » فقال يوحنا بصوت مختنق : « انني لا أملك بارة واحدة ياأبتاه . فاشفق عليّ وارحم فقري » فاجاب الرئيس بعد أن مشط لحيته الكثيفة باصابعه « اذهب وبع قسماً من حقلك وعـد بثلاثة دنانير فخير لك أن تدخـل السماء بلا حقل من أن تكتسب غضب اليشاع العظيم باحتجاجك أمام مذبحـه وتهبط في الآخرة الى الجحيم حيث النار المؤبدة »

فسكت يوحنا دقيقـة وقد أبرقت عيناه وانبسط محياه وتبدلت لوائح الاسترحام بملامح القوة والارادة فقال بصوت تمتزج فيه نغمة المعرفة بعزم الشبيبة : « هل يبيع الفقير حقله منبت خبزه ومورد حياته ليضيف ثمنـه الى خزائن الدير المفعمة بالفضة والذهب ؟ أمن العدل أن يزداد الفقير فقراً ويموت المسكين جوعاً كيما يغفر اليشاع العظيم ذنوب بهائم جائعة ؟ » فقال الرئيس هازًّا رأسه استكباراً : هكذا يقول يسوع المسيح « من له يعطى ويزاد ومن ليس له يؤخذ منه »

سمع يوحنا هذه الـكلمات فاضطرب قلبه في صـدره وكبرت نفسه وتعالت قامته عن ذي قبل ، كأن الارض قد نمت تحت أقدامه ، فانتشل الانجيل من جيبه كما يستل

الجندي سيفه للمدافعة وصرخ قائلاً : « هكذا تتلاعبون بتعاليم هـذا الـكتاب أيها المراءون ، هكذا تستخدمون أقدس ما في الحياة لتعميم شرور الحياة ، فويل لـكم اذ يأتي « ابن البشر » ثانية ويخرّب أديرتكم ويلقي حجارتها في هـذا الوادي محرقاً بالنار مذابحكم ورسومكم وتماثيلـكم ، ويل لـكم من دماء يسوع الزكية ودموع أمه الطاهرة اذ تنقلب سيلاً عليكم يجرفكم الى أعماق الهاوية . ويل وألف ويل لـكم أيها الخاضعون لاصنام مطامعكم ، الساترون بالأثواب السوداء اسوداد مكروهاتكم ، المحركون بالصلاة شفاهكم وقلوبكم جامدة كالصخور ، الراكعون بتذلل أمام المذابح ونفوسكم متمردة على الله . قد قدتموني بخيانة الى هذا المـكان المملوء بآثامكم ، وكمجرم قبضتم عليّ من أجل قليل من الزرع تستنبته الشمس لي ولـكم على السواء . ولما استعطفتكم باسم يسوع واستحلفتكم بأيام حزنه وأوجاعه استهزأتم بي كأني لم أتكلم بغير الحماقة والجهالة . خذوا وابحثوا في هذا الـكتاب وأروني متى لم يكن يسوع غفوراً ، اقرأوا هذه المأساة السماوية واخبروني اين تكلم بغير الرحمة والرأفة افي موعظته على الجبل ، ام في تعاليمه في الهيكل امام مضطهدي تلك الزانية المسكينة ، ام على الجلجلة عند ما بسط ذراعيه على الصليب ليضم الجنس البشري ، انظروا ياقساة القلوب الى هذه المدن والقرى الفقيرة ، ففي منازلها يتلوّى المرضى على اسرة الاوجاع وفي حبوسها تفنى ايام البائسين ، وامام ابوابها يتضرع المتسولون وعلى طرقها ينـام الغرباء ، وفي مقابرها تنوح الارامل واليتامى وانتم هاهنـا تتمتعون براحة التواني والـكسل ! وتتلذذون بثمار الحقول وخمور الـكروم ، فلم تزوروا مريضاً ، ولم تتفقدوا سجيناً ، ولم تطعموا جائعاً ولم تؤاووا غريباً ولم تعزوا حزيناً ، وليتكم تكتفون بما لديكم وتقتنعون بما اغتصبتم من جدودنا باحتيالـكم فأنتم تمدون أياديكم كما تمد الافاعي رؤوسها وتقبضون بشـدة على ما وفرته الارملة من عمل يديها وما أبقـاه الفلاح لأيام شيخوخته »

وسكت يوحنا ريثما استرجع انفاسه ثم رفع رأسه بفخر وقال بهدوء . « انتم كثـار ههنا وانا وحدي افعلوا بي ما شئتم فالذئاب تفترس النعجة في ظلمة الليل لـكن آثار دمائها تبقى على حصباء الوادي حتى يجيء الفجر وتطلع الشمس »

كان يوحنا يتكلم وفي صوته قوة علوية توقف في ابدان الرهبان الحركة وتثير في نفوسهم الغيظ والحدة ومثل غربان جائعة في اقفاص ضيقة كانوا يرتجفون غضباً وأسنانهم تصرف بشدة مترقبين من رئيسهم اشارة ليمزقوه تمزيقاً و يسحقوه سحقاً حتى اذا ما انتهى من كلامه وسكت سكوت العاصفة بعد تكسيرها الاغصان المتشامخة والانصاب اليابسة ، صرخ الرئيس بهم قائلاً :

« اقبضوا على هذا المجرم الشقي وانزعوا منه الكتاب وجروه الى حجرة مظلمة من الدير فمن يجدف على مختاري الله لا يغفر له ههنا ولا في الابدية » فهجم الرهبان على يوحنا هجوم الكواسر على الفريسة وقادوه مكتوفاً الى حجرة ضيقة وأقفلوا عليه بعد ان إنهكوا جسده بخشونة اكفهم ورفس أرجلهم

في تلك الغرفة المظلمة وقف يوحنا وقفة منتصر توفق العدو لاسره . ونظر من الكوة الصغيرة المطلة على الوادي المملوء بنور النهار فتهلل وجهه وشعر بلذة روحية تعانق نفسه وطمأنينة مستعذبة تمتلك عواطفه فالحجرة الضيقة لم تسجن غير جسده أما نفسه فكانت حرة تتموج مع النسيم بين الطلول والمروج وايدي الرهبان التي آلمت اعضاءه لم تمس عواطفه المستأمنة بجوار يسوع الناصري . والمرء لا تعذبه الاضطهادات اذا كان عادلاً ولا تفنيه المظالم اذا كان بجانب الحق . فسقراط شرب السم مبتسماً و بولس رجم فرحاً . ولكن هو الضمير الخفي نخالفه فيوجعنا ونخونه فيقضي علينا

وعلم والدا يوحنا بما جرى لوحيدهما ، فجاءت امه الى الدير مستعينة بعصاها ، وترامت على اقدام الرئيس تذرف الدموع وتقبل يديه ليرحم ابنها و يغتفر جهله . فقال لها بعد ان رفع عينيه نحو السماء كمترفع عن العالميات « نحن نغتفر طيش ابنك ونسامح جنونه » ولكن للدير حقوقاً مقدسة لا بد من استيفائها . نحن نسامح بتواضعنا زلات الناس ، اما اليشاع العظيم فلا يسامح ولا يغفر لمن يتلفون كرومه و يرتعون زرعه »

فنظرت اليه الوالدة والدمع ينسكب على وجنتيها المتجعدتين بايدي الشيخوخة ثم نزعت قلادة فضية من عنقها ووضعتها في يده قائلة : « ليس لديَّ غير هذه القلادة يا أبتاه

فهي عطية والدتي يوم اقتراني فليقبلها الدير كفارة عن ذنوب وحيدي » فأخذ الرئيس القلادة ووضعها في جيبه ثم قال ووالدة يوحنا تقبل يده شكراً وامتناناً . « ويل لهذا الجيل فقد انعكست فيه آيات الكتاب وأصبح الابناء يأكلون الحصرم والآباء يضرسون . اذهبي ايتها المرأة الصالحة وصلي من اجل ابنك المجنون لتشفيه السماء وتعيد اليه صوابه »

خرج يوحنا من اسره ومشى ببطء امام عجوله بجانب امه المنحنية على عصاها تحت اثقال السنين . ولما بلغ الكوخ قاد العجول الى معالفها وجلس بسكينة قرب النافذة يتأمل باضمحلال نور النهار و بعد هنيهة سمع والده يهمس في اذن امه هذه الكلمات : « كم عارضتني يا سارة عند ما كنت اقول لك ان ولدنا مختل الشعور : والآن أراك لا تعترضين لان اعماله قد حققت كلامي ، ورئيس الدير الوقور قد قال لك اليوم ما قلته انا منذ سنين »

وظل يوحنا ناظراً نحو المغرب حيث الغيوم المتلبدة متلونة بأشعة الشمس



أرم ذات العماد

« ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد -
التي لم يخلق مثلها في البلاد » (القرآن الشريف
« يدخلها بعض أمتي » (الحديث) .

توطئة لارم ذات العماد

بعد أن ملك شـداد بن عاد جميع الدنيا أمر ألف أمير من جبابرة قوم عاد أن يخرجوا ويطلبوا أرضاً واسعة كثيرة الماء طيبة الهواء بعيدة عن الجبال ليبني فيها مدينة من ذهب . فخرج اولئك الامراء ومع كل أمير ألف رجل من خدمه وحشمه . فساروا حتى وجدوا أرضاً واسعة طيبة الهواء فاعجبتهم تلك الارض فأمروا المهندسين والبنائين فخطوا مدينة مربعة الجوانب دورها أربعون فرسخاً من كل جهة عشرة فحفروا الاساس الى المـاء وبنوا الجدران بحجارة الجزع اليماني حتى ظهر على وجه الارض ثم أحاطوا به سوراً ارتفاعه خمسمائة ذراع وغشوه بصفائح الفضة المموهة بالذهب فلا يكاد يدركه البصر اذا أشرقت الشمس . وكان شـداد قد بعث الى جميع معادن الدنيا فاستخرج منها الذهب واتخـذه لبنا . واستخرج الـكنوز المدفونة ثم بنى داخل المدينة مائة ألف قصر بعدد رؤساء مملـكته كل قصر على عمدة من أنواع الزبرجد واليواقيت معقدة بالذهب طول كل عمود مائة ذراع . وأجرى في وسطها أنهاراً وعمل منها جداول لتلك القصور والمنازل وجعل حصاها من الذهب والجواهر واليواقيت وحلَّى قصورها بصفائح الذهب والفضة وجعل على حافات الأنهار أنواع الاشجار جذوعها من الذهب وأوراقها وثمرها من أنواع الزبرجد واليواقيت واللآلىء . وطلى حيطانها بالمسك والعنبر . وجعل فيها جنة مزخرفة له . وجعل أشجارها الزمرد واليواقيت وسائر أنواع المعادن . ونصب عليها أنواع الطيور المسموعة الصادح والمغرد وغير ذلك

« الشعبي في كتاب سير الملوك »

إرم ذات العماد

المكان — غابة صغيرة من الجوز والحور والرمان تحيط بمنزل قديم منفرد بين منبع العاصي وقرية الهرمل في الشمال الشرقي من لبنان

الزمان — عصارى يوم من أيام تموز في سنة ١٨٨٣

أشخاص الرواية — زين العابدين النهاوندي . وهو درويش عجمي في الاربعين من عمره . (معروف بالصوفي)

نجيب رحمه — أديب لبناني في الثلاثة والثلاثين

آمنة العلوية — معروفة في تلك النواحي « بجنية الوادي » ولا أحد يعرف عمرها

يرفع الستار فيظهر زين العابدين متكئاً على ساعده في ظلال الاشجار وهو يرسم برأس عصاه الطويلة خطوطاً مستديرة على التراب . بعد هنيهة يدخل الغابة نجيب رحمه راكباً على فرس ثم يترجل ويربط مقود فرسه بجزع شجرة وينفض الغبار عن ملابسه ثم يقترب من زين العابدين

نجيب رحمه — السلام عليك، يا سيدي .

زين العابدين — وعليك السلام . (ويحول وجهه قائلاً في نفسه) أما السلام فنقبلهُ وأما السيادة فلا ندري انقبلها أم لا .

نجيب — (ينظر حواليه مستفحصا) أهنا تسكن آمنة العلوية ؟

زين العابدين — هذا منزل من منازلها .

نجيب — اتعني ياسيد ان لها بيتاً آخر .

زين العابدين — لها منازل لاعداد لها .

نجيب — منذ الصباح وانا ابحث واسأل كل من لقيته عن مقر آمنة العلوية ولم يقل لي احد ان لها منزلين أو اكثر .

زين العابدين — هذا دليل على انك لم تلتقِ منذ الصباح بغير من لا يرى الا بعينيه ولا يسمع الا باذنيه .

نجيب — (مستغرباً) ربما كان الامر مثلما تقول . ولكن اصدقني يا سيدي أفي هذا المكان تسكن آمنة العلوية ؟

زين العابدين — نعم في هذا المكان يسكن جسدها بعض الاحايين .

نجيب — وهلا أخبرتني أين هي الآن .

زين العابدين — هي في كل مكان (مشيراً بيده الى الجهة الشرقية) أما جسدها فيسير متجولاً بين تلك التلول والاودية .

نجيب — وهل تعود اليوم الى هذا المكان ؟

زين العابدين — ستعود ان شاء الله

نجيب — (يجلس على صخر امام زين العابدين ثم يتفحصه طويلاً) يبدو لي من لهجتك انك فارسي .

زين العابدين — نعم ولدت في نهاوند وربيت في شيراز وتثقفت في نيسابور وجبت مشارق الارض ومغاربها وانا غريب في كل مكان

نجيب — كلنا غريب في كل مكان .

زين العابدين — لا والحق . فقد لقيت وحدثت الف الفٍ من الناس فلم أرَ سوى المكتفين بمحيطهم . المستأنسين بألفهم . المنصرفين عن العالم الى الفسحة الضيقة التي يرونها من العالم .

نجيب — (معجباً بكلام جليسه) الانسان ياسيدي مطبوع على حب المكان الذي ولد فيه .

زين العابدين — المحدود من الناس مطبوع على حب المحدود من الحياة . وشحيح البصر لا يرى غير ذراع من السبيل الذي تطأه قدماه . وذراع من الحائط الذي يسند اليه ظهره .

نجيب — ليس لكل منا المقدرة على الاحاطة بكليات الحياة . ومن الظلم انه تطلب من شحيح البصر ان يرى البعيد والضئيل .

زين العابدين — اصبت واحسنت فمن الظلم ان نطلب الخمر من الحصرم .

نجيب — (بعد دقيقة سكوت) اسمع يا سيدي . منذ اعوام وانا اسمع الاخبار عن آمنة العلوية ولقد اثرت بي هذه الاخبار الى درجة قصوى فعزمت على الاجتماع بها لاستفسارها ومعرفة اسرارها وخفاياها .

زين العابدين — (يقاطعه) ايوجد في هذا العالم من يستطيع معرفة اسرار آمنة العلوية وخفاياها ؟ ايوجد بين البشر من يقدر ان يسير متجولاً متنزهاً في قاع البحر كأنه في حديقة ؟

نجيب — قد اسأت التعبير يا سيدي فسامحني . انا لا اقدر بالطبع على الاحاطة بمكنونات آمنة العلوية ولكني ارجو ان اسمع منها حكاية دخولها الى ارم ذات العماد .

زين العابدين — ما عليك سوى الوقوف في باب حلمها فان فتح لك بلغت قصدك . وان لم يفتح فانت الملوم .

نجيب — ماذا تعني يا سيدلي بقولك ان لم يفتح لي كنت انا الملوم ؟

زين العابدين — اعني ان آمنة العلوية ادرى الناس منهم بنفوسهم ، فهي ترى بلمحة واحدة مافي ضمائرهم وقلوبهم وأرواحهم فان وجدتك خليقاً بمحادثتها حدثتك والا فلا

نجيب — ماذا اقول وماذا أفعل لاكون حرياً باستماع حديثها .

زين العابدين — عبثاً تحاول الدنو من آمنة العلوية بواسطة القول والعمل فهي لا وان تصغي الى ما تقوله لا ولا تنظر الى ما تفعله بل سوف تسمع باذن اذنها ما لا تقوله وترى بعين عينها ما لا تفعله .

نجيب — (تظهر على ملامحه سيماء الدهشة) ما أبلغ كلامك هذا وما أجمله .

زين العابدين — ليس ما اقول عن آمنة العلوية سوى دندنة اخرس يريد انه يغني نشيداً

نجيب — اتعلم يا سيدي اين ولدت هذه الامرأة العجيبة ؟

زين العابدين — ولدت في صدر الله .

نجيب — (متلبكاً) أعني اين ولد جسدها .

زين العابدين — بجوار دمشق .

نجيب — وهلا اخبرتني شيئاً عن والديها وتربيتها ؟

زين العابدين — ما أشبه سؤالاتك هذه بسؤالات القضاة والمتشرعين . أفتظن انك تستطيع ادراك الجواهر باستفسارك الاعراض أو معرفة طعم الخمرة بمجرد النظر الى خارج الجرة .

نجيب — بين الأرواح وأجسادها رابطة وبين الاجساد ومحيطها علاقة ولما كنت لا أعتقد بالصدف أرى ان النظر في تلك الروابط وتلك العلاقات لا يخلو من الفائده .

زين العابدين — اعجبتني ، أعجبتني . يلوح لي أنك على شيء من العلم . اذاً فاسمع . لا أعرف شيئاً عن ولدة آمنة العلوية سوى انها ماتت وهي تتمخض بابنتها . اما والدها الشيخ عبدالغني الضرير المشهور بالعلوي فقد كان امام زمانه في العلوم الباطنية والتصوف . وقد كان ، رحمه الله ، ولوعا بابنته الى درجة قصوى فهذبها وثقفها وسكب في روحها كل ما في روحه ولما بلغت اشدها أدرك ان العلوم التي اخذتها عنه لم تكن من العلم الذي انزل عليها الا بمقام الزبد من البحر فصار يقول عنها « لقد انبثق من ظلمتي نور استضيء به » ولما بلغت الخامسة والعشرين خرج بها لاداء فريضة الحج . ولما قطعا بادية الشام وأصبحا على بعد ثلاث مراحل من المدينة المنورة بلي الضرير بالحمى وتوفي فدفنته ابنته في لحف جبل هناك وجلست على قبره سبع ليال تناجي روحه وتستكشفها اسرار الغيب وتستعلم منها عما وراء الحجاب . وفي الليلة السابعة أوحت اليها روح والدها ان تطلق راحلتها وتحمل زادها على عاتقها وتسير من ذلك المكان الي الجنوب الشرقي ففعلت (يسكت دقيقة ويحدق بالافق البعيد ثم يعود الى الكلام) وظلت آمنة العلوية سائرة في البادية حتى وصلت الى « الربع الخالي » وهو قلب

الجزيرة الذي لم تخترقه قافلة ولم يصل اليه سوى افراد قليلين منذ بدء الاسلام الى يومنا هذا. اما الحجاج فظنوا انها تاهت في تلك القفار وقضت جوعاً ، ولما عادوا الى دمشق دمشق أخبروا الناس بذلك فحزن عليها وعلى ابيها مَن عرف فضلها ثم التحف ذ كرهما النسيان كأنهما ما كانا . . و بعد خمسة أعوام ظهرت آمنة العلوية في الموصل . وكان ظهورها بما هي عليه من الجمال والهيبة والعلم والصلاح أشبه شيء بهبوط نيزك من الفضاء . فقد كانت تسير بين الناس مسفرة وتقف بحلقات العلماء والأئمة متكلمة عن الامور الربانية وتصف لهم مشاهد ارم ذات العماد بفصاحة ما سمع القوم بمثلها . ولما اشتهر امرها وكثر عدد اتباعها ومريديها خاف علماء المدينة ظهور بدعة واختشوا الفتنة فشكوها الى الوالي فاستقدمها هذا اليه والقى بين يديها صرة من الذهب وطلب اليها ان تغادر المدينة ، فرفضت المال وتركت المدينة ليلاً بدون أن يصحبها أحد من الناس . ثم توجهت الى الاستانة فحلب فدمشق فحمص فطرابلس وكانت في كل مدينة من هذه المدن تثير ما سكن في نفوس الناس وتشعل ما خمد في وجدانهم فيلتفون حولها و يصغون الى محاضراتها وأحاديث اختباراتها العجيبة مجذوبين بعوامل قوية سحرية . غير ان أئمة الدين وشيوخ العلم في كل بلد كانوا يصادرونها و يفندون اقوالها و يعرضون بها الى الحكام . بعد ذلك طلبت نفسها العزلة فجاءت هذا المكان منذ أعوام واستوحدت به زاهدة متعبدة منصرفة عن كل شيء سوى التعمق في الاسرار الربانية . هذا قليل من كثير أعرفه عن حياة آمنة العلوية . اما ما حباني الله بمعرفته عن ذاتها المعنوية وما يتآلف في نفسها من القوى والمواهب فليس بامكاني الكلام عنه الآن . ومن من البشر يا ترى يستطيع ان يجمع الاثير المحيط بهذا العالم في كؤوس وأكواب ؟

نجيب — (متأثراً) أشكر لك ياسيدي ما تفضلت وحدثتني به عن هذه الامرأة العجيبة . لقد ضاعفت شوقي الى الوقوف بحضرتها .

زين العابدين — (يتفرسه دقيقة) أنت مسيحي . أليس كذلك ؟

نجيب — نعم ولدت مسيحياً غير انني أعلم اننا اذا جردنا الاديان مما تعلق بها من الزوائد المذهبية والاجتماعية وجدناها ديناً واحداً

زين العابدين — أصبت وليس بين البشر أدرى بالوحدة الدينية المجردة من آمنة العلوية فهي في الناس على اختلاف طوائفهم كندى الصباح الذى يهبط من الأعالي و ينعقد دراً مشعشعاً بين أوراق الازهار المتباينة لوناً وشكلاً. نعم هي كندى الصباح ...

(يقف زين العابدين فجأه عن الكلام و يلتفت الى الجهة الشرقية مصغياً ثم ينتصب على قدميه و يومئ الى نجيب ان ينتبه فيفعل هذا ممتثلاً)

زين العابدين — (هامساً) هوذا آمنة العلوية

(يرفع نجيب يده الى جبهتـه كأنه أحس بحدوث تغيير في دقائق الهواء ثم ينظر فيرى العلوية آتيـة فتتغير ملامحه و يضطرب في داخله ولكنه يبقى واقفاً في مكانه كالتمثال . . . . تدخل آمنة العلوية وتقف امام الرجلين وهي بهيئتها وحركاتها وملابسها اقرب من معبودات الشعوب الغابرة منها الى امرأة شرقية في الزمن الحاضر . ومن الصعوبات تحديد عمرها بمجرد النظر الى ملامحها فكأن الشباب في وجهها يستر ألف سنة من المعرفة والاختبار . أما نجيب وزين العابدين فيظلان جامدين خاشعين متهيبين كأنهما بحضرة نبي من أنبياء الله . . . و بعد ان تحدق العلوية بوجه نجيب كأنها تخترق بنظراتها صدره تدنو منه وقد انبسطت ملامحها وابتسمت ، و بصوت عذب تقول ...)

آمنة العلوية — جئتنا ايهـا اللبناني متنسماً أخبارنا مستفصحاً حالنا . وسوف لا تجد بنا الا ما بك ، ولا تسمع منا الا ما عرفتهُ في نفسك .

نجيب — (مفعولاً) ها قد رأيت وسمعت وصدقت وا كتفيت

العلوية — لا تكن قنوعاً بالقليل فمن يرد ينابيع الحياة بجرةٍ فارغة صُرف بجرتين طافحتين .

(تمد يدها اليه فيتناولها بكلتا يديه خاشعاً محتشماً و يقبل اطراف أصابعها مدفوعاً بعامل خفي . تلتفت الى زين العابدين و تمد يدها اليه فيفعل هذا فعل نجيب ثم تتراجع قليـلاً الى الوراء وتجلس على حجر منحوت أمام بيتها وتشـير الى صخر قريب وتقول لنجيب) — هذه مقاعدنا فاجلس .

(يجلس نجيب و يفعل زين العابدين فعله) .

العلوية — انا نرى بعينيك نوراً من أنوار الله ومن ينظر الينا ونور الله في عينيه يرَ حقيقتنا عارية مجرَّدة . وانا نرى بوجهك ما يرفعه الاخلاص عن حب الاستطلاع الى الرغبة في الحق . فان كان على لسانك كلمة فقلها فنحن اليك مصغون . وان كانت في قلبك سؤال فاطرحه فنحن لك مجيبون .

نجيب — جئت مستعلماً عن أمر يتحدث الناس به لغرابته ولكني ما وقفت بحضرتك حتى علمت ان الحياة مظاهر لروح الكلية فكان مثلي مثل صياد القى شبكته في البحر ليصطاد سمكاً ولما اجتذبها الى الشاطىء وجد فيها صرة من الحجارة الكريمة .

العلوية — جئت تسألنا عن دخولنا ارم ذات العماد ؟

نجيب — نعم يا سيدتي . منذ حداثتي وهذه الكلمات الثلاث « ارم ذات العماد » تعانق أحلامي وتتمشى مع خيالي بما وراءها من الرموز والمقاصد الخفية .

العلوية — (ترفع رأسها وتغمض عينيها و بصوت يخاله نجيب آتياً من قلب الفضاء تقول) — اجل قد بلغنا المدينة المحجوبة ودخلناها وأقمنا فيها وملأنا روحنا من اريجها وقلبنا من أسرارها وجيوبنا من لؤلؤها وياقوتها فمن ينكر علينا ما شاهدناه وعرفناه كان ناكراً لذاته امام الله

نجيب — (متأنياً) — ما أنا يا سيدتي سوى طفل يلثغ متلعثماً بما يريد بيانه فان سألتك عن امر فبخشوع أسأل . وان ستقصيت امراً فبامعان واخلاص . فهلا جعلت عطفك علي شفيعاً بي لديك اذا ما اتعبت سرك بسؤالاتي الكثيرة ؟

العلوية — سل ماشئت فقد جعل الله الحقيقة ذات ابواب يفتحها بوجه من يطرقها بيد الايمان

نجيب — هل دخلت ارم ذات العماد بالجسد أو بالروح وهل هي مدينة مصنوعة من عناصر الارض المتبلورة وقائمة في بقعة معلومة من الارض أم هي مدينة روحية ترمز عن حالة روحية يبلغها انبياء الله واولياؤه في غيبوبة يلقيها الله نقاباً على نفوسهم ؟

العلوية — ليس مانراه على الارض وما لانراه سوى حالات روحية وانا قد دخلت

المدينة المحجوبة بجسدي وهو روحي الظاهرة ودخلتها بروحي وهي جسدي الخفي . ومن يحاول التفريق بين ذرات الجسد كان في ضلال مبين . انما الزهرة وعطرها شيء واحد . فالاعمى الذي ينكر لون الزهرة وصورتها قائلاً : « ليست الزهرة سوى عطر يتموج في الاثير » ليس هو الا كالمزكوم الذي يقول « ليست الازهار غير صور والوان » .

نجيب — اذاً المدينة المحجوبة التي ندعوها بارم ذات العماد حالة روحية ؟

العلوية — كل مكان وزمان حالة روحيـة . وكل المرئيات والمعقولات حالات روحية . فان اغمضت عينيك ونظرت في اعماق اعماقك رأيت العالم بكلياته وجزئياته وخبرت ما فيه من النواميس وعلمت ما يلازمه من الذرائع وفهمت ما يتلمسه من المحجات . اجل انك اذا اغمضت بصرك وفتحت بصيرتك رأيت بداءة الوجود ونهايته — تلك النهاية التي تصير بدورها بداءة وتلك البداية التي تتحول الى نهاية .

نجيب — وهل بامكان كل انسان ان يغمض عينيه ويرى جوهر الحياة المجرد ؟

العلوية — يستطيع كل انسان ان يتشوق ثم يتشوق حتى ينزع الشوق نقاب الظواهر عن بصره فيشاهد اذ ذاك ذاته . ومن يرَ ذاته يرَ جوهر الحياة المجرد . فكل ذات هي جوهر الحياة المجرد .

نجيب — (يضع يده على صدره) — اذاً كل ما في الوجود من محسوس ومعقول كائن هنا هنا في صدري ؟

العلوية — كل ما في الوجود كائن فيك وبك ولك .

نجيب — أبامكاني ان اقول لذاتي ان ارم ذات العماد موجودة في باطني لا في خارجي ؟

العلوية — كل ما في الوجود كائن في باطنك وكل ما في باطنك موجود في الوجود . وليس هنالك من حد فاصل بين اقرب الاشياء واقصاها أو بين اعلاها واخفضها أو بين اصغرها واعظمها . ففي قطرة الماء الواحدة جميع اسرار البحار . وفي ذرة واحـدة جميع عناصر الارض . وفي حركة واحدة من حركات الفكر كل ما في العالم من الحركات والانظمة .

نجيب — (تظهر على وجهه علامات الالتباس) — قد قيل لي يا سيدتي انك

قطعت المسافات الشاسعة حتى بلغت ذلك المكان المعروف بالربع الخالي في قلب الجزيرة. وقيل لي ان روح والدك كانت الموحية اليك والهادية لك والسائرة معك حتى بلغت ارم ذات العماد . افليس على الراغب في الوصول الى تلك المدينة المحجوبة ان يكون في حالة شبيهة بحالتك وان تكون له الوسائل الجسدية والاسباب المعنوية ليحصل على ماحصلت انت عليه ؟

العلوية — اجل قد قطعنا الصحارى وقاسينا الجوع والعطش وخبرنا مخاوف النهار ورمضاءه واهوال الليل وسكينته قبل ان رأينا اسوار مدينة الله . ولكن قد بلغ مدينة الله قبلنا من لم يسر خطوة وعرف جمالها وبهاءها من لم يختبر جوعاً في الجسد أو عطشاً في الروح . اي والحق لقد طاف في المدينة المقدسة اخوانٌ لنا واخوات بدون ان يخرجوا من المنازل التي ولدوا فيها (تسكت هنيهة ثم تومىء بيدها الى الاشجار والرياحين المحيطة بها) لكل بذرة من البذور التي يلقيها الخريف في أديم التراب اساليب خاصة في فسخ قشرتها عن لبابها وفي تكوين اوراقها فازهارها فأثمارها . ولكن مهما تباينت الاساليب فمحجة جميع البذور تظل واحدة . وتلك المحجة هي الوقوف امام وجه الشمس .

زين العابدين — (يتمايل الى الامام والى الوراء متأثراً كأنه انتقل بالروح الى عالم سام ثم يصرخ بصوت رخيم)

— الله أكبر . لا اله الا الله الكريم الوهاب الملقي ظله بين الالسنة والشفاه .

العلوية — اجل . قل الله أكبر . لا اله الا الله وقل لاشيء الا الله .

(يتمتم زين العابدين هذه الكلمات في ذاته أما نجيب فيحدق بالعلوية كالمسحور وبصوتٍ يكاد يكون همساً يقول) — لاشيء الا الله .

العلوية — قل لا اله الا الله ولا شيء الا الله وكن مسيحياً .

نجيب — (يحني رأسه محركاً شفتيه مردداً كلماتها ثم يرفع رأسه قائلاً) — قد قلتها ياسيدتي وسوف اقولها الى نهاية حياتي .

العلوية — ليس لحياتك نهاية فانت باقٍ ببقاء كل شيء .

نجيب — من انا وما انا لابقى خالداً ؟

العلوية — انت انت . وانت كل شيء لذلك ستبقى خالداً .

نجيب — اني اعلم طبعاً ياسيدتي ان الذرات التي تتألف منها وحدتي الهيولية ستبقى ببقاء الهيولى ولكن أباقية يا ترى هذه الفكر التي ادعوها انا ؟ أباقية هذه اليقظة الضئيلة المنطقة بالهجوع ؟ أباقية هذه الفقاقيع المتلمعة بنور الشمس وامواج البحر التي ولدتها هي هي الامواج التي تمحوها لتولد غيرها ؟ أباقية هذه الاماني والآمال والاوجاع والافراح ؟ أباقية هذه الاوهام المرتعشة في هذا النوم المتقطع في هذا الليل الغريب بعجائبه الهائل اتساعه وعمقه وعلوه ؟

العلوية — (ترفع عينها الى العلاء كأنها تتناول شيئاً من جيوب الفضاء وتقول بلهجة ايجابية ملؤها العزم والمعرفة والخبرة) — كل موجود باقٍ . ووجود الموجود دليل على بقائه . أما الفكرة وهي العلم بكايته ، اذ لولاها لما علم العالم موجوداً كان أو غير موجود فهي كيان ازليٌّ ابديٌّ خالد لا يتغير الا ليتجوهر ولا يختفي الا ليظهر بصورة اسنى ولا ينام الا ليحلم بيقظة ابهى . ولقد عجبت لمن يثبت بقاء الذرات في الغلافات الخارجية التي تتصورها حواسنا ولكنه ينكر ماجعلت الغلافات من اجله . عجبت لمن يقرر خلود العناصر التي تتألف منها العين ولكنه يشك بخلود النظر الذي اتخذ العين آلة له . عجبت لمن يثبت ابدية المسببات ولكنه يحتم باضمحلال الاسباب . عجبت لمن تشغله المظاهر المكونة عن المكون المظهر . عجبت لمن يقسم الحياة الى شطرين فيؤمن بالشطر المدفوع ويجحد الشطر الدافع . عجبت لمن ينظر الى تلك الجبال والسهول المغمورة بنور الشمس ثم يصغي الى الهواء متكلماً بالسنة الاغصان ثم يتجرع عطر الازهار والرياحين وبعد ذلك يقول لنفسه « لا ولن يزول ما اراه واسمعه ، لا ولن يضمحل ما اعرفه واشعر به ، ولكن هذه الروح العاقلة التي ترى فتهيب وتتأمل وتسمع فتفرح وتكتئب ، هذه الروح التي تشعر فترتعش وتنبسط وتعلم فتكتئب فتتحقق ، هذه الروح التي تحيط بكل شيء سوف تضمحل اضمحلال الفقاقيع على وجه البحر وتزول زوال الظل امام النور » اي والحق اني اعجب لكائن ينكر كيانه .

نجيب — (متهيجاً) — قد آمنت بكياني يا سيدتي . ومن يسمعك متكلمة ولا يؤمن بكيان أشبه بالصخر منه بالانسان

العلوية — ان الله وضع في كل نفس رسولا ليسير بنا الى النور ولكن في الناس من يبحث عن الحياة في خارجه والحياة في داخله ولكنه لا يعلم .

نجيب — اليس في خارجنا أنوار لا نستطيع بدونها الوصول الى ما في اعماقنا ؟ اليس في محيطنا قوى تستنهض قوانا ومؤثرات تنبه الغافل فينا ؟

(يطرق هنيهة متر ددا ثم يعود يقول) — أو لم توحِ اليك روح والدك أموراً لا يعرفها سجين الجسد ورهين الايام والليالي ؟

العلوية — أجل : ولكن عبثاً يطرق الزائر باب البيت اذا لم يكن في داخل البيت من يسمع الطرقات ويقوم ليفتح في وجهه . انما الانسان كائن منتصب بين اللانهاية في باطنه واللانهاية في محيطه . فلو لم يكن فينا ما فينا لما كان في خارجنا ما فى خارجنا . لقد ناجتني روح والدي لان روحي ناجتها وأوحت الى عاقلتي الخارجية ما كانت تعرفه عاقلتي الباطنية . فلو لا جوعي وعطشي لما حصلت على الخبز والماء ولو لا شوقي وحنيني لما لقيت موضوع شوقي وحنيني .

نجيب -- أيستطيع كل منا ياسيدتي أن يغزل سلكا من شوقه وحنينه ويمده بين روحه والارواح المنعتقة ؟ أفليس هناك طائفة من الناس قد أعطيت المقدرة على مخاطبة الارواح واستنزال مشيئتها ومراميها .

العلوية — ان بين سكان الاثير وسكان الارض مخاطبات ومسامرات مستتبة باستتباب الايام والليالي . وليس بين الناس من لم يأتمر بمشيئة القوى العاقلة غير المنظورة . فكم من عمل يأتي به الفرد متوهماً انه مخير بفعله وهو بالحقيقة مسير . وكم من عظيم في الارض كانت عظمته في استسلامه التام الى ارادة روح من الارواح استسلام قيثارة دقيقة الاوتار الى نقرات عازف خبير . أجل ، ان بين عالم المرئيات وعالم العقل سبيلاً نجتازه في غيبوبات تحدث لنا ونحن غافلون ثم نعود وفي أكفنا المعنوية بذور نلقيها في تربة حياتنا اليومية فتنبت أعمالاً جليلة أو أقوالاً خالدة ، ولو لا تلك السبل المفتوحة بين

أرواحنا والارواح الاثيرية لماظهر في الناس نبي ولا قام فيهم شاعر ولا سار بينهم عارف . (ترفع صوتها عن ذي قبل) أقول ، وما تي الادهار تشهد لي ، ان بين الملا الاعلى والملا الادنى روابط شبيهة بعلاقة الآمر بالمأمور والمنذر بالمنذَر أقول انامحاطون بوجدانات تستميل وجدـداناتنا ، وعاقلات توعز الى عاقلاتنا ، وقوى تستنهض قوانا ، أقول ان مشكوكنا لا تنفي امتثالنا الى ما نشك به ، وانصرافنا الى أماني أجسادنا لا يصرفنا عن مراد الارواح بارواحنا ، وتعامينا عن حقيقتنا لا يحجب حقيقتنا عن عيون المحجوبين عنا ، فنحن وان وقفنا فسائرون بمسيرهم ، وان همدنا فمتحركون بحركاتهم ، وان صمتنا فمتكلمون باصواتهم ، فلا الهجوع فينا يزيل يقظتهم عنا ، ولا اليقظة بنا تحول أحلامهم عن مسارح خيالنا ، فنحن وهم في عالمين يضمهما عالم واحد ، وفي حالتين تمنطقهما حالة واحدة ، وفي وجودين يجمعهما ضمير كلي سرمدي أحـدٌ ليس له بدء وليس له نهاية وليس له فوق وليس له تحت وليس له حد وليس له جهات .

نجيب — أيأتي يوم يا سيدتي نعرف فيه بالاستقراء العلمي والاختبار الحسي ما تعرفه أرواحنا بالخيال وما تختبره قلوبنا بالتشويق ؟ وهل يتقرر لنا بقاء الذات المعنوية بعـد الموت مثلمـا تقرر لدينا بعض الاسرار الطبيعية فنلمس بيـد المعرفة المجـردة ما تلمسه الآن باصابع الايمان ؟

العلوية — نعم سيأتي ذلك اليوم . ولـكن ما أضـل الذين يدركون حقيقة مجردة ببعض حواسهم ولـكنهم يظلون مرتابين بها حتى تبـدو لحواسهم الاخرى . ما أغرب من يسمع الشحرور مغرداً ويشاهده مرفرفاً متنقلاً ولـكنه يبقى مشككاً بما سمع وما رأى حتى يقبض بيـده على جسم الشحرور . ما أغرب من يحلم بحقيقةٍ جميـلة ثم يحاول تجسيدها وحبسها بقوالب الظواهر فلا يفلح فيرتاب بالحلم ويجحد الحقيقة ويشك بالجمال . ما أجهل من يتخيل أمراً ويتصوره بشكله ومعالمه وعند ما يستحيل عليه اثباته بالمقاييس السطحية والبراهين اللفظية يحسب الخيال وهماً والتصور شيئاً فارغاً . ولـكن لو تعمق قليلاً وتأمل هنيهة لعلم أن الخيال حقيقة لم تتحجر بعدُ وان التصور معرفة اسمى من أن تتقيد بسلاسل المقاييس وأعلى وأرحب من أن تسجن باقفاص الالفاظ .

نجيب — أفي كل خيال حقيقة يا سيدتي وهل في كل تصور معرفة ؟

العلوية — أي والحق . ان مرآة النفس لا تعكس سوى ما انتصب أمامها ولو شاءت لما استطاعت . ان البحيرة الهادئة لا تريك في أعماقها خطوط جبال ورسوم أشجار وأشكال غيوم لا وجود لها بالحقيقة ، ولو شاءت البحيرة لما استطاعت . ان خلايا الروح لا ترجع اليك صدى أصوات لم يرتعش بها الاثير حقا . ولو شاءت الخلايا لما استطاعت . ان النور لا يلقي على الارض ظل شيء لا كيان له ، ولو شاء النور لما استطاع . . انما لايمان بالشيء المعرفة بالشيء . والمؤمن يرى ببصيرته الروحية مالا يراه الباحثون والمنقبون بعيون رؤوسهم ، ويدرك بفكرته الباطنة ما لا يستطيعون ادراكه بفكرتهم المقتبسة . المؤمن يختبر الحقائق القدسية بحواس تختلف عن الحواس التي يستخدمها الناس كافة فيظنها جداراً محكم البناء فيسير في طريقه قائلاً « ليس لهذه المدينة من أبواب »

(تقف العلوية وتخطو بضع خطوات نحو نجيب و بلهجة من أوشك أن يبلغ من الكلام حداً لا يريد الزيادة عليه تقول) . .

العلوية — ان المؤمن يعيش كل الايام وكل الليالي ، أما غير المؤمن فلا يعيش سوى ثوانٍ معدودة منها ، فما أضيق عيش من يرفع يده بين وجهه والعالم أجمع فلا يرى غير الخطوط في كفه ، وما أشد شفقتي على من يدير ظهره الى الشمس فلا يرى غير ظل جسده على التراب .

نجيب (ينتصب واقفاً شاعراً بدنو ساعة انصرافه) — أأقول للناس يا سيدتي عند ما أعود اليهم ان أرم ذات العماد مدينة أحلام روحية وان آمنة العلوية قد سارت اليها على سبيل الشوق ودخلتها من باب الايمان ؟

العلوية — قل ان أرم ذات العماد مدينة حقيقية كائنة بكيان الجبال والغابات والبحار والصحارى . وقل ان آمنة العلوية قد وصلت اليها بعد أن قطعت البادية الخالية وقاست ألم الجوع وحرقة العطش وكآبة الوحدة وهول الانفراد وقل ان جبابرة الدهور قد بنوا أرم ذات العماد مما تبلور وتجوهر من عناصر الوجود ، ولم يحجبوها عن الناس.. ولكن الناس حجبوا نفوسهم عنها ، فمن يضل الوصول اليها فليشكُ دليله وحاديه بدلاً

من مصاعب الطريق وحراجها . وقل للناس ان من لا يشعل سراجه لا يرى في الظلام سوى الظلام . (ترفع وجهها نحو السماء وتغمض عينيها و يظهر على ملامحها تقابيه من العطف والحلاوة) .

نجيب — (يدنو منها منحني الرأس و يظل صامتاً هنيهة ثمَّ يقبل يدها هامساً) ها قد بلغت الشمس الغروب وعليَّ أن أعود الى مساكن الناس قبل أن يكتنفه الظلام الطريق .

العلوية — سر في النور وسر بامان الله .

نجيب — سأسير في نور المشعال الذي وضعته في يدي يا سيدتي .

العلوية — سر بنور الحق الذي لا تطفئه الاهواء . (تنظر اليه نظرة طويلة مفعمة بشعاع الامومة ثم تتحول عنه و تمشي بين الاشجار حتى تنحجب عن عينيه .

زين العابدين (يقترب من نجيب) — الى أين أنت سائر الآن ؟

نجيب — الى منزل أصحاب لي بقرب منبع العاصي .

زين العابد — أتسمح لي بمرافقتك ؟

نجيب — بكل سرور ، ولكنني ظننت أنك باقٍ بجوار آمنة العلوية فطوبتك روحي و تمنيت لو كنت مكانك .

زين العابدين — نحن نحيا بنور الشمس عن بعد ولكن من منا يستطيع الحياة في الشمس (بلهجة ذات معان بعيدة) اجيء مرة في الاسبوع متبركا متزوداً وعند ما يأتي المساء أعود قانعاً مكتفياً .

نجيب — وددت لو جاء الناس كافة مرة في الاسبوع ليتبركوا ويتزودوا و يعودوا قانعين مطمئنين .

(يحلُّ نجيب مقود فرسه و يسير به راجلاً بجانب زين العابدين)

الستار

صفحة من منظومات جبران

سكوتي انشاد

سكوتيَ انشادٌ وجوعيَ تخمةٌ　　وفي عطشي ماءٌ وفي صحوتي سكرُ
وفي لوعتي عرسٌ وفي غربتي لقاً　　وفي باطني كشفٌ وفي مظهري ستْرُ
وكم اشتكي هماً وقلبي مفاخرٌ　　بهمي وكم ابكي وثغريَ يفترُّ
وكم ارتجي خلاً وخلّي بجانبي　　وكم أبتغي أمراً وفي حوزتي الأمرُ
وقد ينشر الليل البهيم منازعي　　على بسط أحلامي فيجمعُها الفجرُ
نظرتُ الى جسمي بمرآة خاطري　　فألفيته روحاً يقلّصه الفكرُ
فبي مَن براني والذي مدَّ فسحتي　　وبي الموتُ والمثوى وبي البعث والنشرُ
فلو لم اكن حياً لما كنت مائتاً　　ولولا مرامُ النفس ما رامني القبرُ
ولما سألت النفس ما الدهر فاعلٌ　　بحشد امانينا أجابت انا الدهر

يا من يعادينا

يا من يعادينا وما إنْ لنا ذنبٌ اليه غيرُ احلامنا
هذي رحيقٌ مالها اكؤسٌ فكيف نسقيها للوّامنا
وهي بحار مدُّها صمتُنا وجزرُها في حبر اقلامنا

جاورتمُ الامس وملنا الى يومٍ موشى صبحهُ بالخفاء
ورمتمُ الذكرى واطيافها ونحن نسعى خلف طيف الرجاء
وجبتمُ الارض واطرافها ونحن نطوي بالقضاءِ الفضاء

لوموا وسبوا والعنوا واسخروا وساوروا ايامنا بالخصام
وابغوا وجوروا وارجموا واصلبوا فالروحُ فينا جوهرٌ لا يضام
فنحنُ نحنُ كوكب لا يسيرْ الى الورا في النور أو في الظلام
ان تحسبونا ثلمةً في الاثيرْ لن تستطيعوا رتقها بالكلام

يا نفس

يا نفسُ لولا مطمعي بالخلدِ ما كنتُ أعي
لحناً تُغنيهِ الدهور
بل كنتُ أنهي حاضري قسراً فيغدو ظاهري
سراً تواريه القبور

* * *

يا نفس لو لم أغتسل بالدمعِ أو لم يكتحلْ
جفني بأشباحِ السقام
لعشت أعمى وعلَى بصيرتي ظفرٌ ، فلا
أرى سوى وجهِ الظلام

* * *

يا نفس ما العيش سوى ليلٍ اذا جنّ انتهى
بالفجرِ ، والفجرُ يدوم
وفي ظما قلبي دليلْ على وجود السلسبيلْ
في جرةِ الموت الرحوم

* * *

يا نفس إن قال الجهول الروحُ كالجسمِ تزول
وما يزولُ لا يعود
قولي له إنّ الزهور تمضي ولكنّ البذور
تبقى وذا كنه الخلود

اذا غزلتم

فاذا غزلتمْ حولَ يومي الظنونْ   وان حبكتم حول ليلي الملام
فلن تدكّوا برجَ صبري الحصينْ   ولن تُزيلوا من كؤوسي المُدام
ففي حياتي منزلٌ للسكونْ   وفي فؤادي معبدٌ للسلام
ومَن تغـذّى من طعامِ المنونْ   لا يختشي من أنْ يذوقَ المنـام

البلاد المحجوبة

هوذا الفجرُ فقومي ننصرفْ   عن ديارٍ مالنـا فيها صديقْ
ما عسى يرجو نبـاتٌ يختلف   زهرُهُ عن كلِّ وردٍ وشقيق
وجديدُ القلب إنَّى يأتلفْ   معْ قلوب كلُّ مافيها عتيق
هوذا الصبحُ ينادِي فاسمعي   وهلمي نقتـفي خُطُواتِهِ
قد كفانا من مسـاءٍ يدَّعي   ان نورَ الصبح من آياته

* * *

قد أقمنـا العمرَ في وادٍ تسير   بين ضِلعيه خيالاتُ الهمومْ
وشهدنا اليأسَ أسراباً تطير   فوق متنَيه كعقبانٍ وبُومْ
وشربنـا السقم من ماءِ الغدير   وأكلنـا السمَّ من فجِ الكروم
ولبسنا الصبرَ ثوباً فالتهبْ   فغـدونا نتردَّى بالرمـاد

وافترشناه وسادًا فانقلب عند ما نمنا هشيماً وقتاد

* * *

يا بلاداً حجبت منذ الأزلْ كيف نرجوك ومن اي سبيل
أيُّ قفرٍ دونها أيُّ جبَلْ سورها العالي ومن منا الدليل
أسرابٌ أنتِ أم أنت الأمل في نفوسٍ تتمنى المستحيل
أمنامٌ يتهادى في القلوب فاذا ما استيقظت ولّى المنام
أمْ غيومٌ طفن في شمس الغروب قبل ان يغرقن في بحر الظلام

* * *

يا بلاد الفكر يا مهدَ الاولى عبدوا الحقَّ وصلّوا للجمال
ما طلبناكِ بركبٍ أو على متنِ سُفْنٍ او بخَيْلٍ ورحال
لستِ في الشرق ولا الغرب ولا في جنوب الارض أو نحو الشمال
لست في الجو ولا تحت البحارْ لست في السهل ولا الوعرِ الحرج
انتِ في الارواح أنوارٌ ونارْ انتِ في صدري فؤادي يختلج

حرقة الشيوخ

يا زمانَ الحبِّ ، قد ولّى الشبابْ وتوارى العمرُ كالظّل الضئيلْ
وامّحى الماضي ، كسطرٍ من كتابْ خطه الوهمُ على الطرس البليلْ
وغدتْ ايامُنا قيدَ العذاب في وجود بالمسرات بخيلْ
فالذي نعشقهُ يأساً مضى ، والذي نطلبه ملَّ وراحْ
والذي حزُناهُ بالامسِ مضى مثل حلمٍ بين ليل وصباحْ

* * *

يا زمان الحب ، هل يُغني الأملْ بخلودِ النفس عن ذكرِ العهود ؟
هل ، ترى ، يمحوالكرى رسمالقُبَلْ عن شفاهٍ ملّها ورَدُ الخدود ؟
أو يدانينا ويُنسينا المَلَلْ سكرةَ الوصلِ واشواقَ الصدود ؟
هل يصمُّ الموتُ آذاناً وعتْ أنة الظل وانغامَ السكون ؟
هل يُغشّي القبر اجفاناً رأتْ خافياتِ القبر والسرَّ المَصون ؟

* * *

كم شربنا من كئوسٍ سطعتْ في يدِ الساقي كنُور القَبس !
ورشفنا من شفاهٍ جمعتْ نغمةَ اللطف بثغرٍ ألمْس !
وتلونا الشعرَ حتى سمعتْ زهرُ الافلاكِ صوتَ الانفُس !
. . . تلك أيام تولت كالزهور بهبوطِ الثلج من صدر الشتاء ،
فالذي جادت به أيدي الدهور سلبته خلسةً كفُّ الشقاء . . .

لو عرفنا ما تركنا ليلةً تنقضي بين نعاسٍ ورقاد،
لو عرفنا ما تركنا لحظةً تنثني بين خلوٍ وسهادْ
لو عرفنا ما تركنا برهة من زمانِ الحب تمضي بالبعاد،
قد عرفنا الآنَ، لكن بعدَما هتفَ الوجدان: «قوموا واذهبوا» !
قد سمعنا وذكرنا عندما صرح القبرُ ونادى : «اقتربوا» !

* * *

بالله ياقلبي !

بالله ياقلبي أكتمْ هواك
واخفِ الذي يشكوه عمنْ يراك — تغنمْ

من باحَ بالاسرار
يشابه الاحمق
فالصمت والكتمان
أحرى بمن يعشقْ

بالله يا قلبي اذا اتاك
مستعلمٌ يسأل عما دهاك — فاكتمْ

يا قلبُ إن قالوا

أينَ التي تهوى ؟

قلْ — قد سبَتْ غيري

ثمّ ادّعِ السلوى

فلله يا قلبي　　　　أسترْ جوَاك

فما الذي يضنيك　　　　الا دواك — فاعلمْ

الحبُّ في الارواح

كخمرةٍ في الكاس

مـا بان منها مـاء

ومـا خفي أنفاس

فلله يا قلبي　　　　احبسْ عناك

إنْ ضجّتِ الابحار　　　　أو هدّت الافلاك — تسلمْ

اغنية الليل

سكنَ الليلُ ، وفي ثوب السكونْ تختبي الاحلامْ
وسعى البدرُ ، وللبدرِ عيونْ ترصد الايامْ

فتعالي ، ياابنة الحقلِ ، نزورْ كرمةَ العشاقْ
علَّنا نطفي بذياكَ العصير حرقةَ الاشواقْ

اسمعي البلبلَ ما بين الحقولْ يسكبُ الالحانْ
في فضاءٍ نفخت فيه التلول نسمةَ الريحانْ

لا تخافي ، يا فتاتي ، فالنجومْ تكتمُ الاخبارْ
وضبابُ الليل في تلك الكروم يحجب الاسرارْ

لا تخافي ، فعروسُ الجنِ في كهفها المسحورْ
هجعتْ سكرَى وكادت تختفي عن عيون الحُورْ

ومليكُ الجنّ إنْ مرَّ يروح والهوى يثنيهِ
فهْوَ مثلي عاشقٌ كيفَ يبوح بالذي يُضْنيهِ



موشحات جديدة

البحـــــر

في سكون الليل لما تنثني   يقْظةُ الانسان من خلف الحجاب
يصرخ الناب — انا العزمُ الذي   أنبتهْ الشمسُ من قلبِ التراب

غيرَ أنَّ البحرَ يبقى ساكناً
قائلاً في نفسه — ألعَزْمُ لي

ويقول الصخر إن الدهرَ قد   شادني رمزاً الى يومِ الحساب

غيرَ ان البحرَ يبقى صامتاً
قائلاً في نفسهِ — ألرّمزُ لي

ويقول الريحُ — ما أغربَني   فاصلاً بين سديمٍ وسمَا

غيرَ أن البحرَ يبقى ساكتاً
قائلاً في نفسهِ — ألرّيحُ لي

ويقول النهر — ما أعذبَني   مشرباً يروي من الارض الظما

غيرَ أن البحرَ يبقى صامتاً
قائلاً في ذاته — النهرُ لي

ويقول الطود — إني قائمٌ   ما أقام النجمُ في صدرِ الفلَكْ

غيرَ أن البحرَ يبقى هادئاً

قائلاً في نفسه — ألطود لي

ويقول الفكرُ — اني مَلكٌ   ليس في العالمَ غيري من ملك
غيرَ أن البحرَ يبقى هاجماً
قائلاً في نومه — الكلُّ لي

الشحرور

ايها الشحرور غرّدْ   فالغِنا سرُّ الوجود
ليتني مثلَكَ حرٌّ   من سجونٍ وقيودْ
ليتني مثلك روحاً   في فضا الوادي أطير
اشربُ النورَ مُداماً   في كؤوسٍ من أثير
ليتني مثلك طهراً   واقتناعاً ورضى
معرضاً عمَّا سيأتي   غافلاً عمَّا مضى
ليتني مثلك ظرفاً   وجمالاً وبها
تبسطُ الريح جناحي   كي يوشِّيهِ الندى
ليتني مثلك فكراً   سابحاً فوقَ الهضاب
اسكبُ الانغامَ عفواً   بينَ غابٍ وسحاب
أيها الشحرورُ غنِّ   واصرفِ الاشجانَ عني
إنَّ في صوتك صوتاً   نافخاً في اذنِ اذني

الجبار الرئبال

في ظلام الليل يمشي مبطئاً   وهو مثل الليل هولاً . قد بدا
وحده يمشي كأنَّ الارضَ لم   تبرِ الاله عظيماً سيدا
ويدوس التربَ مرفوعاً كما   تلمسُ الاطلالُ اطرافَ السحاب.
فكأنَّ الجسمَ في اثوابهِ   من شعاعٍ وسديمٍ وضباب
قلت — ياطيفاً يعيق الليل في   سيرهِ ، هل انتَ جنٌ أم بشر؟
قال مغتاظاً وفي ألفاظه   رنةُ الهزءِ — أنا ظلُّ القدَر
قلت — لا ياطيف قد مات القضا   يومَ ضمتني ذراعُ القابله
قال محتاراً — انا الحبُّ الذي   لا ينالُ العيش الاَّ نائله.
قلت — لا فالحبُّ زهرٌ لا يعيش   بعد أن تذبلَ أزهار الربيع
قال غضباناً وفي لهجتهِ   ضجةُ البحرِ — أنا الموت المريع.
قلت — لا فالموت صبحٌ إن اتى   أيقظَ النائمَ من غفلته
قال — مختالاً انا المجد فمن   لم ينلني مات في علّتهِ.
قلت — لا فالموت ظلٌّ ينثني   مضمحلاً بين لحدٍ وكفَن
قال مرتاباً — انا السرُّ الذي   يتهادى بين روحٍ وبدن
قلت — لا فالسرُّ ان باحت به   يقظةُ الفكرِ تولّى كالمنام
قال ملتاعاً — كفى تسألني   من أنا . قلت — أفي السؤل ملام؟
قال محجوباً — انا انت فلا   تسألنَّ الارضَ عني والسما

فاذا ما شئتَ ان تعرفني فارقبِ المرآة صبحاً ومسا
قال هذا واختفى عن ناظري مثلما الدُّخان تذريه الرياح
تاركاً ما بي من الفكر يهيم بينَ أشباح الدجى حتى الصباح

الشهرة

كتبت في الجزر سطراً على الرملِ
أودعته كلَّ روحي مع العقلِ
وعدت في المدِ أقرا وأستجلي
فلم أجد في الشواطي سوى جهلي

بالامس *

كان لي بالامس قلبٌ فقضى وأراحَ الناسَ منهُ واستراح
ذاك عهدٌ من حياتي قد مضى بينَ تشبيبٍ وشكوى ونواح
انما الحبُّ كنجمٍ في الفضا نورُه يمحى بانوارِ الصباح
وسرورُ الحب وهمٌ لا يطول وجمالُ الحب ظلٌّ لا يقيم
وعهودُ الحب أحلامٌ تزول عندما يستيقظ العقلُ السليم

* * *

كم سهرتُ الليل والشوقُ معي ساهرٌ ارقبُه كي لا أنام
وخيالُ الوجدِ يحمي مضجعي قائلا « لا تدنُ ! فالنومُ حرام »
وسقامي هامسٌ في مسمعي «من يريد الوصل لا يشكو السقام»
تلك ايامٌ تقضت ، فابشري يا عيوني ، بلقا طيفِ الكرى
واحذري ، يانفسُ ، ألا تذكري ذلك العهدَ وما فيه جرى

* * *

كنتُ إنْ هبَّتْ نسيماتُ السحرْ أتلوَّى راقصاً من مرَحي
واذا ما سكبَ الغيمُ المطرْ خُلتهُ الراحَ فأملي قدحي
واذا البدرُ على الافقِ ظهرْ وهي قربي صحتُ «هلاَّ يستحى!»
كلٌّ هذا كان بالامسِ ، وما كان بالامس تولى كالضباب
ومحا السلوانُ ماضيَّ كما تفرط الانفاسُ عقداً من حباب

* * *

يا بنيَّ أمي اذا جاءت ميعاد ... تسأل الفتيانَ عن صبٍّ كئيبِ
فاخبروها أنَّ أيامَ البعاد ... أخمدتْ من مهجتي ذاك اللهيبِ
ومكانَ الجمر قد حلَّ الرماد ... ومحا السلوانُ آثارَ النحيبِ
فاذا ما غضبتْ لا تغضبوا ... واذا ناحت فكونوا مشفقين
واذا ما ضحكتْ لا تعجبوا ... إنَّ هذا شأنُ كلِّ العاشقين

* * *

ليت شعري ! هل لِماَ مرَّ رجوع ... أو معادٌ لحبيب وأليف ؟
هل لنفسي يقظةٌ بعد الهجوعْ ... لِتريني وجهَ ماضيَّ المخيف ؟
هل يعي ايلولُ انغام الربيعْ ... وعلى اذنيه اوراقُ الخريف ؟
لا ، فلا بعثٌ لقلبي أو نشور ... لا ، ولا يخضرُّ عودُ المحفلِ
ويدُ الحصاد لا تحيي الزهور ... بعد أن تُبرى بحد المنجلِ

* * *

شاخت الروح بجسمي وغدَتْ ... لا ترى غيرَ خيالاتِ السنين.
فاذا الاميالُ في صدري فشتْ ... فبعكاَّز آصطباري تستعين.
والتوتْ مني الاماني وانحنت ... قبل ان ابلغَ حدّ الاربعين
تلك حالي فاذا قالت رحيلْ ... «ما عسى حلَّ به؟» قولوا «الجنون».
واذا قالت « أيشفى ويزولْ ... ما به ؟ » قولوا « ستشفيهِ المنون ».

الدين

والدين في الناس حقلٌ ليس يزرعه ... غيرُ الأُولى لهمُ في زرعه وطرُ
من آملٍ بنعيم الخلد مبتشرٍ ... ومن جهولٍ يخاف النارَ تستعرُ
فالقومُ لولا عقابُ البعثِ ما عبدوا ... رباً ولولا الثوابُ المرتجى كفروا
كأنما الدينُ ضربٌ من متاجرهم ... إن واظبوا ربحوا أو أهملوا خسروا

العدل

والعدل في الارض يبكي الجنَّ لو سمعوا ... به ويستضحك الاموات لو نظروا
فالسجن والموت للجانين ان صغروا ... والمجد والفخر والأثراء إن كبروا
فسارقُ الزهر مذمومٌ ومحتقرٌ ... وسارق الحقل يدعى الباسل الخطر
وقاتل الجسم مقتول بفعلته ... وقاتل الروح لاتدري به البشر

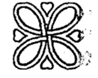




لو تدرك

الاشواك

سر الزهور





نظم

ميخائيل نعيمه

والرسم بريشة

جبران خليل جبران



لو تدرك الاشواك سر الورود

يا ساقي الجلاس بالله لا تحفل بكاسي بين هذي الكؤوس
اترع لغيري الكاس ، أما أنا . فاحسب كأني لست بين الجلوس .
واعبر . ودعني فارغ الكاس

لا . لا تقل ما طابت الخمر لي أو انني ما بينكم كالغريب ،
بل ان لي يا صاحبي خمرة ما مثلها يطفي بروحي اللهيب .
اعصرها من قلبي القاسي

يا مرسل الالحان من عوده سحراً يهيج الصب حتى الجنون ،
أما رأيت الوجه مني انكمش والعين غابت تحت ستر الجفون .
فلا تقل ذي حال ولهان

لا . لست بالولهان يا صاحبي ، فالقلب مني جامد كالجليد .
لكنني مصغ لنفسي ففي نفسي أوتار وفيها نشيد
فاضرب . ودعني بين الحاني

يا ساكن القصر الجميل افتخر يا صاحبي واهنا بقصر جميل
ولتسقك الايام من كوثر اللذات و لتمنحك عمراً طويل .
تجني المنا عاماً ورا عام

لا . لاتقل ما راق لي قصرك العالي أو آني لم يطب لي هواه .

خل ن لي ياصاح قصراً ابت نفسي بان تلجا لقصر سواه
ذا قصر افكاري واحلامي

جياجالساً بين اللحود التي سكانها اضحوا تراباً ودود ،
عي ، ان من تبكيه يا صاحبي لاشكَّ خدنٌ أو صديقٌ ودود
أو ، ان تشا ، قلْ خير انسانِ

لكن غداً تنساه . أما أنا ففي حياتي كلَّ يوم دفين .
اذ انني اجتثُّ ما قد بلي مني ، وكم يبلي رجاءٌ ثمين
في لحظةٍ من عيشنا الفاني !

يا حاشدَ الاموال فلساً الى فلسٍ يكدُّ الليل قبل النهار
ايامه صفرٌ كأعوامه لا لونَ فيها غير لونِ النضار
عمياء تجري حيث لاندري

لا والذي الاقدار خدامه ما في فؤادي غصة من غناك
اذ قد حباني الحظُّ بعض الغنى يا صاحبي من غير ما قد حباك
فاحشدْ ولا تشفقْ على فقري

يا حامل الانجيل يدعو الى نبذ المعاصي منذراً بالعقاب
بشرْ وخلصْ يا اخي نفسنا ضلت لكي تلقى جميل الثواب
اذ ينصب الديان ميزانه

إمَّا صممت الاذنَ عن دعوتك فاصفح ودعني في ضلالي مقيم .

لاذ لي فؤاد قد تجوى جنة والله ادرى. كم حوى من جخيم

فاكرز . ودع قلبي وادرانه

يا زهرةً . ما بين شوكٍ نمت لولا شذاها ضلَّ عنها البشر

هل تدرك الأشواكُ يا زهرتي ان الشذا هذا شذاك انتشر

في الحقل لا عطرَ لها فاحا ؟

هل تدرك الاشواك ما تدركين ؟

هل عطَّر العلَّيقُ أذياله من حيث تمتصين انت الاريج

ثم حاك غيرَ الشوك ثوباً له من حيث حكت انتِ أبهى النسيج ؟

قد تصبح الاشواك آقاحاً

لو تعرف الاشواك ما تعرفين ! . . . .



اخوان جبران

اعضاء الرابطة القلمية في نيويورك

عمال الرابطة القلمية
الصف الاول من اليمين الى الشمال
الياس عطا الله
رشيد ايوب
ندره حداد
وديع باحوط
نسيب عريضه


الصف الاوسط
وليم كاتسفليس (الخازن)
جبران خليل جبران (العميد)
ميخائيل نعيمه
الصف الاخير
عبد المسيح حداد
ايليا ابو ماضي



فهرست

فهرست الصور

منظومات جبران الشعرية

مكتبة العرب

لصاحبها يوسف توما البستاني بالفجالة نمرة ٤٩ بمصر

صندوق بوسطة الفجاله ٢٩ — تلفون ٦٢٢٣

تطلب منها الكتب الآتية فترسلها بالبريد

ص	
١٠	مذكرات سفير أميركا في الاستانة تعريب فؤاد صروف
١٢	نوادر الحرب العظمى وهي قصص واقعية فكاهية
١٥	مذكرات مدام اسكويث تعريب اسعد خليل داغر
١٢	المرشد الظريف في طالع الجنس المطيف بالصور والطلاسم
٨	القوة الفكرية في المغنطيسية الحيوية
٥	غليوم الثاني امبراطور المانيا السابق
٥	الرحلة السورية في الحرب العمومية
٣٠	الساق على الساق في ما هو الفارياق
١٠	ماك سويني اللورد محافظ كورك
٨	رسبوتين الراهب المحتال تعريب اسعد خليل داغر
١٠	رسائل اليازجي الشيخ ابراهيم اليازجي
١٥	تاريخ الفلسفة من اقدم عصورها الى الآن بالصور
٥	معارضات قصيدة يا ليل الصب لعيسى اسكندر معلوف
٢	الداء والشفاء قصيدتان للعلامة سليمان البستاني
٤	الاختزال العربي بالصور » » »
٤	من اعماق السجون لاوسكار وايلد تعريب نقولا ي
٨	الدرة الثمينة في عرافة الكوتشينة بالصور
٥	رواية ذات الخدر للمرحوم سعيد البستاني
٤	لودندرف القائد الالماني العظيم
٥	رواية ابن الكنز يا شارلوك هولمز تعريب نقولا ا
٥	رواية فاتنة الامبراطور فرنسوا جوزف للحداد أ
٢٥	الفجر الاول هو ديوان خليل شيبوب